

الباب الثالث

# تأثير الديمقراطية في عادات الناس وأخلاقهم

## الفصل الأول

# تهذب عادات الناس وتزداد رقة كلما تساوت أحوال الناس الاجتماعية

ظلت أحوال الناس الاجتماعية عدة قرون وهي تسير نحو المساواة، وفي الوقت نفسه أخذت عادات المجتمع وعرفه تتشذب وترقى، فهل حدث هذان الأمران متعاصرين ياترى، أم أن بينهما صلة حقيقية تربط أحدهما بالآخر بحيث لا يستطيع أحدهما التقدم دون الآخر؟ تصافرت عوامل شتى على التخفيف مما في عادات الشعب المألوفة من خشونة وجفوة، وربما كان عامل المساواة في أحوال الناس الاجتماعية أقوى هذه العوامل كلها وأبعدها أثراً، في نظري. فالمساواة وتهذيب العادات والعرف هما، في اعتقادي، حقيقتان متضابفتان، فضلاً عن أنهما متعاصرتان.

فكلما أراد واضعو الأساطير أن يستثيروا اهتمامنا بذكر أفعال الحيوان ووصف تصرفاته، نسبوا إليه أفكاراً بشرية وتصرفات إنسانية، وكذلك يفعل الشعراء وهم يتحدثون إلينا عن الأرواح والملائكة وأمثالها، فليس ثمة بؤس خالص أو نعيم خالص يمكن أن يسترعى نظرنا أو يستهوى قلوبنا إلا إذا عرض علينا في صور وأشكال غير تلك التي نعهدنا في أنفسنا عادة.

ويصدق هذا تمام الصدق على الموضوع الذي أماننا الآن؛ فعندما يصنف الناس ويرتبون في البلاد الأرستقراطية على أساس نظام ثابت، وبحسب مهنتهم وثرواتهم، ونسبهم، اعتبر أعضاء كل فئة منهم أنفسهم كأنهم أسرة واحدة، وصاروا يشعرون بالعطف بعضهم على بعض، وهو ما لا يتأتى للمواطنين في البلاد الديمقراطية أن يشعروا به. ولكن هذا الشعور بالعطف نفسه لا يوجد بين الطبقات المختلفة؛ فلا تشعر طبقة منها بالعطف على الأخرى.

هذا ولكل فئة من فئات الطبقة الأرستقراطية في الأمة الواحدة آراؤها ووجداناتها وعاداتها وحقوقها، وطرق معيشتها الخاصة بها. فأعضاء هذه الفئات الأرستقراطية لا يشبهون الجمهرة الكبرى من مواطنهم، فهم لا يفكرون ولا يشعرون كما يفكر أفراد

عامة الشعب ويشعرون ، فكأنى بهم لا يعتقدون أنهم وإياهم خلقوا من طينة واحدة . ومن ثم لم يكن في مقدورهم أن يفهموا تمام الفهم حقيقة ما يشعر به الآخرون ؛ ولا هم يحكمون على غيرهم من الناس بحسب المعايير نفسها التي يحكمون بها على أنفسهم . ومع ذلك كله فإن أعضاء تلك الفئات أو الجماعات الأرستقراطية قد يادرون ويمدون المساعدة إلى بعضهم البعض . وهذا لا يتناقض بحال مع ما سبق أن أشرت إليه .

فهذه المؤسسات الأرستقراطية نفسها التي جعلت من أفراد الجنس الواحد أفرادا مختلفين ، وربطتهم رغمًا عن ذلك روابط سياسية وثيقة ، فمع أن القرن (عبد الأرض) لا يرى أن له أية مصلحة طبيعية في مصائر النبلاء والسادة ومقدراتهم ، فلا يخطر بباله مع ذلك ، أنه غير ملتزم بتكريس شخصه لخدمة ذلك النبيل أو السيد الإقطاعي الذي سودته المصادفة ، فجعلته سيداً عليه متحكماً فيه ، ومع أن هذا السيد قد يعتقد أنه من معدن آخر غير معدن أقاته ، فهو لا يتردد مع ذلك في التسليم بأن الواجب والشرف يقتضيانه أن يدافع عن أولئك الذين يعملون في أراضيه وضياعه ، حتى ولو كلفه ذلك الدفاع حياته نفسها .

ولا يخفى أن هذه الالتزامات المتبادلة لم تنشأ عن قانون طبيعي . وإنما نشأت من نظام المجتمع نفسه ، وأن مطالب الواجبات الاجتماعية لأشد صرامة من مطالب الإنسانية وحدها . ولم يكن مفروضاً في هذه الالتزامات أن تكون واجبة على الإنسان للإنسان ، ولكنها واجبة للسيد الإقطاعي أو المولى . هذا ، وقد أيقظت النظم الإقطاعية عطفاً قوياً على فئة من الناس من جراء ما تعانين من متاعب ومن شقاء . ولكنها لم توقف شيئاً من مثل ذلك العطف مطلقاً على ما يعانين البشر من حيث هم بشر . إنها جعلت الأخلاق كريهة ؛ ولكنها لم تحفل أى احتفال بالاعتدال ، ولا بالرحمة . فإن كانت قد حنت الناس على القيام بتضحيات كبيرة فهي لم تخلق فيهم أى تعاطف أو مشاركة وجدانية صادقة لأن مثل هذا التعاطف أو تلك المشاركة الوجدانية لا تتأق إلا بين الأفراد المتماثلين ، ولم يكن الناس في العصور الأرستقراطية يعترفون لأحد بأنه مماثل لهم ومن معدنهم إلا إذا كان من الطبقة نفسها التي ينتمون هم إليها .

كان جميع الإخباريين الذين يدونون الحوادث ويؤرخون لها في العصر الوسيط ، من الأرستقراطيين من حيث نسبهم أو من حيث ثقافتهم وتعليمهم . فعندما يسرد علينا هؤلاء الإخباريون أخبار الآخرة المحزنة لنبيل من النبلاء لمسنًا في الحال فيما يسردونه علينا حزنهم وعطفهم عليه . أما إن حدثونا عن المذابح ، وصنوف التعذيب والتككيل التي تصب على أبناء الشعب<sup>(١)</sup> فحديثهم مقتضب وجاف كل الجفاف ، لأنه لا يحرك قلوبهم ولا يستزل

(١) ربما كان المؤلف يشير هنا إلى الإخباري الفرنسي جان فروسار (Jean Froissart) (١٣٣٧ - ١٤١٠) ، وكانت حولياته تمتد من سنة ١٣٦٢ حتى سنة ١٤٠٠ .

منهم دمة عين، وليس ذلك لأن هؤلاء الكتاب كانوا يستشعرون الكراهية أو الحقد على أحد من أفراد الشعب، فلم يكن الصراع بين الطبقات قد قام بعد، بل كانوا مدفوعين بنزعاتهم وأهوائهم. ولما لم تكن لديهم فكرة واضحة عما يعانيه الفقير من أبناء الشعب من آلام وعذاب، لم يحفلوا بما يحدث له ولا بمصيره أى احتفال.

وكانت وجدانات مثل هذه، هي التي تحرك الطبقات الدنيا، فلما انفصمت الرابطة الإقطاعية (التي تربطهم بسادتهم) كانت العصور التي شاهدت الكثير من أعمال البطولة والإخلاص، من ولاء التابع والمتبوع - قد تلطخت هي نفسها بفظائع شنيعة مفرجة ارتكبتها الطبقات الدنيا ضد الطبقات العليا<sup>(١)</sup>.

على أنه يجب ألا يسبق إلى وهننا أن جمود الحس المتبادل هذا قد نشأ من عدم استقرار النظام العام، وعدم التعليم وحدهما؛ فقد وجدت آثار منه في القرون التي تلت والتي استقرت واستتب فيها النظام واستنارت، في حين ظلت هي الأخرى عصوراً أرستقراطية.

لما ثارت الطبقات الدنيا في مقاطعة بريطانيا سنة ١٦٧٥ من جراء ما فرض عليها من ضرائب جدد، قمعت الحكومة الاضطرابات بقسوة منقطعة النظر، وقد شاهدت مدام دو سيفينييه (de Sévigné)<sup>(٢)</sup> هذه الفظائع وقصت خبرها على ابنتها في خطاب كتبه إليها في ٣٠ أكتوبر سنة ١٦٧٥ وبعثت به إليها من روشيه، قالت فيه :

«إن خطابك الذي أرسلته من «إيكس» خطاب عجيب كل العجب يا بيتي . فأنصح لك بقراءة خطاباتك مرة أخرى على الأقل قبل إرسالها فستدهشين من تلك الأشياء الجميلة التي سطرتها يدك، وتعزين بهذا السرور عن المتاعب التي تجشمتها في كتابة الكثير من هذه الخطابات . لقد قبلت بروفانس كلها إذن، أليحى كذلك؟ إن تقبيل بريطانيا لا متعة فيه إلا لمن يريد أن تفوح منه رائحة النيذ... أتودين أن تسمعي أخبار مدينة رن Rennes لقد فرضت الحكومة على الأهالي ضرائب مقدارها مائة ألف كراون على شريطة أن تدفع في أربع وعشرين ساعة وإلا ضعفت، وقام الجند بجبايتها، فأخرجوا الناس من بيوتهم وطردها السكان من أهم شارع في المدينة، وحرموا على كل إنسان أن يؤويهم، وإلا عرض نفسه لأن يحكم عليه بالإعدام، فكنت ترين المساكين، من رجال شيوخ، ونساء حوامل قاربن الوضع، وأطفال صغار يطوفون بأرجاء الحى يكون، وهم يغادرون المدينة دون أن يدروا أنى يذهبون، وليس معهم طعام، ولا يعرفون لهم مسكناً يلجأون إليه . وأمس الأول فصلوا أعضاء رجل «موسيقار» بواسطة آلة التعذيب الخاصة لأنه أقام مرقصاً وسرق ورقاً من أوراق «التمغة»؛ ثم لم يكتفوا بذلك بل قسموا جسده بعد موته أربعة أقسام

(١) ويشير هنا إلى ثورة الفلاحين الفرنسيين في إقليم باريس ضد النبلاء الإقطاعيين الذين استغلواهم كل استغلال . وقد حدثت هذه الثورة في صيف سنة ١٣٥٨ وتعرف باسم الجاكرى (La Jacquerie) .  
(٢) مدام دو سيفينييه (١٦٢٦ - ١٦٩٦) هي الكاتبة الفرنسية الشهيرة .

عرضوا كل ربع في ركن من أركان المدينة. هذا وقد ألقوا بستين مواطناً في غيابة السجون، وسيبدأ تعذيبهم في الغد، وسوف تكون هذه «المقاطعة» عبرة طيبة تعلم الناس احترام الحكام وأزواجهم وألا يحصبوا حدائقهم بالأحجار .

لقد كان أمس يوماً رائعاً، فقد زارت مدام طارت هذه الغابات، ولم تكن ثمة مشكلة لإعداد حجرة خاصة بها أو وجبة صغيرة لها، فقد جاءت من البوابة وستعود من الطريق ذاته ... .

وقالت في خطاب آخر :

« إنك لتحدثين عما نقاسيه من متاعب حديثاً رائعاً حقاً، ولكننا لم نعد نتضيق من تنفيذ حكم الإعدام، فلم يعد ينفذ الآن إلا مرة واحدة في كل أسبوع، وذلك مجرد الاحتفاظ بمظاهر الأشياء. حقاً إن طريقة الإعدام شنعاً لتبدو لي الآن تسلية مسيخة، وقد خطرت ببالي فكرة جديدة كل الجودة عن العدالة منذ أن جئت إلى هذا الإقليم . إن العيد الذين يعملون في الشنق يدون لي جماعة من الناس الصالحين طلقوا هذه الدنيا وانبتوها كي يعيشوا عيشة هادئة .

من الخطأ أن نظن أن مدام دو سفينيه التي كتبت هذه الأسطر مخلوقة أنانية قاسية، فقد كانت تحب أطفالها كل الحب وتتأثر كل التأثر بما يعانیه أصدقائها من آلام ومتاعب، بل إن خطاباتها لتبين أنها كانت تعامل عيدها بالشفقة والرحمة ، ولكن لم يكن عندها فكرة واضحة عن تلك الآلام التي يعانيتها أى إنسان ليس مثلها من الأعيان .

إن أقصى رجل في عصرنا. وهو يكتب إلى أبلد من يعرفهم حساً لا يجسر أن يستسلم في غير مبالاة إلى ذلك النوع من المذر القاسى الذى اقتبسنا مثالا له هنا. وحتى إن سوغت له آدابه أن يفعل ذلك، فأخلاق المجتمع في جملته لتحرمه عليه. فمن أين جاء ذلك إذن؟ هل صرنا أرهف حساً من آباتنا؟ لا أظن ذلك. ولكنى واثق من أن حساسيتنا امتدت وشملت أموراً كثيرة كل الكثرة .

عندما تتقارب جميع طبقات الأمة بعضها من بعض حتى تكاد تتساوى. وعندما يفكر الناس كلهم ويشعرون بطريقة واحدة تقريبا. فقد يتيسر لكل واحد منهم أن يحكم في طرفه عين على إحساسات الناس جميعا. فحسبه أن يلقى نظرة عجل على ما يجرى في نفسه. فليس ثمة بؤس لا يستطيع أن يدركه. إذ به نزع فطرية خفية تكشف له عن مدى هذا البؤس. وسواء كان الذين يتعذبون غرباء أو أعداء. فإنه يستطيع أن يتخيل نفسه مكانهم، وعندئذ يخالطه شيء شبيه بالشعور الشخصى لشفقته فيجعله يتألم عندما ينصب العذاب على جثمان أخيه الإنسان .

كان من النادر في العصور الديمقراطية أن يضحي أحد من الناس بنفسه في سبيل غيره، ولكنهم كانوا مع ذلك يدون شفقة عامة بينى الإنسان. فلم يكونوا يوقعون عليهم

آلاماً لا لزوم لها، وكان يسعدهم أن يخففوا آلام الناس كلما استطاعوا إلى تخفيفها سبيلاً من غير أن يجروا بذلك على أنفسهم ضرراً كبيراً، إنهم ليسوا نزيهين خالين من الأغراض والغايات، ولكنهم كانوا ذوى إنسانية ورحمة.

ومع أن الأمريكيين قد حولوا الأناية بشكل ما إلى نظرية فلسفية واجتماعية فإنهم لا يزالون مع ذلك يستطيعون أن يستشعروا الشفقة على غيرهم. فلا يوجد بلد في العالم تعالج فيه قوانين العقوبات بشكل أرف مما تعالج به في الولايات المتحدة، فعلى حين يبدو الإنجليز أنهم حريصون، في ظاهر الأمر، على الاحتفاظ بأثار دموية مما كان في العصور الوسطى، في تشريعه الخاص بالجرائم، نرى الأمريكيين قد ألغوا عقوبة الإعدام من قوانينهم أو كادوا، فأمريكا الشمالية، في رأيي هي البلد الوحيد الذي لم يصدر فيه حكم الإعدام في جريمة سياسية في الخمسين سنة الأخيرة.

فالطريقة التي يعالج بها الأمريكيون عبيدهم تقننا كل الإقناع بأن هذه الرأفة الفذة إنما نشأت أساساً من أحوالهم الاجتماعية. وفي الحملة، قد لا يكون ثمة مستعمرة أوربية واحدة في الدنيا الجديدة أحوال الزوج المادية فيها أقل قسوة مما هي عليه في الولايات المتحدة؛ ومع ذلك فلا يزال العبيد فيها يتعرضون باستمرار لأقسى أنواع العقوبات وأشنعها. ومن اليسير علينا أن ندرك أن حظ هؤلاء المخلوقات النكد لا يوحى إلى سادتهم إلا بالقليل من الشفقة بهم، فالسادة هؤلاء لا ينظرون إلى الرق من حيث هو نظام يدر عليهم الربح فحسب، بل ينظرون إليه من حيث هو شر لا يمسه في شيء. وهكذا نجد الرجل الذي كله خير ومحبة لبني جنسه الذين هم أنداده المساوون له - بليد الحس لا يتأثر بالأمهم ومتاعهم إذا ما حدث وزالت عنهم هذه الصفة، صفة المساواة به، فيجب أن تعزى رأفته إذن إلى تساوى الأحوال الاجتماعية لا إلى الحضارة ولا إلى التعليم.

إن ما ذكرته هنا بشأن الأفراد ينطبق إلى حد ما على الأمم، فعندما يكون لكل أمة آراؤها الخاصة التي تتميز بها، ولها قوانينها وعاداتها ومعتقداتها، فإنها تنظر إلى نفسها على أنها الجنس البشرى كله، فلا تحركها آلام أحد سوى آلامها هي، فإن حدث وقامت حرب بين أمتين تحركهما هذه المشاعر، كانت حرباً قاسية مريعة كل المرارة.

لقد درج الرومان، وهم في أوج ثقافتهم وحضارتهم، على تذييع القواد من أعدائهم بعد أن يتشفوا منهم تشفى الظافر بجرحهم مربوطين خلف عربة، كما كانوا يلقون بأسراهم وسجنائهم لوحوش «السيرك» ليتلهى بهم الشعب ويتسلى. وكان «شيشرون»، ذلك الذى رفع عقيرته بالاحتجاج الشديد على صلب مواطن روماني، لم يجد كلمة يقولها في تلك الفظائع التي يقترفها المنتصر على أعدائه؛ فالرجل الهمجى، ليس من طينة الرجل الروماني في نظره.

والأمر على العكس من ذلك عندما تصير الأمم أكثر شَبهاً ببعضها بعض؛ فالرأفة المتبادلة بينها تزداد، على حين يلين قانون الأمم.

## الفصل الثاني

# الديمقراطية بسّطت العلاقات العادية بين الأمريكيين ويسرتها

لا تربط الديمقراطية الناس بعضهم ببعض ربطاً قوياً بأواصر المودة، ولكنها تيسر لهم الاختلاط العادى وتسهله .

فلو أن إنجليزين تقابلا مصادفة في مكان ما في أقصى الأرض حيث يحيط بهم أغراب ، ولا يكاد يعرفان لغتهم ولا أخلاقهم ، فإنهما يبدآن بأن يحدق كل منهما في الآخر بشيء من الفضول وبشيء من القلق الخفى ، ثم يبعدان بعضهما عن بعض ، وإن هما تخاطبا حرصا كل الحرص على ألا يتحدثا إلا بكل تحفظ واحتياط ، ولا يدور حديثهما إلا حول أمور تافهة . ومع ذلك فليس ثمة أى عداوة بينهما ، فإنهما لم يتقابلا من قبل قط ، وكل منهما يعتقد أن الآخر شخص جدير بكل احترام . فما الذى دعاهما إذن إلى أن يقف كل منهما موقف الحذر والحيطه من الآخر ؟ إنا يجب أن نعود إلى إنجلترا نفسها لنعرف السبب .

فإن كان نظام المجتمع يقوم على أساس النسب وحده من غير نظر إلى الثروة ، عرف كل واحد مركزه على السلم الاجتماعى حق المعرفة والتزمه ، فلا هو يسعى أن يرتفع عنه ، ولا يخشى أن يهبط إلى ما دونه . ففي المجتمع المنظم على هذا الأساس قلما يتصل الناس الذين من طبقات مختلفة بعضهم ببعض . ولكن إن حدث أن اتصلا كانوا على استعداد للتحدث في غير خوف من أن يتأثر مركز أيهما ، فاتصالهما هذا لا يتم على قدم المساواة ومع ذلك فهو خال من التزمت والوجوم .

فإن حدث وأعقبت الأرستقراطية المالية أرستقراطية الأهل والنسب تغيرت الحال . فما تزال الميزات التى يستمتع بها البعض عظيمة ، ولكن باب الحصول عليها مفتوح للجميع ، مما يترتب عليه أن من يجوزون هذه الميزات يساورهم الخوف دائماً من أن تزول عنهم أو من أن يشاركهم فيها آخرون . أما الذين لم يحصلوا عليها بعد فيتلهفون على حيازتها

مهما كلفهم الأمر من ثمن . وإن هم فشلوا ، ظهروا على الأقل بمظهر الحائز لها ، وهذا ليس بالعسير . فلما كانت أهمية مراكز الناس الاجتماعية لم تحدد بعد بشكل بارز ، ولا دائم على أساس الدم ، وأنها تختلف اختلافاً لا نهاية له بسبب مقدار الثروة ، فإن مراتبهم ستظل قائمة ، ولكن ليس من السهل علينا أن نميز بنظرة واحدة أهل كل مرتبة ، وعندئذ تقوم في المجتمع عداوات خفية ؛ فكل فئة من الناس تعمل بحيل شتى لاعدادها على أن تنضم فعلاً أو تتظاهر بأنها تنضم إلى أهل طبقة أعلى منها ؛ وتظل فئة أخرى تعمل باستمرار على مكافحة أولئك الذين اغتصبوا حقوقهم ، أو بالأحرى قد يقوم الشخص نفسه بالائتيم معاً . فيينا هو يسعى وراء النهوض بنفسه لينضم إلى دائرة أعلى من دائرته ، يظل يتخذ موقف الدفاع دائماً خشية أن يصل إلى مستواه من هم دونه .

هذه هي حائل إنجلترا في وقتنا الحاضر . وفي رأبي أن الخاصية التي أشرت إليها توا يجب أن تعزى أساساً إلى هذا السبب . وإذا كانت الكبرياء الأرستقراطية لاتزال شديدة متعجرفة في إنجلترا ، وكانت حدود الأرستقراطية غامضة غير متعينة صار كل امرئ في فزع دائم من أن يستغل أحد ألقته به . ولما كان الرجل الإنجليزي لا يستطيع أن يدرك ما للناس الذين يصادفهم من مراكز اجتماعية صار يرى أنه من الحزم والكياسة أن يتجنب كل اتصال بهم . لقد صار الناس يخشون أنهم إذا ما قدموا خدمة بسيطة لأحد ما ، أن يحملهم ذلك على التعرف بشخص قد لا ينسجم معهم في شيء ، فهم يخشون المجاملات ويتحاشون أي شكر يقدم إليهم اعتباراً من أي شخص غريب عليهم ، كما يتحاشون استتارة كراهيته لهم .

هذا ، ويعزو كثيرون هذه النزعات غير الاجتماعية وموقف الانجيز المتزمت من سائر الناس إلى أسباب طبيعية خالصة . ولست أنكر وجود شيء من هذا في جنسهم ، ولكن معظمه يرجع إلى أحوالهم الاجتماعية ، وحسبنا هنا أن نوازن بينهم وبين الأمريكيين حتى يتبين لنا صدق هذا القول .

ففي أمريكا ، حيث لم تقم أية ميزة للأصل والنسب ، حيث الثراء لا يضيف أية حقوق خاصة على الأغنياء ، نجد الناس الذين لا يعرفون بعضهم بعضاً يترددون على نفس المحلات التي يتردد عليها سواهم ، ولا يجدون خطراً ولا ميزة في أن يتبادلوا أفكارهم تبادلاً حرّاً مع غيرهم فإن هم التقوا مصادفة لم يسعوا إلى التحدث ، ولا هم يتحاشونه ، فلا غرو أن كان سلوكهم إذن طبيعياً وصريحاً ومخلصاً . ومن الهين أن ندرك أنهم قلما ينتظرون أن يتعلموا أو يتوقعوا شيئاً من بعضهم البعض ، ولا هم يحفلون بأن يظهروا مراكزهم الاجتماعية في هذه الدنيا ، ولا يحاولون إخفاءها . فإن كان سلوكهم كثيراً ما يبدو لنا جدياً وباهتاً ولا روح فيه ، فإنك لاتلمس فيه أبداً كبرياء ولا استعلاء ولا أي تحفظ . فإن هم لم

يتحدثوا إليك فذلك لأنهم لارغبة لهم في الحديث، وليس لأنهم يرون أن مصلحتهم تقتضيهم التزام الصمت.

وإذا تقابل أمريكيان في بلد أجنبي فإنهما سرعان ما يتصادقان بمجرد أنهما أمريكيان فليس ثم تحزب يمكن أن ياعد بينهما، بل إن اشتراكهما في البلد الواحد ليجذبهما بعضهما إلى بعض. أما الإنجليزيون فلا يكفي أن يكونا من دم واحد حتى يجتذب أحدهما الآخر بل يجب أن يكونا قد نشأ في بيئة واحدة وفي مرتبة واحدة حتى يقترب أحدهما من زميله. وقد لاحظ الأمريكيون<sup>(١)</sup> هذا الاتجاه غير الاجتماعي في الإنجليز كما لاحظته الفرنسيون، ولن يكونوا أقل دهشة منهم بشأنه. ومع ذلك فالأمريكيون تربطهم بالإنجليز روابط الأصل والدين واللغة، وكذلك العادات إلى حد ما ولا يختلفون عنهم إلا من حيث أحوالهم الاجتماعية، ومن ثم ساغ لنا أن نستتج أن تزمت الإنجليز إنما ينشأ عن طبيعة بلادهم أكثر مما يرجع إلى طبيعة سكانها.

---

(١) زار رالف والدو إمرسون الشاعر الأمريكي الأديب (١٨٠٣ - ١٨٨٢) إنجلترا مرتين في سنة ١٨٣٢ وفي سنة ١٨٤٧ ونشر كتابا عن الإنجليز أخلاقهم وعاداتهم سنة ١٨٥٦ بعنوان « English Traits ».

## الفصل الثالث

# الأمريكيون قليلو الحساسية في بلادهم شديدها في أوروبا

من طبع الأمريكيين الانتقام، شأنهم في ذلك شأن كل الأمم التي تنزع إلى الجذ والتروى في التفكير، فهم لا ينسون أبداً أية إهانة لحقتهم، ولكن ليس من السهل على أحد أن يبينهم ويفضهم لأن غضبهم بطيء لا يستتار بسرعة، كما أنه لا يجمد بسرعة .

ففى الجماعات الأرستقراطية حيث تقوم فئة صغيرة بإدارة كل شىء فى البلاد نجد الناس، فى اختلاطهم الظاهر بعضهم ببعض، يراعون قواعد تقليدية مقررة تكاد تكون ثابتة، ومن ثم كان كل امرىء يعتقد أنه ملء تمام الإمام بمظاهر الاحترام والمجاملة التى ينبغى له أن يديها لمتلف الناس . والمفروض أن ليس فىهم شخص واحد يجهل آداب اللياقة هذه أو ما يسمونه عندهم «بالإتيكيت» جهلاً تاماً . فالعادات التى تنشئها هذه الطبقة الراقية من طبقات المجتمع تصبح فيما بعد نموذجاً يحتذى غيرها؛ وزيادة على ذلك فكل طبقة من الطبقات الأخرى تضع لنفسها قانوناً خاصاً يلتزمه كل عضو من أعضائها . ومن ثم كانت قواعد اللياقة أو الأدب تشكل نظاماً من التشريع معقداً كل التعقيد يعسر على المرء أن يحيط به، وإن كان من الخطر عليه أن يجيد عنه؛ فلا غرو أن صار الناس يتعرضون باستمرار، على غير إرادة منهم، لأن يرحجوا غيرهم، أو أن يتحملوا منهم إهانة مريرة .

ولكن إذا مازالت الألقاب والرتب، وأصبح الناس على اختلاف ثقافتهم وتباين أنسابهم، يلتقون بعضهم مع بعض، ويختلطون فى محلات واحدة من غير تفريق بينهم، كان من المستحيل أن يتم بينهم أى اتفاق على قوانين للأدب واللياقة (الإتيكيت) . وإذا كانت هذه القوانين غير محددة ولا مؤكدة، لم يعد عصيانها جريمة حتى فى نظر العارفين بها . ومن ثم صار الناس يعلقون أهمية كبيرة على المقاصد والنيات أكثر مما يعلقونه على المظاهر والشكليات، وبذلك يصبحون فى الوقت نفسه أقل مجاملة وتادباً وأقل ميلاً إلى النزاع والشجار كذلك .

وتم عدة نواح صغيرة من المجاملات قلما يحفل بها الأمريكى لأنه يراها ليست واجبة

له ، أو يزعم أنه لا يعرف أنها كذلك ، فهو إما لا يرى فيها أى جرح له أو إهمال لشأنه ، أو يراها كذلك ويتسامح فيها ، فلا غرو أن أصبح سلوكه أقل مجاملة ، وأخلاقه أكثر بساطة ، ورجولة معاً .

إن ما يظهره الأمريكيون من التسامح المتبادل ، ومن تلك الثقة الجديرة بالرجال التي يعاملون بها بعضهم بعضاً ، تنتجان أيضاً من سبب آخر أهم وأعمق سبق أن أشرت إليه في الفصل السابق . فالفرق تأتي بين مراتب الناس ومقاماتهم في الحياة الاجتماعية المدنية طفيفة في الولايات المتحدة ، ولا وجود لها في الحياة السياسية ، ومن ثم كان الأمريكي لا يعتقد أن واجبه يقتضيه أن يخص أى مواطن من مواطنيه برعاية خاصة ، ولا هو يتطلب منهم أن يجعلوهم محلاً لمثل هذه الرعاية من ناحيتهم . ولما كان لا يرى من مصلحته أن يسمى في حماسة وراء صحبة أى فرد من بنى وطنه كان بطيئاً في تصوره أن أحداً يمكن أن يسمى وراء صحبته هو . وإذا كان لا يخاطر بباله أن يحقر من شأن أحد بسبب مركزه الاجتماعى فهو لا يتصور أن ثمة رجلاً يستطيع أن يحقره للسبب عينه ، ولا هو يفترض أن إساءة مقصودة قد وجهت إليه عمداً إلا بعد أن يتبين له بشكل واضح أن أحداً قد أهانه فعلاً . فأحوال الأمريكيين الاجتماعية تعودهم بطبيعة الحال ألا يعضبوا من توافه الأمور ؛ ومن جهة أخرى ، فإن ما يستمتعون به من حرية ديمقراطية تنفث اعتدال المزاج هذا نفسه في أخلاق الأمة جمعاء .

هذا ، وتعمل مؤسسات الولايات المتحدة السيامية باستمرار على تيسر اجتماع المواطنين من مختلف المراتب والمقامات بعضهم مع بعض . وتضطربهم إلى أن يضطلعوا معاً بإنجاز مشروعات كبيرة ؛ فالناس المشغولون بمثل هذه المشروعات لا يكون لديهم في العادة من الوقت ما يجعلهم يعنون بتفصيلات قوانين اللياقة والمجاملة ، ذلك إلى أنهم يتمكنون في أن يعيشوا معاً منسجمين بعضهم مع بعض ، فلا داعى لأن يحفلوا بأمثال هذه الأمور . وعلى هذا فهم لا يلبثون أن يعتادوا بسهولة اعتبار مراعاة شعور الناس الذين يلتقون بهم وآرائهم ، أهم من مراعاة آداب السلوك معهم ومواخذتهم على التقصير فيها . فلا عجب أن كانوا لا يسمحون أن يعضبوا من صفات الأمور وتوافهها .

كثيراً ما لاحظت في الولايات المتحدة أن ليس من السهل جعل امرئ منهم يدرك أن حضوره غير مرغوب فيه ، فالتمليح لا ينجح معه أبداً في أن يغادر المكان . فقد أخالف الأمريكى في كل كلمة يقولها ، وأشعره أن حديثه ثقيل على يسمنى . ومع ذلك فإنه لا يلبث أن يعود ويعمل بكل دأب ومتابرة على أن يقتنعنى من جديد ، وقد ألترم الصمت التام ، فيظن أنى إنما أفكر تفكيراً عميقاً فيما يقول ، وأخيراً أنصرف عنه وأمضى لشأن من شئونى فيخيل إليه أن أمراً جلالاً دفعتنى الضرورة إلى إنجازه . إن مثل هذا لا يتسنى له أبداً أن يفهم أنه قد أثقل على كل الإنتقال ، اللهم إلا إذا أخبرته بذلك صراحة ، فليس ثمة طريقة للتخلص منه إلا أن أتخذة عدواً لى لدوداً مدى الحياة .

قد يبدو مدهشاً لأول وهلة أن هذا الرجل نفسه إذا انتقل إلى أوروبا ينقلب فجأة شديد الحساسية، يصعب إرضاءه في شيء، حتى أنى كنت أجد من العسير على أن أتخاض جرح إحساسه وهو في أوروبا بقدر ما كان من العسير على أن أغضبه وهو في أمريكا، فهاتان النتيجةتان المتعارضتان ترجعان كليهما إلى سبب واحد؛ فالمؤسسات الديمقراطية تعطي الناس عادة فكرة سامية عن أنفسهم وعن بلادهم. فعندما يغادر الأمريكي بلاده، يغادرها وكله صلف وكبرياء، ولما يصل إلى أوروبا يجد أهلها ليسوا مفتونين بالولايات المتحدة ولا بشعبها العظيم كما خيل إليه من قبل، فإذا به يتضايق وينزعج إذ قد سبق أن نفثوا في روعه أن الأحوال الاجتماعية في أوروبا خلو من المساواة؛ وسرعان ما يلاحظ أن آثار الألقاب والرتب لم «تنطمس» كلها بعد في الأمم الأوروبية، وأن الثروة والنسب لا يزالان هما من الامتيازات ما لا يسعه إلا أن يدركها، وإن لم يستطع أن يعرفها على وجه التحديد؛ ومن ثم كان هذا الأمريكي يجهل كل الجهالة الدرجة التي ينبغي له أن يتبوأها في ذلك السلم المتداعي من درجات الطوائف والطبقات، وهي درجات بلغت من السمو مقاماً لا يخول له أن يكرهها أو يحتقرها، كما بلغت مع ذلك من التقارب درجة تجعله عاجزاً عن أن يميز بعضها عن بعض. فهو يخشى أن يضع نفسه في مركز أسوأ مما ينبغي له، ويخشى أكثر من ذلك أن يضعه الناس أنفسهم دون ما يجب أن يوضع، فهذا الخطر المزدوج يجعل عقله باستمرار يقظاً متحفزاً، ويربكه في كل ما يفعل ويقول.

ويعرف بالرواية الماثورة أن علامة الاحترام التقليدية في أوروبا متنوعة كل التنوع، ومختلفة باختلاف الأحوال الاجتماعية، فهذه ذكرى من ذكريات الماضي تزيده حيرة وارتباكاً، وفضلاً عن ذلك يخشى ألا ينال من مظاهر الاحترام ما هو واجب له، وإن كان لا يدري على وجه التحديد علامة هذا الاحترام، فتراه يسير وهو أشبه برجل أحيطت به الشباك والفتاخ: فاشترآكه في المجتمع أبعد من أن يكون استجماماً وراحة، بل هو عمل جدى شاق، يجعله يزن أقل عمل يصدر عنك، ويستشف ما وراء نظراتك، ويدرك كل كلمة تقوها مخافة أن تنطوي على تلميح خفى فيه إهانة مستورة موجهة إليه. وإني ليخامرني الشك في إن كان ثمة رجل من أعيان الأقاليم يستطيع أن يلتزم مراعاة آداب السلوك بتلك الدقة التي يراعيها بها هذا الأمريكي، فتراه يعمل جهده في أن يراعى أقل قاعدة من قواعد اللياقة ولا يسمح لأحد أن ينتقصه منها شيئاً واجباً له - فكله شكوك وكله إجماع بأنه يود أن يعمل «الواجب» ولكنه يخشى أن يعمل أكثر مما ينبغي. وإذا كان لا يعرف حدود الإفراط والتفريط رأى أن الأولى به أن يظهر بمظهر فيه تحفظ، وفيه حيرة، ولكنه يتسم مع ذلك بالصلف والاستعلاء.

ولكن ليس هذا كل ما في الأمر، فهنا انحراف جديد آخر من انحرافات الطبيعة البشرية الغريبة، فلا يفتأ الأمريكي يتحدث عن تلك المساواة الرائعة التي تسود الولايات المتحدة، وإنه ليجهر بها على أنها مفخرة بلاده، وإن كان يأسف له في سريره، ويطمح أن

يبدو هو نفسه استثناء من الوضع العام الذى يباهى به ويفخر . فإنك لا تكاد تصادف أمريكياً واحداً لا يدعى أنه يمت بنسب إلى أحد مؤسسى المستعمرات الأولى فى الولايات المتحدة . أما إن كان من أبناء الأسر الإنجليزية النبيلة فى أمريكا ، فأول همه أن يحيط نفسه بمظاهر الترف الذى تتيحه له ثروته ، خشية أن يظن به أحد أنه مواطن بسيط من مواطنى أمة ديمقراطية ، فيحتال بآلاف الحيل وشتى الطرق المتتوية ليقدم للناس كل يوم مثلاً جديداً من الأمثلة التى تكشف لهم عن ثرائه ؛ فتراه يختار مسكنه عادة فى أهم أحياء المدينة وأرقاها ، ويستخدم جيشاً من الخدم والحشم يحيطون به باستمرار . وحدث أنى سمعت فى باريس أمريكياً يشكو من أنه لم يصادف فى أهم صالونات المدينة سوى مجتمع خليط من أمشاج متافرة ، وأن الذوق الغالب على المجتمع فيها لا يخلو فى نظره من شوائب ، وبلغ به الأمر أن يشير إلى أن آداب السلوك خالية فى رأيه من كل رشاقة . فهو لا يستطيع أن يعود نفسه على أن يرى الذكاء متسراً فى أشكال من هذه الأشكال الساذجة التى لا ادعاء فيها ولا تنفع .

ولا ينبغي لنا أن ندهش من أمثال هذه المتناقضات - فلو لم تكن آثار الامتيازات التى كانت تتمتع بها الأرستقراطية القديمة . قد قضى عليها قضاء تاماً فى الولايات المتحدة لكان الأمريكيون أقل بساطة ، وأقل تسامحاً فى بلادهم . وكانوا فى بلادنا أقل تشدداً فى الاستمساك بتلك الآداب المستعارة وأقل غراماً بها وتكلفاً .

## الفصل الرابع

### نتائج الفصول الثلاثة السابقة

عندما يشعر الناس بعطف طبيعي على ما يعانیه كل منهم من الآم ومتاعب، وعندما يستطيعون أن يختلطوا بعضهم ببعض في سهولة ويسر من غير أن تكون فيهم حساسية مرهفة تبعد بعضهم عن بعض - عندئذ يحق لنا أن نفترض فيهم أنهم سيتعاونون كلما مست الحاجة إلى التعاون. فعندما يطلب الأمريكي من مواطنيه أن يتعاونوا معه في شيء ما، يندر أن يقابل طلبه هذا بالرفض، وكثيراً ما رأيت هذه المعاونة تتم تلقائياً وبمحسن نية، فإن وقع حادث في الطريق العام سارع الناس إلى معاونة المصاب، ولو أصيبت أسرة بكارثة فادحة بغتة، انفتحت جيوب آلاف من الغرباء وتقدموا بترعات صغيرة ولكنها كثيرة العدد، للتخفيف مما أصاب تلك الأسرة من ضيق.

وكثيراً ما يحدث حتى في الأمم المستبحرة في العمران، أن يشعر الفقير البائس بالوحشة وقلة الصديق وهو بين ظهراى الجمهور العظيم، شأن المتوحش الذى يعيش بين الجاهل والقفار، ولكن هذا الأمر أندر ما يحدث في الولايات المتحدة، فالأمريكيون، على الرغم من تكرار ما يبدو منهم من الجمود أو الخشونة في السلوك مع الناس، قلما يبدون شيئاً من جهود الحس، فإن لم يبادروا بتقديم خدماتهم في لهفة وسرعة فإنهم لا يرفضون تقديمها.

ليس في كل هذا أى تناقض مع ما ذكرته من قبل في شأن «الفردية» فكللا الأمرين أبعد من أن يتعارضا، حتى ليسهل على أن أدرك أنهما يلتقيان. فالمساواة في الأحوال الاجتماعية تجعل الناس يشعرون باستقلالهم عن غيرهم، وتكشف لهم عن ضعفهم، إنهم أحرار، ولكنهم معرضون لآلاف من الأحداث، وسرعان ما تعلمهم الأيام، وإن لم يكونوا عادة بحاجة إلى معاونة من غيرهم، أن وقتا لا يبد أن يجيء لا يستغنون فيه عن هذه المعاونة.

وإنك لترى في أوروبا دائماً أن أهل الحرفة الواحدة أو المهنة الواحدة يسارعون إلى معاونة بعضهم بعضاً، وكلهم معرض للشرور التى يتعرض لها الآخرون. وفي هذا ما يكفى لأن يتعلموا ضرورة العمل على حماية بعضهم البعض، مهما كانوا في غير ذلك

قساة القلوب ، أنانيين ، فإذا ما ألم بأحدهم خطر يستطيع الآخرون أن ينقذوه منه بأبسط شيء من التضحية ، أو يبذل مجهود مبالغت . لم يحجموا أبداً عن بذل ما يتطلب منهم من محاولات لأنهم يتعمون كل الاهتمام بمصره . فإن حدث ، وكانت جهودهم غير مجدية فسرعان ما ينسون الغرض من هذه الجهود ، ويقفلون راجعين إلى مزاولة شئونهم الخاصة ، ولكن ثم نوع من اتفاق ضمنى . لا إرادى يتم بينهم ، يجعل كل واحد منهم يشعر أنه مدين بعون مؤقت . وأنه مطالب برده في يوم من الأيام .

فإن أنت توسعت في تطبيق هذه الملاحظة التي طبقناها على طبقة من الطبقات ، وطبقتها على شعب . أدركت ما أرمى إليه مما أسلفت من القول . فثم ميثاق بهذا في الواقع بين جميع المواطنين في البلد الديمقراطي . فكلهم يشعر بأنه معرض لنفس الضعف ولنفس الأخطار ؛ فمصلحتهم وعواطفهم تجعلها قاعدة عندهم . أن يقدموا المعونة بعضهم لبعض إذا ما اقتضت الحاجة . فكلما تساوت الأحوال الاجتماعية أبدى الناس ميلاً إلى مجاملة بعضهم البعض . فليس في البلاد الديمقراطية مزايا كثيرة تمنح . وإن كان بها مساع حميدة تبذل ؛ فقلما نجد شخصاً يبدى ميلاً إلى الأنانية المفرطة . ولكنك تجد الناس جميعاً يسارعون إلى خدمة بعضهم البعض .

## الفصل الخامس

### الديمقراطية تؤثر في علاقات الخدم بالمخدومين

حدثني أمريكي تجول في أرجاء أوروبا لفترة طويلة، قال: «إنا معشر الأمريكيين يدهشنا أن نرى الإنجليز يعاملون خدمهم بجفوة واستعلاء، أما الفرنسيون، فعلى العكس من ذلك، قد يعاملونهم أحياناً بشيء من الألفة أو الأدب، مما لانستطيع أن نفهم له مغزى، حتى لقد سمعنا أنهم ليتخرجون من إصدار الأوامر إليهم، فهم لا يراعون ذلك الوضع النسبي الذي ينبغي أن يكون بين الرئيس والمرؤوس عادة إلا أقل مراعاة». فهذه ملاحظة نزيهة، فكثيراً ما خبرت أثرها بنفسى، فقد كنت دائماً أعد إنجلترا البلد الوحيد في العالم الذى أحكمت فيه - في أيامنا - الصلة التى تربط الخادم بمخدومه. على حين كنت أعد هذه الصلة ضعيفة مسترخية في فرنسا كل الاسترخاء. فلم أر في بلاد العالم، سادة يقفون من خدمهم موقفاً مستعلياً كل الاستعلاء، أو ضعيفاً كل الضعف، كما رأيت في هذين البلدين. أما الأمريكيون فيتخذون موقفاً وسطاً بين هذين الطرفين، ذلك هو ظاهر أمرهم، أما التوصل إلى معرفة أسبابه فيقتضينا المزيد من البحث.

لم يحدث أن بلغت الأحوال الاجتماعية في بلد ما مبلغاً من المساواة لا يتبقى معه غنى ولا فقير، ويترتب عليه ألا يكون ثم خادم أو مخدوم. فالديمقراطية لاتتمتع وجود هاتين الطبقتين، ولكنها تغير الكثير من طباعهما، وتعديل الصلات المتبادلة بينهما.

فالخدم في الأمم الأرستقراطية يشكلون طبقة خاصة متميزة، لاتتباين أكثر مما تتباين طبقة مخدوميهم، فسرعان ما يقوم بينهم نظام مقرر؛ فينشأ في كل من الطبقتين - طبقة الخدم وطبقة السادة المخدومين - سلم معين متدرج، به فروق عدة، أو رتب متدرجة متميزة؛ وتتوالى الأجيال الواحد تلو الآخر دون أن يحدث أى تغيير في أوضاع هاتين الطبقتين؛ فهما موضوعتان إحداهما فوق الأخرى، ومتميزتان تميزاً دائماً، ولكن ثم مبادئ متشابهة تنظم أمورهما. إن هذا النظام الأرستقراطى لا يؤثر في أفكار الخدم وآرائهم أقل مما يؤثر في آراء سادتهم وآدابهم، ومع أن النتائج مختلفة فسببها واحد، من السهل التوصل إليه.

فكل طبقة من هاتين الطبقتين أشبه بمجتمع صغير خاص قام في قلب الأمة، وسرعان ما تنشأ في هذا المجتمع أفكار معينة عن الحق والباطل والعدل والظلم، فينظر أهله إلى أعمال

الحياة البشرية المختلفة على ضوء معين واحد لا يتغير ، ففي مجتمع الخدم يؤثر الناس بعضهم في بعض تأثيراً عظيماً ، كما هي الحال في مجتمع السادة . فهم يعترفون بقواعد مقررة ثابتة ؛ وفي حالة عدم وجود قانون ، يستهدون بنوع من الرأى العام يوجههم ويسدد خطاهم ، فعاداتهم مستقرة إذن وثابتة ، وسلوكهم موجه تشرف عليه رقابة معينة من الرأى العام .

حقاً إن الذين كتب عليهم أن يطيعوا ، لا يفقهون معاني الخمد ، ولا يدرون شيئاً عن الفضيلة والأمانة والشرف ، على النحو الذي يفهمها به سادتهم . إلا أنهم مع ذلك لا يخلون من كبرياء ومن فضائل وأمانة خاصة . كما أن لهم نوعاً من الشرف الخاص بهم ، يصح أن نسميه « شرف الخدم » أو « الشرف الوضيع » إن صح هذا التعبير . فمن أجل أنهم طبقة وضيعة ، ينبغي ألا تتوهم أن كل أعضائها أدلاء وضيعو النفوس . ومن ظن ذلك فقد أخطأ خطأ جسيماً . فمهما كانت هذه الطبقة وضيعة فمن كان فيها في مركز الصدارة ؛ ولا فكرة لديه عن مغادرتها ، يتبوأ مركزاً أرستقراطياً يوحى إليه بمشاعر سامية من حيث الكبرياء والعزة واحترام النفس مما يؤهله لفضائل أسمى ، ولأداء أعمال أرفع من مستوى أهل طبقته العادية .

فليس من النادر أن نجد بين الأمم الأرستقراطية رجالاً ذوى عقول واسعة يقظة يعملون خدماً في بيوت العظماء ، ولا يشعرون بما عليهم من نير الخدمة ، فقد أذعنوا لإرادة سادتهم ، من غير أن يساورهم أى خوف من غضبهم .

ولكن من النادر أيضاً أن تتوافر هذه الحالة نفسها بين طبقات الخدم الوضيعة . فيجوز لنا أن نتصور أن يكون الرجل الذى يشغل أدنى مركز في درجات الخدم يقف حقاً في مركز وضيع كل الصعة . وقد سك الفرنسيون لفظة للدلالة على خدم الأرستقراطيين فأسموهم laquais وهى لفظة عدوها أقوى تعبير عن الهوان البشرى . إذا ما عزتهم الألفاظ الأخرى ، هذا وكان الناس في عصور الملكية الفرنسية القديمة إذا ما اكتفوا بكلمة واحدة للتعبير عن حقارة شخص وذلة نفسه ، قالوا عنه عادة إن نفسه نفس laquais . ففي هذه اللفظة ما يكفى للتعبير عن كل ما قصدوا أن يقولوه عنه .

فتفاوت الناس الدائم في أحوالهم الاجتماعية ، لا يجعل للخدم فضائل وريثاً خاصة بهم فحسب ، بل يضعهم كذلك في علاقة خاصة مع سادتهم . فالرجل الفقير في الأمم الأرستقراطية يألف منذ طفولته فكرة أنه يؤمر ، وعليه أن يطيع ، فأنى ولى وجهه صادف نظام المجتمع المتدرج ، ورأى مظاهر الطاعة بادية أمامه . ومن ثم كان السيد يجد في مثل تلك البلاد التى يسيطر التفاوت الدائم على أحوالها الاجتماعية ، - يجد من خدمه تلبية سريعة لأوامره ، وطاعة كاملة تتم عن احترام ، لأنهم لا يوقرون فيه شخص سيدهم فحسب ، بل يوقرون طبقة السادة كلها . فكان السيد يتحكم في إرادتهم بقوة طبقة الأرستقراطية كلها . فهو في البلاد الأرستقراطية يتحكم في سلوك خدمه ، بل إنه ليوجه حتى تفكيرهم إلى

حد ما ؛ فله سلطان كبير على آرائهم وعاداتهم وآدابهم وسلوكهم ، وإن لم يكن هو نفسه متفطناً دائماً إلى هذا السلطان ، وكثيراً ما يمتد نفوذه إلى أبعد من حدود سلطته .

ليس في البلاد الأرستقراطية أسرات وراثية من الخدم كما لا يوجد بها أسرات من السادة فحسب ، بل إن أسرات الخدم نفسها لتظل متصلة عدة أجيال بنفس أسرات السادة (مثلها في ذلك مثل خطين متوازيين لا يلتقيان ولا هما يترك أحدهما الآخر) فهذا يعدل العلاقة المتبادلة بين هاتين الطبقتين من الناس تعديلاً كبيراً . على أنه ينبغي ألا يفوتنا أنه لا يوجد تشابه طبيعي بين الخادم والخدم في البلاد الأرستقراطية ، ومع أن حظهم وتربيتهم وآراءهم أوجدت بينهما بونا شاسعاً في سلم البشرية ، فإن الزمن قد يجمع بينهما في النهاية ، فقد ارتبطا بسلسلة طويلة من الذكريات ؛ ومهما اختلفا فسيظلان يقتربان بعضهما من بعض ، ويتشابهان ، أما في البلاد الديمقراطية ، حيث هما متشابهان بالطبيعة تقريباً فسيظلان غريبين دائماً أحدهما عن الآخر . هذا ، وفي الشعب الأرستقراطي ، يألف السيد النظر إلى خدمه على أنهم جزء من ذات نفسه ، وإن كانوا جزءاً وضيعاً وثانويّاً من نفسه ، وكثيراً ما يحفل بما قد يصيهم من أقدار ، تدفعه إلى ذلك أنانيته نفسها .

هذا ، والخدم ، من ناحيتهم ، لا ينفرون من أن ينظروا إلى أنفسهم على هذا الضوء ذاته ، بل إنهم ليدمجون أنفسهم أحياناً في شخص السيد حتى يصبحوا في نظرهم ، كما هم في نظره ، أجزاء ثانوية منه ، ويشغل الخادم في البلاد الأرستقراطية مركزاً وضيعاً لا يستطيع أن يتخلص منه ، فهو يرى فوقه رجلاً آخر في مركز سام لا يمكن أن يزياله ، وهكذا يظل الخمول والفقر والطاعة الأبدية في جانب ، والشهرة والثروة والأمر والنهي في جانب آخر مدى الحياة كذلك . فهاتان الحالتان تظلان دائماً متمايزتين وقريبتين ، فالصلة التي تربط الواحدة بالأخرى صلة دائمة مثل دوامهما .

وأخيراً ، يؤدي هذا الوضع الحرج بالخدم إلى ألا يعنى بنفسه ، ولا يوليها أى اهتمام ، فينصل عنها ، وكأني به يهجرها هجراً ، أو إن شئت قلت عنه ، إن نفسه كلها سمة سيده ، وبذلك يتخذ لنفسه شخصية وهمية ؛ ويطيب له أن يتحل ثروة أولئك الذين يأمرونه ويتحكمون فيه ، وبذلك يخيل له أن يشاركهم فيما لهم من شهرة ، ويباهى بألقابهم ومراتبهم ، ويملأ عقله بعظمة مستعارة يعلق عليها أهمية أكبر مما يعلقه عليها أصحابها الحقيقيون أنفسهم . ففي ذلك الخلط الغريب بين حالتين مختلفتين كل الاختلاف من حالات الوجود شيء مؤثر ، من جهة ، ومدعاة للضحك في الوقت نفسه من جهة أخرى . فإذا ما انتقلت نزعات السادة وشهواتهم إلى نفوس الخدم ، اتخذت الأبعاد الطبيعية للمركز الذي تشغله (الخدم) ، فتقلص وتنحط . فما كان كبرياء في السيد يصبح غروراً صبيانياً ، ومظاهر توافه في الخادم . فخدم الرجل العظيم يحرصون كل الحرص عادة على أن يبدى الناس لهم علامم الاحترام الواجبة لسيدهم كاملة ، ويعلقون أهمية كبرى على مراعاة أقل

امتياز من امتيازاته، أكثر مما يراعيه هو نفسه . وما زال في فرنسا إلى اليوم عدد قليل من هؤلاء الخدم القدامى الذين كانوا متصلين بالأرستقراطيين، وإنك لتصادف اليوم أفراداً منهم في هذا المكان أو ذاك، لقد عاشوا وامتد بهم العمر بعد زوال جنسهم، وسرعان ما ينقرضون هم تماماً بانقراضه .

لم أشاهد في الولايات المتحدة مثلاً هؤلاء الخدم في أى مكان . فالأمريكيون لم يألفوا مثل هذا النوع من الناس، ومن الصعوبة بمكان أن تجعلهم يفهمون أن مثل هذا الرجل قد وجد في الحياة فعلاً . وليس أقل من ذلك صعوبة عليهم أن يتصوروه، وهي صعوبة أشبه بتلك التى نجدها نحن في تكوين فكرة صحيحة عن الحالة التى كان عليها العبيد في أيام الرومان الأقباء في العصر الوسيط . فقد كانوا جميعاً في الواقع (وإن كان ذلك بدرجات شتى) نتيجة سبب واحد بذاته، وهم آخذون في الاختفاء عن أنظارنا، وإلى الانغمار في ظلمة الماضى، ومعهم الحالة الاجتماعية التى يرجع إليها أصلهم ونشأتهم .

هذا . وإن المساواة في الأحوال الاجتماعية لتخلق من الخدم والمخدومين كائنات جديدة، وتضعهم في مواضع نسبية جديدة . فإن كانت الأحوال الاجتماعية متساوية تقريباً ظل الناس يدلون مراكزهم في الحياة باستمرار . فلا تزال توجد طبقة للخدم وأخرى للسادة . ولكن هاتان الطبقتان لا تتكونان دائماً من نفس الأفراد ولا من نفس الأسرات، فلا الذين يأمرهم بمطيعين أن يضموا لأنفسهم الدوام، بأكثر مما يضمه لأنفسهم أولئك الذين يطيعون . ولما كان الخدم لا يكونون طبقة قائمة بذاتها . فلم تتكون فيهم عادات ولا عصبية ولا نظم ولا آداب خاصة بهم؛ فلم يعرف عنهم عقلية خاصة ولا مشاعر خاصة . فهم لا يعرفون أن لأحوالهم الاجتماعية ردائل معينة ولا فضائل معينة . ولكنهم يشتركون مع معاصريهم في التعليم والآراء والمشاعر والوجدانات والفضائل والردائل؛ وهم شرفاء أو شريرون . شأنهم شأن أسيادهم .

ليست أحوال الخدم الاجتماعية بأقل مساواة . منها بين المخدومين . وإذ لا يوجد في طبقة الخدم مراتب معينة بارزة، ولا سلم اجتماعى ثابت . فإنهم لا يدون الضعة ولا العظمة نفسها اللتين تتميز بهما أرستقراطية الخدم . وسائر الأرستقراطيات . فلم أشاهد قط رجلاً في الولايات المتحدة يذكرني بتلك الطبقة من الخدم الأبناء الذين لا يزال يوجد لدينا ذكريات عنهم في أوروبا، ولم أصادف أعلى من نوع الـ *laquais* فقد اخفى كل أثر لهذا أو ذاك تمام الاختفاء .

ليس الخدم في البلاد الأرستقراطية متساوين فيما بينهم فحسب . بل يصح أن يقال أنهم، بشكل ما، يعدون متساوين مع أسيادهم . ولعل هذا يقتضى شيئاً من الإيضاح حتى يكون مفهوماً على وجهه الصحيح . فقد يصبح الخادم سيداً في أية لحظة . بل إنه ليطمح إلى هذا المركز فعلاً . فليس الخادم إذن إنساناً مختلفاً عن سيده؛ فمن ثم كان للسيد حق

الأمر والنهي، وما الذي يضطر الخادم أن يطيع، غير تراضيهما، وقبولهما ذلك عن حرية واختيار؟ فليس أحدهما مختلفاً عن الآخر بالطبيعة، وهما لم يصبحا كذلك إلا لوقت محدود، نتيجة تعاقد بينهما يجعل أحد الاثني خادماً والآخر مخدوماً، أما فيما عدا ذلك فهما مواطنان في دولة واحدة، وهما إنسانان .

وإنى لأتمس من القارئ أن يلاحظ بوجه خاص أن هذه ليست بالفكرة التي لدى الخادم عن حالتهم؛ فالسادة أنفسهم ينظرون إلى العمل في المنزل على هذا الضوء ذاته، والحدود الدقيقة لكل من السلطة والطاعة متعينة بشكل واضح في عقل كل من السيد والخادم .

فبعد أن يكون الشطر الأكبر من الجماعة قد بلغوا منذ زمن طويل حالة اجتماعية متشابهة، وعندما تصبح المساواة بينهم حقيقة قديمة معترفاً بها، فالرأى العام، ذلك الذي لا يتأثر بالاستثناءات، يضع بشكل ما حدوداً مقررة لقيمة الإنسان، لا يتسنى لأحد أن يظل مدة طويلة فوقها ولا دونها . فعبتاً ما يستطيع الفقر والغنى والسلطة والطاعة أن تقيم بوناً شاسعاً بين رجلين، فإن الرأى العام القائم على وضع الأشياء المألوف، ليعود ويجذبهما إلى المستوى العام، ويخلق بين الناس نوعاً من المساواة الوهمية على الرغم من التفاوت الحقيقي القائم في جميع أحوالهم الاجتماعية . فهذا الرأى (العام) القوى كل القوة يتغلغل بأخرة في قلوب الذين تسلحهم مصلحتهم الشخصية بما يجعلهم يقاومونه؛ فهو يؤثر في أفكارهم في الوقت نفسه الذي يخضع إرادتهم .

لم يعد السيد والخادم يعتقدان مخلصين أنهما يدركان أى فرق راسخ كل الرسوخ بينهما، فهما لا يأملان ولا يخافان أن يصادفا فروقاً عميقة بينهما في أى وقت من الأوقات؛ ولذلك فهما ليسا معرضين للاحتقار ولا للفضب، ولا هما يريان في بعضهما البعض تواضعاً ولا كبراً؛ فالسيد يرى في عقد الخدمة المبرم بينه وبين الخادم مصدر سلطته الوحيد، على حين يعده الخادم السبب الوحيد لالتزامه طاعة السيد؛ فهما لا يتشاجران بشأن مركزيهما، ولكن كل منهما يعرف مركزه ويلتزمه فلا يتجاوزه .

وفي الجيش الفرنسى نرى أن الجندى العادى يؤخذ من نفس الطبقة تقريباً التي يؤخذ منها الضابط، وقد يصل الجندى إلى أن يقوم بنفس الأعمال التي يقوم بها الضابط أيضاً؛ أما خارج الجيش فيعتبر نفسه مساوياً تمام المساواة لرؤسائه العسكريين، وهو في الواقع كذلك، ولكنه، عندما يكون في الجيش، لا يتردد في أن يطيع، وليست طاعته أقل سرعة ودقة، واستعداداً لأنها اختيارية ومحدودة . فهذا المثل يعطينا فكرة عما يحدث بين السادة والخادم في البلاد الديمقراطية .

ومن السخف أن نظن أن هذه العواطف الراسخة التي قد تتوهج أحياناً في نفوس خدم الأرستقراطيين، يمكن أن تنشأ بين هذين الرجلين، أو أنها قد تؤدي إلى ظهور أمثلة

قوية من أمثلة التضحية بالنفس . وذلك لأن الخدم والسادة يعيشون منفصلين في البلاد الأرستقراطية . وكثيرا ما يكون اتصافهم الوحيد عن طريق شخص ثالث . ومع ذلك فكل منهما يقف ثابتاً إلى جانب الآخر يعاونه ويسانده . أما في البلاد الديمقراطية ، فالسيد والخدام قريبان بعضهما من بعض . فلا يمتص يوم من غير أن يتصل أحدهما بالآخر . ولكن عقليهما لا يتفاعلان مع ذلك . فقد نكون هُما مهين وحرف مشتركة . ولكن يندر أن تكون بينهما أى مصالح مشتركة مع ذلك .

ففى أمثال هذه الشعوب يعد الخادم نفسه أشبه بضيف نازل في بيت سياده . فهو لا يعرف شيئا عن أجدادهم ولا هو يرى أحدا من سلالته ولا ينتظر أن ينال شيئا دائما منهم . فما الذى جعله يدع حياته في حياتهم إذن ؟ ومن أين يجب أن يبدأ نزوله عن نفسه هذا النزول الغريب ؟ لقد تغير موقف كل من الرجلين إزاء الآخر . فيجب أن تتغير كذلك علاقاتهما المتبادلة .

وددت لو أنى أستطيع أن أعتمد في كل ما سبق على مثال الأمريكيين في مجتمعتهم . ولكنى لا أستطيع ذلك دون أن أفرق بكل حرص بين الأشخاص والامكنة . ففي جنوب الولايات المتحدة لا يزال الرق قائما : فكل ما قلته لا يصدق إذن على الجنوب . أما في الشمال فأصل الغالبية العظمى من الخدم . إما من المعتقين والمعتقات . أو من أبنائهم وبناتهم : وهؤلاء يشغلون مراكز غير ثابتة في تقدير الجمهور . فعلى حين يضعهم القانون في مستوى أسيادهم . فعادات البلاد تحرص على استبقائهم في مستوى دون مستوى مخدوميهم بكثير . ولا هم يعرفون مركزهم الواجب لهم على وجه التحديد . فلا غرو أن رأيتهم دائما متوقحين وأذلاء معا .

أما في الولايات الشمالية هذه نفسها . ولا سيما ولاية نيويورك . فتم عدد كبير من البيض ارتضوا أن يخضعوا مؤقتاً لإرادة مواطنين أمثالهم نظير أجر معين يتقاضونه . وبلغنى أن هؤلاء الخدم يؤدون ما يطلب منهم من واجبات في تعقل ومثابرة . ومن غير أن يعدوا أنفسهم دون الشخص الذى يأمرهم وينهاهم : فهم يدعون له من غير أن يشعروا بأية غضاضة من جراء ذلك الإذعان . ويحيل إلى أنهم يدون في قيامهم بالخدمة عادات الرجولة التى يخلقها فيهم الاستقلال والمساواة . فبعد أن اختاروا لأنفسهم حياة شاقا ، لا يحاولون الإفلات منها بطرق غير مباشرة ، إذ هم يحترمون أنفسهم الاحترام الكافى الذى يأتى عليهم أن يرفضوا إطاعة سادتهم الطاعة التى تعهدوا لهم بها . أما المخدومون فلا يتطلبون من خدمهم سوى الأمانة والإخلاص . في الوفاء بالعقد الذى أبرموه معهم . فلا يتطلبون منهم أن يدعوا لهم مظاهر الاحترام ، ولا هم يطالبونهم بأن يجوههم ويخلصوا لهم ، بل حسبهم منهم أن يكونوا خداماً أمناء على تأدية عملهم بدقة ومثابرة .

فليس من الصواب في شىء إذن أن نقول أن العلاقات التى بين السادة وخدمهم

في البلاد الديمقراطية قد اضطربت وساءت . فكل ما في الأمر أنها نظمت على أساس آخر ، لقد اختلف الدور حقاً ، ولكن مازالت ثم قواعد مرعية .

لست أهدف هنا إلى البحث عما إن كان الوضع الجديد الذى وصفته توا ، دون الوضع السابق عليه أقل منه أو أنه شيء آخر مختلف ، بل حسبى أنه متعين منظم وثابت . فأهم شيء يجب أن نجده قائماً بين الناس ليس وجود نظام معين ، ولكن مجرد وجود النظام .

وما عسأى أن أقول عن تلك الأوقات المضطربة المؤسسة التى تنشأ فيها المساواة وسط ضجيج ثورة جارفة ، عندما تظل الديمقراطية - بعد أن تكون قد قامت في أحوال المجتمع - تجاهد بكل مشقة ضد التحزب والتعصب ، وعادات البلاد الأخلاقية . لقد سبق أن أعلن القانون ، وكذلك أعلن الرأى العام إلى حد ما ، أنه لا توجد دونية طبيعية أو دائمة بين السيد والتابع . ولكن هذا الاعتقاد الجديد لم يصل بعد إلى صميم معتقدات السيد أوبالأحرى أن قلبه يرفضه ويأباه فهو لا يزال يعتقد في سريرة نفسه أنه من جنس خاص أسمى من الجنس الذى ينتمى إليه تابعه ، ومع أنه لا يستطيع أن يصرح بذلك ، إلا أنه يرتعد لفكرة السماح لنفسه أن ينحرف إلى المستوى عينه . فسلطته على خدمه تصبح سلطة قلقة مترددة هياة وقاسية في الوقت نفسه ، إذ لم يعد يشعر نحوهم بالحنان والحماية ، اللذين كان يشعر بهما السيد نحو من يعنى بأمرهم ؛ وهما عاطفتان تنشآن دائماً من طول العهد بممارسة سلطة لانزاع فيها . وقد تستولى عليه الدهشة أن يجد خادمه قد تغير لأنه هو نفسه تغير . إنه يتطلب من أتباعه أن تكون لهم عادات منظمة دائمة في حالة قيامهم بالعمل في المنازل ، مع أنها حالة مؤقتة ليس إلا ؛ كما يتطلب منهم أن يبدوا راضين ومعتزين بالحالة الوضيعة التى هم عليها ، وهى حالة سوف يتخلصون منها في يوم من الأيام إن عاجلاً أو آجلاً ؛ ويجب أن يضحوا بأنفسهم في سبيل رجل لم يعد يستطيع أن يحميمهم ولا أن يهلكهم . وعلى الجملة ، يجب أن يعقدوا عقداً وثيقاً لافكك منه مع شخص مثلهم لا يدوم أكثر مما يدومون .

وكثيراً ما يحدث في الأمم الأرسقراطية أن لاتحط الخدمة في المنازل من أخلاق المشتغلين بها ، وذلك ، لأنهم لا يعرفون سواها ، ولا هم يتصورون نوعاً آخر من العمل غيرها . فالتفاوت الواسع المدى الذى يتجلى ظاهراً بينهم وبين مخدومهم يدو لهم نتيجة ضرورية لامفر منها لقانون خفى من سنن العناية الإلهية .

فالخدمة في البيوت ، في البلاد الديمقراطية ، لاتحط من شأن الذين يشتغلون بها لأنهم اختاروا هذا العمل اختياراً حراً ، ولوقت محدود فحسب . بل إن الرأى العام لا يصم هذا النوع من العمل بوصمة عار ، ولا هى (الخدمة في المنازل) تتخلق تفاوتاً دائماً بين الخادم والمخدوم .

وفي أثناء الانتقال من حالة اجتماعية إلى أخرى، يوجد دائماً تقريباً وقت تتأرجح فيه عقول الناس بين فكرة الأرستقراطية عن الخضوع والإذعان، وفكرة الديمقراطية عن الطاعة. وعندئذ تفقد الطاعة أهميتها الأخلاقية في نظر من عليه أن يطيع، فهو لم يعد يعتبرها نوعاً من ذلك الالتزام المقدس. ولا هو ينظر إليها من الوجهة الإنسانية المحضة؛ فلم يعد لها في نظره صبغة القداسة، ولا صبغة العدالة؛ فهو يخضع لها كما يخضع لشرط مربح نافع، وإن كان شرطاً يحط من قيمة الإنسان.

وفي تلك الفترة أخذت تساور عقول الخدم صورة للمساواة مضطربة ناقصة، ولم يدركوا من البداية إن كانت تلك المساواة التي لهم حق الاستمتاع بها توجد كذلك حتى في نظام الخدمة في المنازل، أو توجد خارجها فحسب، وجعلوا يثورون في سرائرهم ضد تبعية خضوعها لها من تلقاء أنفسهم وصاروا يفيدون منها فعلاً فوائد حقة. لقد رضوا أن يعملوا خدماً ولكنهم صاروا ينجحون من أن يطيعوا. فقد استمروا بفوائد الخدمة إلا أنهم لم يستيفوا ذلك السيد الذي يأمرهم: أو بعبارة أخرى أنهم ليسوا واثقين من أن الواجب كان يقتضيهم أن يكونوا هم السادة الخدميين، فهم يميلون إلى اعتبار أن ذلك الذي يأمر فيهم وينهى قد اغتصب حقوقهم وظلمهم.

ومن ثم كان يبدو على كل مسكن من مساكن المواطنين شيء من تلك الكآبة التي تتجلى في المجتمع السياسي. ففي البيت حرب داخلية باردة متصلة، بين سلطات متناظرة ومتشككة بعضها في بعض باستمرار. فالخادم يبدو حاد الطبع، ضعيفاً متساهلاً - ويبدو الخادم مثله حاد الطبع ولكنه متمرد زيادة على ذلك، فيحاول الخدم أن يتهرب دائماً، بما يضعه من قيود ظالمة، من التزاماته بحماية الخادم ودفع أجره؛ على حين يتفادى الخادم واجبه الذي يقضى عليه بإطاعة مخدمه. وهكذا تسترخي أزمة إدارة المنزل وتتبدل أمامهما فيختطفها هذا مرة ومرة ذاك. فالخطوط التي تفصل بين السلطة والظلم، وبين الحرية والاستهتار، وبين الحق والقوة تختلط أمامهما كل الاختلاط، وتبدو مضطربة كل الاضطراب حتى لم يعد أحد يعرف منهما ما عساه أن يكون، ولا ما يجب عليه أن يكون. فهذه حال ليست من الديمقراطية في شيء؛ إنها ثورة.

## تتجه المؤسسات والآداب العامة الديمقراطية إلى رفع الأجور وتقصير مدة الإيجارات الطويلة المدى

ما سبق أن قيل عن الخدم ومخدوميهم يصدق، إلى حد ما، على أصحاب الأراضي ومستأجري أطيانهم من المزارعين، ومع ذلك فهذا موضوع جدير بأن يدرس على حدة .  
والحق أننا لاعدو الصواب إن قلنا أنه لا يوجد في أمريكا مستأجرون زراعيون . فكل رجل يملك قطعة الأرض التي يفلحها؛ ويجب أن نسلم بأن القوانين الديمقراطية تتجه بقوة إلى زيادة عدد ملاك الأراضي الزراعية، وتقليل عدد من يستأجرونها . ومع ذلك فهذا الذي يحدث في الولايات المتحدة لا يعزى إلى مؤسسات هذه البلاد بقدر ما يعزى إلى طبيعة البلاد نفسها . فرخص الأراضي في أمريكا يسر لكل إنسان أن يصبح مالكا لقطعة من الأرض . إن عائدها صغير وغلتها قليلة<sup>(١)</sup> مما يجعل تقسيمها بين المالك والزارع من الصعوبة بمكان . فأمريكا فريدة إذن في هذه الناحية، كما هي في كثير غيرها من النواحي، فمن الخطأ اتخاذها مثلاً يقاس عليه .

وفي رأيي، أنه سيظل في البلاد الديمقراطية، ملاك ومستأجرون دائماً، كما هي الحال، في البلاد الأرستقراطية، ولكن الصلة بينهما ستكون من نوع آخر . فإيجار المزرعة في البلاد الأرستقراطية يدفع إلى السيد المالك، لانقداً فحسب، بل وعلى صورة احترام وتوقير وأداء واجبات معينة . أما في البلاد الديمقراطية فالإيجارات تدفع نقداً كلها . فعندما تنقسم الصياح والشركات، وتنتقل من يد إلى يد، وعندما تحل الروابط الدائمة التي تربط الأسرات بأراضيها، يندر أن يلتقى مالك الأرض بمستأجريها منه إلا عرضاً . وإن التقيا فلهره وجيزة يتفقان فيها على شروط الإيجار، ثم لا يعود أحدهما يرى الآخر بعد ذلك، فهما غريان جمعت بينهما مصلحة مشتركة، كل الغرض منها كسب المال ليس إلا .

(١) لا يخفى أن هذا لم يعد صحيحاً الآن، بعد تقدم الزراعة واستخدام الآلات الميكانيكية في البذر والحصاد، وفي نقل المحصولات بسرعة من الحقول إلى الأهراء والشون وغيرها .

وكلما تقسمت الأموال وتوزعت الثروة على مختلف أرجاء البلاد، امتلأت الدولة بأناس ثروتهم التليدة في تدهور؛ وبآخرين ثروتهم كلها طارئة، واحتياجاتهم تتزايد بسرعة أكبر مما تتحملة مواردهم، فأدنى مكسب مالى يعود على هؤلاء الأشخاص، له قيمته وشأنه، ولا يميل أى واحد منهم أن ينزل عن أى مطلب من مطالبه، ولا إلى أن يضع عليه أى جزء من دخله .

ف عندما تختلط كل المراتب بعضها ببعض . وتصير الثروات الضخام والثروات القلائل كل القلة نادرة، ازداد مستوى مالك الأرض الاجتماعى من مستوى الزارع كل يوم اقتراباً، فلا يخفى أن ليس للمالك على الزارع أى تفوق مطلق ولا نزاع فيه، فعقد الإيجار بين رجلين متساويين وليسا ميسورى الحال لا يمكن أن يكون غير مسألة مالية .

فالشخص الذى تمتد أملاكه حتى تشمل إقليمياً بأكمله، ويملك أكثر من مائة ضيعة، يدرك تمام الإدراك، ما لاجتذاب محبة بضعة آلاف من الرجال الذين يعملون عنده من أهمية . وهذا ما لا يمكن أن يتحقق له من غير مجهود؛ فإدراكه يقتضيه القيام بتوضيحات كبيرة . أما من لا يملك سوى مائة فدان فلا يكاد يحس بمثل هذه الاعتبارات، ولا هو يحفل كثيراً بأن يكون محترماً من مستأجرى أرضه .

ولا يخفى أن الأرستقراطية لا تموت في عشية وضحاها كما يموت الفرد، ففروع الأرستقراطية تضعف تدريجياً ويبطء في نفوس الناس قبل أن تهاجمها قوانينهم . وقبل أن تعلن عليها الحرب سافرة بزمن طويل . تكون الرابطة التى ظلت إلى الآن تربط الطبقات العليا بالطبقات الدنيا قد تراخت شيئاً فشيئاً . وأخذت الطبقات الأولى تبدى الاحتقار وعدم المبالاة، وتبدى الثانية الغيرة والكراهية . وقل اتصال الغنى بالفقر . وضعف ما كان فيه من رحمة وحنان، وارتفعت الإيجارات . وليس كل هذا نتيجة ثورة ديمقراطية، ولكنه نذير بها لا يخطئ، فالأرستقراطية التى فقدت محبة الشعب إلى الأبد أشبه ما تكون بالشجرة التى جفت جذورها وماتت، فسهل على الريح أن تقتلعها كلما طالت فروعها وانتشرت صعدا .

لقد ارتفعت إيجارات الضياع في الخمسين سنة ارتفاعاً مذهلاً في فرنسا وفي معظم البلاد الأوربية . هذا، ولا أرى أن التقدم العظيم الذى تم في الزراعة والصناعة في المدة عينها يكفي لتفسير هذه الظاهرة . فلا بد لنا من إرجاعها إلى سبب آخر أوجه منه وأخفى . وفي رأى أنه يجب أن نبحث عن هذا السبب في المؤسسات الديمقراطية التى أقامت دول أوربية كثيرة، وفي الميول الديمقراطية التى تحرك سائر الدول وتستثيرها .

كثيراً ما سمعت من كبار الملاك الإنجليز أنهم معتبطون الآن كل الاغتباط بما حصلوا عليه من دخول تربو كثيراً على ما كان يحصل عليه أبائهم من قبل . ولعل لهم سبباً وجيباً دعاهم إلى هذا الاغتباط، ولكن ليس من شك في أنهم لا يعرفون ما الذى يغتبطون

به . فهم يظنون أنهم حققوا مكاسب صافية ، على حين أن مكسبهم لم يكن في الواقع سوى مقايضة ، فقد استبدلوا نقوداً بما لهم من نفوذ وسلطان ، ولن يمضى غير قليل من الزمن حتى يدركوا أن ما ربجوه نقوداً قد خسروه نفوذاً وسلطاناً .

و ثم أمانة أخرى تسهل علينا أن ندرك أن ثورة ديمقراطية عظمى على الأبواب أو أنها قائمة بيننا فعلاً . لقد كانت الأراضي تؤجر في العصور الوسطى لمدى الحياة أو لآجال بعيدة المدى . ويتضح لنا من الاقتصاد المنزلى في تلك العصور أن الإيجارات التي كانت تعقد لمدة تسعة وتسعين عاماً أكثر عدداً من تلك التي كانت تعقد لمدة اثنتى عشرة سنة في وقتنا الحاضر ، فقد كان الناس يعتقدون في ذلك العصر أن الأسرات خالدة لا تزول ، وأن أحوال الناس قد استقرت استقراراً نهائياً ، وبدا لهم المجتمع كله ثابتاً لدرجة أنهم لم يكونوا يتصورون أن شيئاً يمكن أن يززع أركانه أو يقوضه . أما في عصور الديمقراطية - عصور المساواة - فإن عقل الإنسان ليتجه اتجاهاً آخر مختلفاً ، وما أسهل ما يتصور أن لاشيء يدوم . ففكرة التغير تغشاه ، وتستولى عليه . وتحت هذا التأثير ينفر المالك والمستأجر كلاهما كل النفور من عقد التزامات طويلة المدى بينهما ؛ أو يخشيان أن العقد الذى يفيدان منه اليوم قد يقيدهما في الغد . فهما يشعران شعوراً غامضاً بأن تغييراً فجائياً قد يحدث في أحوالهما . فلم يعد الملاك والمستأجرون يتقون بأنفسهم ، ويخافون - وقد تغيرت الأذواق والميول - من أن يقاسوا الكثير في التخلص من شيء ظلوا يعدونه زمناً طويلاً مطعمهم ومعقد آمالهم ، وأنهم لعلى حق فيما يخشونه ، فأكثر الأشياء قلقاً وعدم استقرار في العصور الديمقراطية وسط الاضطراب العام الذى شمل الأشياء جميعاً ، إنما هو قلب الإنسان .

## الفصل السابع

### تأثير الديمقراطية في الأجور

معظم الملاحظات التي أشرت إليها من قبل عند الكلام على الخدم والمخدومين، يمكن تطبيقها على العمال وأصحاب الأعمال. فكلما قلت رعاية درجات السلم الاجتماعي، وكلما هبط العظماء وصعد الوضعا، ولم يعد الفقر ولا الثراء أمراً وراثياً - قصرت المسافة بين الرأى والواقع، وهي التي ظلت إلى الآن تفصل بين العامل وصاحب العمل. فللعامل فكرة سامية عن حقوقه، ومستقبله، وعن ذات نفسه، وكثيراً ما يمتليء بطامح جديدة ورغبات جديدة، واحتياجات جديدة كذلك؛ فراه ينظر دائماً إلى ما يناله مخدومه من أرباح نظرات كلها لهف وكلها أمانى، وكى يشارك في هذه الأرباح، بذل ما يستطيع أن يبذله من الجهد في تنظيم عمله التنظيم الذى يرفع من قيمة هذا العمل؛ وكثيراً ما يؤدي به هذا إلى النجاح فيما حاول.

ففى البلاد الديمقراطية وغيرها، تدار أغلب فروع العمل بتكاليف قليلة على أيدي رجال لا يرتفعون كثيراً من حيث الثروة أو التعليم عن مستوى العمال الذين يستخدمونهم، ذلك إلى أن عدد هؤلاء الصناعيين المغامرين عظيم، ومصالحهم شتى متباينة؛ فلا غرو أن لم يتفاهموا بعضهم مع بعض في سهولة ويسر، وأن لا يوقفوا إلى ضم جهودهم بعضها إلى بعض. ومن جهة أخرى فللعامل دائماً مصادر أكيدة مضمونة تخولهم أن يرفضوا العمل الذى لم يوقفوا إلى الحصول على ما يرونه الأجر العادل لعمالهم. ففى معركة الأجور الدائرة وحدها باستمرار بين هاتين الطبقتين تتوزع قواهم وتتفرق، ويظل النجاح بينهما سجلاً.

بل ومن المحتمل أن تسود مصلحة الطبقة العاملة في النهاية، لأن الأجور العالية التي حصلوا عليها تجعلهم كل يوم أقل اعتماداً على أصحاب العمل. وكلما ازدادوا استقلالاً زادت أمامهم الفرص للحصول على أجور أعلى.

ولنضرب لذلك مثلاً بفرع من فروع الصناعات الإنتاجية الذى لا يزال الإقبال عليه عظيماً، حتى في وقتنا الحاضر في فرنسا وفي سائر بلاد العالم، وأقصد به الزراعة. فأكثر الفرنسيين الذين يعملون فيها بالأجر، يملكون قطعاً صغيرة من الأراضي تيسر لهم الكفاف

من العيش من غير حاجة إلى العمل عند سواهم . فإن هم اضطروا إلى العمل أجراء عند جار لهم مزارع أو عند مالك من كبار الملاك ، ورفض أن يمنحهم الأجر الذى يروونه مناسباً عادوا إلى أراضيهم الصغيرة يعملون فيها حتى تتاح لهم فرصة أخرى .

وفى رأى أنه من الميسور أن نؤكد ، على وجه الإجمال ، أن الارتفاع التدريجى البطيء فى الأجور ، قانون من القوانين العامة فى البلاد الديمقراطية . فكلما ازداد الناس مساواة فى الأحوال الاجتماعية ارتفعت الأجور ، وعندما ترتفع الأجور تزداد الأحوال الاجتماعية مساواة .

ولكن فى عصرنا استثناء كئيب كبير من هذا القانون ، فقد أوضحت فى فصل سابق أن الأرسقراطيين إذا ما أخرجوا من العمل فى دائرة السياسة التجأوا إلى العمل فى فروع معينة من الأعمال الإنتاجية ، وأرسوا من جديد قواعد سلطتهم فيها ، ولكن على نحو آخر ؛ ولهذا أثره الكبير فى مستوى الأجور .

ولما كان من الضرورى أن يكون الإنسان غنياً قبل أن يغامر ويقدم على الاضطلاع بمشروعات كبرى مثل تلك التى أشرت إليها أدى ذلك إلى جعل عدد من يضطلعون بهذه المشروعات ضئيلاً نزرأً ، ونظراً لقله عددهم هذا ، تيسر لهم بكل سهولة أن يتحدوا بعضهم مع بعض ويحددوا الأجور على النحو الذى يتفق مع هواهم .

أما عمالهم ، فعلى العكس ، كثيرو العدد كثرة بالغة ، ويزداد عددهم باستمرار ، فمن حين إلى حين ، يحدث ازدهار عظيم فى الأعمال فترتفع الأجور ارتفاعاً عظيماً يتجاوز كل ما كان منتظراً ، ويجتذب الناس من البلاد المجاورة إلى العمل فى المصانع . ولكن إذا ما اتخذ الناس هذا الاتجاه فى الحياة لم يستطيعوا أن يتخلوا عنه ثانية ، كما رأينا من قبل ، لأنهم سرعان ما يعتادون عادات اجتماعية معينة وأخرى عقلية ، تجعلهم غير صالحين للعمل فى أى نوع آخر من الأعمال . ولا يخفى أن حظ هؤلاء الناس من التعليم ضئيل عادة ، وكذلك اجتهادهم فى عملهم ، فضلاً عن أن مواردهم المالية ضعيفة ، فلا غرو أن كانوا دائماً تحت رحمة صاحب العمل تقريباً .

وعندما تؤدى المنافسة ، أو أى عامل عرضى آخر ، إلى تقليل أرباح صاحب العمل ، فإنه لا يتحرج من أن ينقص أجور عماله عندما يشاء ، ويعوض نفسه بذلك من أجورهم مما عسى أن يكون قد خسره من جراء ظروف العمل . أما إن أضرب العمال ، فصاحب العمل ، وهو غنى ميسور يستطيع أن ينتظر دون أن يحطم عمله ، إلى أن تدفع الضرورة العمال إلى العودة إلى عملهم ، فهم مضطرون أن يعملوا يوماً بعد يوم وإلا هلكوا ، فهم لا يملكون إلا أيديهم ، وطالما أفقرهم الظلم الواقع عليهم ؛ وكلما ازدادوا فقراً زادهم الناس ظملاً . فهم لا يستطيعون أن يتخلصوا أبداً من هذه الدائرة الخبيثة المهلكة ، من الأسباب والنتائج .

فلا عجب إذن إن كانت الأجور ، بعد أن ارتفعت فجأة في بعض الأحيان ، تعود وتببط هبوطاً دائماً في هذا الفرع من العمل الإنتاجي ، على حين أن سعر العمل في المهن الأخرى ، الذي لا يرتفع عادة إلا ببطء ، يزداد هو الآخر مع ذلك ، زيادة مستمرة .

فحالة التبعية والبؤس هذه التي يعيش فيها عدد من العمال في عصرنا ، تعد استثناء من القاعدة العامة ، وعلى العكس من سائر أفراد المجتمع . ولكنها ، لهذا السبب عينه ، حالة خطيرة كل الخطر ، وأجدر الحالات بعناية المشرع واهتمامه . فعندما يكون المجتمع كله في حركة دائبة ونشاط متصل ، يتعذر استبقاء طبقة منه جامدة كل الجمود لاتتحرك . وكذلك عندما يكون العدد الأكبر من الناس يعملون باستمرار على شق طرق جديدة تؤدي بهم إلى الحظ السعيد والثراء العريض ، يصعب أن نجعل طائفة منهم تتحمل عبء احتياجاتها ورغباتها وحدها في هدوء وسلام .

## الفصل الثامن

### تأثير الديمقراطية في شؤون الأسرة

درسنا توا التغييرات التي تترتب على قيام المساواة في العلاقات التي بين مختلف أعضاء الجماعة في الأمم الديمقراطية بعامة، وفي أمريكا بخاصة. وسنخطو هنا خطوة أخرى، وننفذ إلى الأسرة، ندرس العلاقات التي بين أعضائها، وهي كما لا يخفى علاقات أحكم وأوثق، ولست أهداف إلى البحث عن حقائق جدد، ولكن إلى بيان ما للحقائق المعروفة من قبل، من صلة بموضوعاتنا.

لاحظ الناس جميعاً في عصرنا الحاضر أن أعضاء الأسرة الواحدة يقفون الآن موقفاً جديداً كل الجدة حيال بعضهم بعضاً، وأن المسافة التي كانت تفصل الأب عن أبنائه وتميزه عنهم، قصرت؛ فإن لم تكن السلطة الأبوية قد انهارت فعلاً، فإنها قد تراخت على الأقل وضعفت عما كانت عليه من قبل.

وتم شيء شبيه بهذا، ولكنه أغرب منه وأدعى للدهشة، حدث في الولايات المتحدة. فالأسرة بمعناها الروماني الأرستقراطي، لم يعد لها وجود يذكر في أمريكا، فكل ما بقي لها من أثر نخبه الآن في السنوات الأولى من الطفولة حينما يمارس الأب، بغير منازع، سلطته المنزلية المطلقة التي يستلزمها ضعف أطفاله، وتبررها مصلحتهم، ويررها تفوقه هو، ذلك التفوق الذي لا مرء فيه. ولكن منذ الساعات التي يقترب فيها الشاب الأمريكي من الرجولة نجد روابط الطاعة البنوية تتراخي، وتظل تزداد تراخياً يوماً تلو يوم، فإن صار الابن مستقلاً بأفكاره، لم يلبث أن يكون كذلك في سلوكه أيضاً. فلا يكاد يوجد في أمريكا حقاً، مرحلة مراهقة بالمعنى الصحيح، فعندما يبلغ الصبي نهاية مرحلة الحداثة تبدأ مرحلة الرجولة، ويأخذ في وضع الخطط لشق طريقه في الحياة.

ومن الخطأ أن نظن أن هذا لا يتم إلا بعد معركة عائلية، تقوم بين الفتى ووالديه، ويحصل فيها الولد، بشيء من العنف، على الحرية التي يأبأها عليه أبوه. فنفس العادات ونفس المبادئ التي تحفز أحدهما إلى إثبات استقلاله، تدفع الآخر إلى اعتبار هذا الاستقلال حقاً لا نزاع فيه. فلا يبدى الولد شيئاً من تلك الشهوات الشاذة البغيضة التي تظل تستثير الناس وتمكر صفوهم زمناً طويلاً بعد أن يكونوا قد أقصوا من سلطة كانت

مقررة لهم؛ ولا يشعر الثاني بتلك الحسرة الغاضبة المريرة التي تظل قائمة في النفس بعد سلطة دالت. هذا، ويعرف الوالد سلفاً، متى تتوقف سلطته؛ فعندما يأتي الوقت الموعد ينزل عنها دون أى نزاع بشأنها، على حين يتطلع الابن إلى ذلك الوقت المحدد الذي يستقل فيه، ويصبح سيد نفسه. فيتسلم حريته في غير عجلة ومن غير أى جهد، بوصفها حقاً له لا يحاول أحد أن يسلبه إياه.

وقد يكون من المفيد أن نبين أن هذه التغييرات التي تحدث فيما بين أفراد الأسرة الواحدة من علاقات بعضهم ببعض، تتصل اتصالاً وثيقاً بالثورة الاجتماعية السياسية التي على وشك أن تكتمل تحت سمعنا وبصرنا.

وتم مبادئ معينة، اجتماعية، عظيمة يعمل الشعب إما على إدخالها في كل مكان، وإما لا يسمح بها في أى مكان، فالحكومة في البلاد ذات النظام الأرسقراطي وما فيه من سلم متدرج لمراكز الناس ومراتبهم، لا تلجأ أبداً إلى جملة المحكومين مباشرة، بل حسبها أن توجه الزعماء ليس إلا، فالناس هنا مقيدون كلهم بعضهم ببعض، أما سائر المحكومين فيتبعون هؤلاء الزعماء بطبيعة الحال. ويصدق هذا على الأسرة كما يصدق على كل الجماعات الأرسقراطية التي لها زعيم يتولى شئونها، ولا شك أن المجتمع في البلاد الأرسقراطية لا يعرف أحداً في الأسرة غير الأب. ولا يعرف الأبناء إلا عن طريقه. وعلى يديه، فالمجتمع يحكم الأب، والأب يحكم أبناءه. وهكذا لا يكون للأب حق طبيعي في حكم أولاده. ولكن المجتمع يمنحه حقاً سياسياً لحكمهم. فهو السبب في وجود الأسرة، وهو عائلها، وهو كذلك حاكمها المعترف به.

أما في البلاد الديمقراطية حيث يمتد ساعد الحكومة إلى كل فرد على حدة، ليخضعه لقوانين الدولة العامة، فلا حاجة إلى مثل هذا الوسيط. فالوالد موجود. ولكنه لا يعدو أن يكون، في نظر القانون، مجرد مواطن. عضو من أعضاء الجماعة، إلا أنه أكبر من أبنائه سناً وأكبر ثروة.

وعندما تتفاوت أغلب أحوال الحياة تفاوتاً كبيراً ودائماً، تزداد فكرة الرئيس رسوخاً في أحيولة الناس، فإن لم يصف عليها القانون ميزات خاصة أضافها عليها الرأي العام والعرف. وعلى العكس من ذلك إن كان التباين في أحوال الناس الاجتماعية قليلاً، ولا هم يظلون طويلاً في أحوال متفاوتة من حيث المعيشة، فإن فكرة الرئيس العامة تضعف فيما بينهم وتزداد غموضاً. وعبثاً ما يحاول التشريع أن يضع الشخص الذي عليه أن يطيع ويذعن، دون من له الحق في أن يأمر وينهى، بمراحل بعيدة. فعادات العصر الأخلاقية تقرب الاثنين الواحد من الآخر، وتظل تجذبهما نحو مستوى واحد باستمرار.

فعل الرغم من أن التشريع في البلاد الأرسقراطية لا يخول ميزات خاصة لرؤساء الأسر، فذلك لا يقلل من اقتناعى بأن قوتهم أبعد مدى، ونصيبهم من الاحترام أوفى حظاً

في البلاد الديمقراطية؛ فإنني أعلم أن الرؤساء في البلاد الأرستقراطية يدون دائماً أسمى من أمثالهم الذين في البلاد الديمقراطية، والمرءوسين فيها أقل، مهما كانت القوانين .

فعندما يعيش الناس على ذكريات الماضي، أكثر مما يعيشون فيما هو واقع فعلاً، وعندما يشغلون أنفسهم بالاهتمام بما كان يفكر فيه أجدادهم أكثر مما يعنون بتفكيرهم هم، يصبح الوالد هو الحلقة الضرورية الطبيعية بين الماضي والحاضر، والصلة التي تربط طرفي هاتين السلسلتين . فليس الوالد في البلاد الأرستقراطية إذن برئيس الأسرة فحسب، بل مصدر تقاليدها، والمثل لعاداتها، والحكم الفصل في شئون آدابها . فأفراد الأسرة يستمعون إليه في احترام، ويتأدبون عند توجيه الخطاب إليه، ويجونه محبة مقرونة بالرهبة والإجلال .

وعندما يصبح المجتمع ديمقراطياً، ويختار الناس لهم مبدأ عاماً يعترفون فيه بأنه من الخير ومن المشروع أن يحكم الإنسان في كل الأمور بنفسه، مستهدياً بالمعتقدات السابقة، لا باعتبارها قواعد مقدسة، بل بوصفها مجرد وسائل للمعرفة، تناقصت تلك القوة التي لأفكار الأب على أفكار أولاده، وتناقصت سلطته التشريعية عليهم .

وربما كان تقسيم الضياع والتركات - ذلك التقسيم الذي تؤدي إليه الديمقراطية - هو الذي يعاون أكثر من أي شيء آخر على تغيير العلاقات القائمة بين الأب وأولاده، فإن كانت أموال رب الأسرة قليلة، عاش عادة مع ابنه في مكان واحد، وصاروا يعملان معا في عمل واحد، وظلت العادة والضرورة تقربان كلاً منهما إلى الآخر، وتضطرانها أن يكونا على اتصال دائم، مما يؤدي إلى قيام نوع من الصداقة الوطيدة بينهما يجعل سلطة الوالد أقل صرامة وقوة، كما يجعل التوفيق بينهما وبين مظاهر الاحترام الخارجية المعروفة، عسيراً .

هذا، وأنا لنجد في البلاد الديمقراطية أن الطبقة التي يملك أفرادها مثل هذه الثروات القليلة، هي فعلاً تلك التي تجعل للأفكار قوة، وتوجه آداب المجتمع وعاداته تجاهاً خاصاً . فهذه الطبقة هي التي تعمل على نشر أفكارها وجعلها عامة وسائدة، مثل إرادتها . وحتى أولئك الذين يميلون كل الميل إلى مناهضة أوامرها سيجرفهم مثلها آخر الأمر، فيحذون حدو غيرهم . فقد عرفت أشخاصاً متحسين ضد الديمقراطية كانوا يسمعون لأبنائهم أن يخاطبوهم بعبارات تدل على أنهم جميعاً متساوون مساواة تامة .

فبينما تقلت السلطة من أيدي الرجال الأرستقراطيين، يزول ما في السلطة الأبوية من صرامة، ومن الاستمسك بضرورة مراعاة التقاليد، بل يزول ما فيها من حق شرعي كذلك؛ وبذا يسود البيت نوع من المساواة . ولا أعرف، على الجملة، إن كان المجتمع يخسر من جراء هذا التغيير أو لا، ولكنني أعتقد أن الإنسان من حيث هو فرد يربح ولا يخسر . وكلما صارت العادات الأخلاقية والقوانين أكثر ديمقراطية، استحكمت عرى

الروابط التي بين الابن والأب، وتوثقت المودة بينهما، وقلت الإشارة إلى القواعد التي يجب أن تراعى، وإلى السلطة التي يجب أن تطاع، وازدادت الثقة والمحبة؛ فكأن الرابطة الطبيعية تزداد إحكاماً وتوثقاً كلما تفككت الروابط الاجتماعية .

لم يعد الأب في الأسرة الديمقراطية يمارس سلطة ما غير تلك التي تخوله إياها المحبة وحنكة السن؛ فقد تهمل أوامره، أما نصائحه وإرشاداته ففيها من القوة ما يجعلها مقبولة عادة. ومع أنه لم يعد محاطاً بمظاهر الإجلال الشكلية، فأولاده، على الأقل، يخاطبونه باحترام وثقة، نعم لم يعد ثمة نظام مقرر، أو صيغة معينة لمراعاتها في خطابه، وتوجيه الحديث إليه، ولكن أبناءه يتحدثون إليه باستمرار، ويقبلون على استشارته واستيضاحه كل يوم؛ لقد اختفى السيد والحاكم وبقي الوالد .

لسنا بحاجة إلى إبداء رأينا في الفرق بين حالتي المجتمع هاتين في هذه النقطة أكثر من أن نقرأ الخطابات التي كان يتبادلها أعضاء الأسرة الواحدة في العصور الأرستقراطية، فقد كان أسلوب الكتابة فيها صحيحاً دائماً، حافلاً بالتحيات ومظاهر الإجلال، إلا أنه جاف كل الجفاف، حتى لا تكاد تشعر بدفء القلب الطبيعي من خلال العبارات والألفاظ المستعملة. على حين أن الأمر في البلاد الديمقراطية على العكس من ذلك، فاللغة التي يخاطب بها الابن أباه تتسم بمزيج من الحرية والألفة والمحبة، مما يدلنا مباشرة على أن علاقات جديداً قد تجلت في نطاق الأسرة .

وثم ثورة شبيهة بهذه تعدل من علاقات الأطفال بعضهم ببعض وتحوها، فكل مركز من الأسرات الأرستقراطية محدد سلفاً. كما هو الشأن في المجتمع الأرستقراطي؛ فالوالد يشغل في الأسرة مركزاً خاصاً ممتازاً منفصلاً عن غيره، يستمتع فيه بمزايا عظيمة؛ وكذا الأطفال أنفسهم ليسوا بالمتساوين فيما بينهم؛ فالسن والجنس يحددان مركز الطفل في الأسرة تحديداً ثابتاً لا يتغير، ويكفلان له فيه مزايا معينة. وقد ألفت الديمقراطية معظم هذه الفروق والحواجز أو أنقصتها .

ومن المعروف أن الابن الأكبر في البلاد الأرستقراطية يرث الشطر الأعظم مما يخلفه الوالد، كما يرث معظم ما للأسرة من حقوق، فيصبح بذلك رئيس إخوته وسيدهم إلى حد كبير، فله العظمة، والقوة كلتاها، على حين يصبح إخوته أفراداً عاديين تابعين له معتمدين عليه. ولكن من الخطأ أن يظن أحد أن مزايا الابن البكر في تلك الأمم الأرستقراطية كانت مفيدة له وحده أو أنها كانت تولد الحسد والغيرة والكراهية في نفوس من حوله. فالابن البكر يسمى عادة وراء ما فيه الثروة والجاه لإخوته لأن أهبه الأسرة العامة تنعكس عليه بوصفه ممثلها. ومن جهة أخرى يعمل الإخوة الصغار لتأييد أحميم الأكبر في كل ما يضطلع به من مشروعات، لأن قوة رأس العائلة وجاهه تمكنانه من خدمة كل فرع من فروع الأسرة. ومن ثم كان أعضاء الأسرة الأرستقراطية، على اختلافهم، مرتبطين بروابط

وثيقة، وذلك إلى أن مصالحهم مترابطة، وآراءهم متوافقة، أما قلوبهم فشتى، فقلما تكون متآلفة ومتفاهمة .

وهكذا تربط الديمقراطية الإخوة بعضهم ببعض، وإن كانت تربطهم بوسائل وطرق مختلفة، فالأطفال متساوون في القوانين الديمقراطية تمام المساواة، ومن ثم كان كل منهم مستقلاً بنفسه، لا شيء يكرههم على أن ينضم بعضهم إلى بعض، ولا شيء كذلك يفرق بينهم ويفصلهم بعضهم عن بعض، وإذا كانوا جميعاً من أصل واحد، ونشأوا تحت سقف واحد، وكانوا موضع عناية واحدة، وليس ثمة أى امتياز خاص يميز أحدهم على الآخر، أو يفصله عنه، فما أسهل أن تنشأ بينهم تلك الصداقة الوثيقة الحلوة التى كانت سائدة بينهم فى الصغر. فالروابط التى انعقدت بينهم على هذا النحو فى مطلع الحياة لا تتعرض لأحوال قد تؤدى إلى انفصالها، فصلة الأخوة تقربهم بعضهم من بعض باستمرار من غير أن تضايقهم فى شيء، فليس صحيحاً إذن أن المصلحة هى التى تجعل الديمقراطية تربط الأخ بأخيه فى العصور الديمقراطية، وإنما تربطهما تلك الذكريات المشتركة، والاتفاق الحر فى الآراء والأذواق، لقد فرقت الديمقراطية تركة والدهم، ولكنها عملت على توحيد قلوبهم وربطها بعضها ببعض.

بلغت هذه الآداب الأخلاقية الديمقراطية من العذوبة والرفقة مبلغاً عظيماً اجتذب إليها حتى أنصار الأرستقراطية أنفسهم لاتبعوها، فبعد أن خبروها فترة من الزمن لم يعودوا يستسيغون الرجوع إلى ما فى الأسر الأرستقراطية من آداب وعادات شكلية مسيخة قائمة على مظاهر التبجيل والاحترام، لقد سرهم أن يحتفظوا بالعادات الديمقراطية المعمول بها فى الأسرة، إذا ما استطاعوا السبيل إلى تخليص هذه العادات من ظروفها الاجتماعية ومن قوانينها، إلا أن هذه الأمور مرتبطة كلها بعضها ببعض أوثق ارتباط، ومن المستحيل على المرء أن يستمتع بالأولى من غير أن يصبر على الثانية ويحتملها .

إن ما ذكرته ترواً من ملاحظات بشأن المحبة البنوية والمودة الأخوية ليصدق على سائر العواطف التى تنبت تلقائياً من الطبيعة البشرية نفسها .

فإن حدث أن جاء شكل معين من أشكال الفكر أو الوجدان نتيجة حالة معينة من أحوال حياة الناس، ثم تغيرت هذه الحال، لم يعد يتبقى شيء مطلقاً من ذلك الفكر ولا من تلك الوجدانات. فقد يربط القانون عضوين من أعضاء الجماعة ربطاً وثيقاً، ولكن إذا ما ألغى هذا القانون انفصلا. فلم يكن ثمة شيء أوثق من الرابطة التى كانت بين السيد والمولى فى النظام الإقطاعى، أما فى وقتنا الحاضر فلم يعد هذان الرجلان يعرف أحدهما الآخر، فالخوف والاعتراف بالجميل والمودة التى كانت تربطهما بعضهما ببعض، قد زالت ولم يعد لها من أثر.

ومع ذلك فليست هذه حال مشاعر البشر وعواطفهم الطبيعية، فكلما حاول القانون

أن يشكل هذه العواطف قسراً بشكل ما، أضعفها عادة، وإن حاول أن يقويها ويزيد عليها، سلبها بعض عناصرها، فهي لا تبلغ أشدها إلا عندما تترك وشأنها .

فالديمقراطية التي قضت على الجزء الأعظم من قواعد المجتمع التقليدية القديمة أو غمرتها، والتي منعت الناس من أن يتخذوا لهم بسهولة قواعد أخرى جديدة - هذه الديمقراطية تحو تماماً معظم العواطف التي تنشأ من هذه القواعد التقليدية، على حين أنها لا تزيد على أن تعدل بعض القواعد الأخرى، وكثيراً ما كانت تضيء عليها نشاطاً وعدوية لم تكونا لها من قبل .

ومن الميسور أن نوجز في جملة واحدة فحوى هذا الفصل كله وفحوى فصول أخرى سابقة عليه، في أن الديمقراطية ترخي الروابط الاجتماعية، ولكنها تزيد الروابط الطبيعية توثيقاً وإحكاماً، فتربط الأقارب بعضهم ببعض: وتباعد بين المواطنين .

## الفصل التاسع

### تربية الفتاة في الولايات المتحدة

لم يحدث أن قامت جماعات حرة دون أن تكون لها عادات أخلاقية تستند إليها، ولما كانت المرأة هي التي تصنع هذه العلاقات الأخلاقية، كما سبق أن أشرت إلى ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب، فكل ما يؤثر في أحوالها وعاداتها وآرائها، يعد، في نظري، ذا أهمية سياسية كبرى .

والفتيات في البلاد البروتستانتية، مستقلات، فشنونن بأيديهن، إلى مدى بعيد، أكثر من مثيلتهن في البلاد الكاثوليكية . وما زال هذا الاستقلال عظيماً في البلاد البروتستانتية التي حافظت، مثل إنجلترا، على استقلالها وحكم نفسها بنفسها، أو حصلت على مثل هذا الحق . فعندئذ تُنفذ نسمات الحرية إلى نطاق المنزل عن طريق العادات السياسية والمعتقدات الدينية . ولا يخفى أن أصول المذهب البروتستانتي في الولايات المتحدة قد امتزجت بجزية سياسية واسعة المدى، وبجالة اجتماعية مفرقة في الديمقراطية . فلم يحدث في أية بلاد أخرى أن تركت الفتيات وشأنهن يدبرن أمورهن من سن مبكرة، مستقلات كل الاستقلال .

فقبل أن تصل الفتاة الأمريكية إلى سن الزواج بزمان طويل تكون قد تحررت من سلطة أمها شيئاً فشيئاً : فقد كانت، وهي لا تزال طفلة، تفكر بنفسها، وتتكلم بجزية، وتعمل بما يوحى إليها عقلها . وكان منظر الدنيا الفسيح مفتوحاً أمامها باستمرار، فبدلاً من أن يحجب عنها، كان يكشف لها، وتعرض عليها مشاهدته كل يوم؛ وكانت تدرّب على أن تنظر إلى هذه المشاهد بنظرة ثابتة هادئة؛ فكان كل ما في المجتمع من رذائل ومن أخطار يتكشف لها في سن مبكرة . وإذا كانت تراها واضحة، صارت توجهها في غير وجل، وتبدى فيها رأياً مخلصاً بغير خداع، معتمدة على ثقفتها العظيمة بنفسها، وصار جميع من حولها يبدون لها كأنهم يشاركونها في ثقفتها بنفسها هذه .

فيجب ألا تنتظر إذن من الفتاة الأمريكية أن تبدى شيئاً من تلك الرقة العذرية وسط الرغبات الفتيّة الناشئة، ولا ذلك الحسن الطبيعي البريء الذي يلازم الفتاة الأوروبية عادة في مرحلة انتقالها من الحداثة إلى الشباب . فهي يندر أن تظهر في أية مرحلة من مراحل حياتها، ذلك الحفر، ولا ذلك الجهل الطفلي . وإنما لتعمل على إدخال السرور على غيرها

وإرضائهم كما تعمل الشواب الأوريبات، ولكنها تعرف حق المعرفة الثمن الذى يكلفها هذا الإرضاء. فإن هى لم تدع نفسها تتساق مع الشر، فهى تعرف، على الأقل، أن هذا الشر موجود، وهى معروفة بطهارة أخلاقها أكثر منها بعفة عقلها.

إنى كثيراً ما دهشت، بل فرغت، من تلك الباقية فى الخطاب والجرأة السعيدة اللتين تستطيع بهما الشواب الأمريكيات توجيه أفكارهن وحديثهن وسط كل ما يكتنف الحديث الحر من مصاعب. إن الفيلسوف نفسه ليتعثر فى كل لحظة فى هذا الطريق الضيق، الذى يسلكه هن فى غير مشقة، ودون أى حادث يقع هن. وليس عسراً علينا أن ندرك أن المرأة الأمريكية سيدة نفسها دائماً، وحتى فى استقلالها. وفى حديثها، وهى فى ميعه صباحها، لا تتحجم عن الاستمتاع بكل المسرات الحلال المباحة من غير أن تستسلم لواحدة منها؛ وأن عقلها ليأبى أن يترك الأئنة التى تحكم سلوكها. على الرغم من أن هذه الأئنة لا تخلو عادة من استرخاء.

أما فى فرنسا، حيث تختلط أنقاض التقاليد المتخلفة مع شتى العصور اختلاطاً غريباً، بآراء الناس وأذواقهم، فالمرأة تترى تربية تقليدية. كلها تحفظ وتزمت. كما لو كانت تعلم فى دير، وكما كانت الحال فى العصور الأرستقراطية السالفة؛ وبعد تمام تعليمها هذا، تترك فجأة وشأنها دون أى إرشاد أو معاونة وسط ذلك الاضطراب الجائش ووسط تلك المزالق التى لا تخلو منها المجتمعات الديمقراطية.

أما الأمريكيون فأكثر انسجاماً مع أنفسهم من الفرنسيين، فقد عرفوا أن استقلال الأفراد فى البلاد الديمقراطية لا يمكن إلا أن يكون عظيماً. فالشاب متهور مندفع، والميول لاضابط لها يكبح جماحها، والعادات والتقاليد متغيرة متقلبة. وكثيراً ما يكون الرأى العام نفسه مضطرباً غير محدود، أو ضعيفاً لا حول له ولا سلطان؛ وكثيراً ما يكون نفوذ الوالدين كذلك ضعيفاً، وسلطة الزوج موضع نزاع وخلاف. لقد أدرك الأمريكيون أن لاسبيل فى مثل هذه الأحوال إلى قمع أكثر شهوات المرأة عرامة وطغياناً بالقوة، وأن خير سبيل أن يعلموها فن مواجهة هذه الشهوات. وأن يدعوها تصارعها هى بنفسها. ولما كانوا لا يستطيعون منع تعرض فضيلتها للخطر الذى كثيراً ما يهددها، استقر بهم الرأى على وجوب تعليمها أن تدافع عن شرفها وتصونه بنفسها، وجعلوا اعتمادها فى ذلك على نشاط إرادتها الحرة أكثر من اعتمادها على حواجز يقيمونها حولها. ولا تلبث أن تتزعزع أو تنهار. فبدلاً من أن يدعوها قليلة الثقة بنفسها عملوا باستمرار على تقوية هذه الثقة فى نفسها. وإذ ليس من المرغوب فيه، ولا هو بالممكن، إبقاء الفتاة فى جهل دائم مطبق، سارعوا إلى تزويدها بمعلومات شتى عن كل موضوع فى سن مبكرة، بدلاً من أن يخفوا عنها ما فى هذا العالم من مفسد وشرور، وأثروا، أن يتيحوا لها مشاهدتها فى الحال، وأن يمكنوها من أن تدرب نفسها على تحاشيا والاحتراز منها، ورأوا أن الأحرى بهم أن يضمنوا إخلاصها وأمانتها، من أن يسرفوا فى الحرص على براءة ما يجول بخاطرها من أفكار.

ومع أن الأمريكيين قوم متدينون كل التدين ، فإنهم لم يعتمدوا على الدين وحده في حماية فضائل المرأة ، بل عملوا على تسليح عقلها . وسلكوا في ذلك الطريق نفسها التي سلكوها في غير ذلك من أمور ، فبدلوا الجهود الجبارة ليتمكنوا الفرد المستمتع باستقلاله من أن يراقب نفسه بنفسه ، ولم يستعينوا بالدين إلا بعد أن يستنفدوا كل ما في الطبيعة البشرية من جهد ومن احتمال .

ولا يفوتني أن التربية التي من هذا القبيل قد لا تخلو من خطر ، وأنها قد تنشط القدرة على الحكم على الأمور والبت فيها ، على حساب قوة التخيل ، وتؤدي إلى خلق نساء فضليات ولكن فيهن برود ، بدلاً من أن تخلق زوجات ودودات ورفيقات لبعولتهن محبات . فلو كان المجتمع أكثر هدوءاً وانتظاماً ، لقل ما في الحياة الخاصة من روعة ومن مباح . ومع ذلك ، فتلك شرور ثانوية يتسنى مقاومتها بإيجاد مواضع اهتمام أسمى وأجل ، ففي المرحلة التي وصلنا إليها لم يعد أمر الاختيار متروكاً لنا ، فلا مناص إذن ، من تربية المرأة ، تلك التربية الديمقراطية التي تحميها من الأخطار التي قد تعرضها لها المؤسسات والعادات الديمقراطية .

## الفصل العاشر

# الفتاة والزوجة

تفقد الفتاة الأمريكية استقلالها فقدانا لارجعة لها إليه بعد ارتباطها بميثاق الزوجية. فإن كانت القيود المفروضة عليها قبل الزواج أخف مما في أية بلاد أخرى. فإن هذه الفتاة تتعرض لعدة قيود والتزامات أفسى وأكثر عدداً. فالأولى تجعل من بيت أبيها مقراً للحرية ومبعثاً للسرور. على حين تعيش الثانية في بيت زوجها. كما لو كانت راهبة في دير. ومع ذلك فهاتان الحالتان من العيش ليستا بمتناقضتين. كما يبدو لأول وهلة. فمن الطبيعي. أن تمر الفتيات الأمريكيات بالأولى منهما قبل أن تصل إلى الأخرى.

للشعوب المستمسكة بالدين، وللأمم الصناعية والتجارية. فكرة عن الزواج رزية كل الرزاة، فترى الشعوب المتدينة أن انتظام المرأة في حياتها خير ضمان وأؤكد دليل على طهارتها وحسن أخلاقها؛ وترى الشعوب الصناعية والتجارية في هذا الانتظام أكبر ضمان لاستقرار نظام المنزل وازدهاره. فمن المعلوم أن الأمريكيين شعب «متطهر» متشدد في أمور دينه، كما أنهم في الوقت نفسه أمة تجارية صناعية. فأراؤهم الدينية؛ وعاداتهم التجارية تؤدي بهم إلى أن يتطلبوا من الزوجة الكثير من إنكار الذات. وتضحية مستمرة بملذاتها. في سبيل أدائها ما عليها من واجبات. وهو ما يندر أن يتطلب من الزوجة في البلاد الأوربية. وهكذا ترى أن في الولايات المتحدة رأياً عاماً مسيطراً قاسياً. يقضى بحجز المرأة في دائرة مصالح البيت وواجباته. وهي دائرة ضيقة كما لا يخفى. ومع ذلك يحرم عليها أن تغادرها.

ف عندما تدخل الأمريكية الشابة دنياها الجديدة. تجد هذه الأفكار راسخة وطيدة. فتدرك القواعد المترتبة عليها؛ وسرعان ما تدرك أنها لا تستطيع أن تحيد لحظة واحدة عن العادات المقررة في عصرها دون أن تعرض اطمئنانها النفسي وشرفها بل وكيانها الاجتماعي ذاته للخطر، وإنها لتجد في ثبات عقلها، وفي العادات القوية التي غرستها فيها التربية التي نشأت عليها - تجد القوة التي تجعلها تدعن لهذه العادات وتخضع لها راضية. وقد يقال إنها قد تعلمت من حسن استخدام استقلالها، أن تنزل عن هذا الاستقلال، من غير كفاح ولا تدمير، عندما يجيء الوقت الذي يقتضيها النزول عنه.

ومع ذلك فلا توجد امرأة أمريكية تقع أبداً في متاعب الارتباط بالزواج كما تقع في شباك نصبت للإيقاع بسذاجتها وجهلها . فقد تعلمت من قبل ما ينتظر منها ؛ ومن ثم فهي إنما تقدم على عقد هذا الميثاق ، حرة مختارة ، فهي التي تضع نيره على عاتقها بيدها . فلا غرو أن صارت تتحمل حالتها الجديدة بكل شجاعة مادامت هي التي ارتضتها بنفسها واختارتها دون أى إكراه . ولما كانت السلطة الأبوية متراخية كل التراخي في أمريكا ، على حين كانت رابطة الزوجية محكمة وثيقة لا تقدم الفتاة على عقد هذه الصلة الرابطة إلا بعد أن تكون قد احتاطت للأمر وتفهمت الموقف حق الفهم . ومن ثم فإننا لانجد في أمريكا زيجات تتم في سن صغيرة ، فالأمريكية لا تتزوج إذن إلا بعد أن يكون عقلها قد تدرّب ونضج ، على حين أن المرأة في البلاد الأخرى لا تبدأ عادة في تدريب عقلها وإنضاجه إلا بعد الزواج .

ومع ذلك فلست أعتقد بحال من الأحوال ، أن هذا التحول الكبير الحادث في جميع عادات النساء في الولايات المتحدة عقب زواجهن ، يجب أن يعزى كله إلى ضغط الرأي العام وحده ، بل إنهن كثيراً ما يفرضنه على أنفسهن فرضاً بإرادتهن وحدها . فعندما يجين الوقت الذى تختار فيه المرأة زوجها لها ، تكون قد تعلمت من ذلك التفكير الهادى القاسى الذى حصلت عليه من ملاحظتها شئون هذا العالم ملاحظة حرة ، والتي أurst هذه الملاحظة الحرة قواعده وأثارت جوانبه ، تعلمت منه أن روح النزق والاستقلال في بيت الزوجية مصدر دائم للمتاعب المقيمة ، وليست مصدراً للمتعة والسرور . هذا وقد دها هذا التفكير نفسه على أن الملاهي التي كانت تتسلى بها وهي فتاة ، لا يمكن أن تكون هي نفسها التي تستمتع بها وهي زوجة ، وأن مصادر سعادة المرأة المتزوجة لا تكون إلا في بيت زوجها . ولما كانت الفتاة الأمريكية تدرك سلفاً بوضوح الطريق الوحيد إلى السعادة المنزلية ، فقد صارت تقدم على سلوكه في الحال ، وكلها عزم على أن تسير فيه حتى نهايته من غير نكوص أو تراجع إلى الوراء .

فقوة الإرادة هذه نفسها التي تبديها الزوجات الشواب في أمريكا عند إقبالهن على الزواج والإذعان لمطالبه في الحال ، ومن غير أى تذكر ، وفي تقبلهن الواجبات الصارمة التي تفرضها عليهن حياتهن الجديدة - هذه القوة تتجلى كذلك فيما قد يصادفهن من المحن الجلى في حياتهن . فليس في العالم بلد يعانى فيه الأفراد ، الكثير من تقلبات الزمن وتصاريه ، مثل ما يعانونه في الولايات المتحدة ، فليس من النادر أن يمر الرجل في حياته بتقلبات شتى ، فيصعد ويهبط جميع الدرجات ، ويمر بكل المراحل التي بين الفقر والثراء ... هذا ، والأمريكيات يتحملن هذه التقلبات بعزائم صادقة لا تخيب ، فرغباتهن تبدو أنها تقل أو تقلص بنفس السهولة التي تتسع بها وتزداد ، تبعاً لظروف الزمن وتقلبات الحظ .

إن الجمهرة الكبرى من المغامرين الأمريكيين الذين يغادرون مواطنهم الأولى

في الولايات المتحدة، ويتجهون غرباً ليعمروا القفار والبرارى - ينتمون إلى ذلك الشعب الأمريكى الإنجليزى الذى سبق أن أشرنا إليه في موضع آخر من هذا الكتاب . فالكثيرون من هؤلاء الرجال الذين يندفعون في جراءة عظيمة ساعين وراء المال ، كانوا من قبل ينعمون بما يكفيهم في البقاع التى سبق أن استقروا فيها واتخذوا منها لهم موطناً . فهم في هجرتهم إلى الغرب يصطحبون معهم زوجاتهم ويشركونهن في تلك المخاطر التى لا تحصى ، وفي ضروب الحرمان المنوعة التى تقتضيها أمثال هذه الرحلات ، ولا سيما في بدايتها ، وكثيراً ما حدث لى أن صادفت ، حتى على أطراف الصحارى . شواب جنن إلى هذه البرارى مباشرة بعد أن نشأن وسط مختلف المتع التى يستمتع بها الناس في نيوانجلند ، من غير أن يمررن بمرحلة وسطى بين هاتين الحالتين ، فإنهن ينتقلن مباشرة من قصور والدين إلى أخصاص تعيسة سيئة التكوين في قلب الغابة . فالحميات والعزلة الموحشة والسأم - كلها مجمعة - لم تستطع أن تفل شجاعتهم . نعم قد تبدو ملامحهم ذابلة ووجوههم حائلة ، أما نظراتهم فتبقى مع ذلك ثابتة ؛ فتراهن يظهرن في الوقت نفسه واجهات وذوات عزمات ماضيات لا يفل لها حد . فلا يساورنى أى شك في أن هؤلاء الأمريكيات الشواب قد حصلن في مراحل تربيتهم الأولى على القوة الباطنة التى عرفن كيف يستخدمنها في ظل هذه الظروف . هذه هى الشابة التى تجدها في الولايات المتحدة في ثياب الزوجة . لقد تغير دورها واختلفت الآداب والعادات ، أما الروح فقد ظلت هى هى لم يلحقها أى تغير .

## المساواة فى الأحوال الاجتماعية تعاون على صيانة الأخلاق الحميدة فى أمريكا

قال بعض الفلاسفة، وقال بعض المؤرخين (أو أنهم أشاروا إلى ذلك) إن مدى استمساك النساء بعفافهن يزداد أو ينقص بحسب بعد بلادهن أو قربها من خط الاستواء. وهذا حل، لاشك سهل ورخيص للمشكلة، فهو لا يقتضينا سوى كرة أرضية وفرجار، للبت فى مشكلة من أعقد مشاكل الجنس البشرى. ولكن مبدأ الماديين هذا لا يستند إلى الواقع. فقد كانت الأمم نفسها عفيفة أو داعرة فى عصور مختلفة من تاريخها، فاستمساكها بالأخلاق أو تراخيها فيها يرجع إذن إلى سبب متغير، وليس إلى أحوال بلادهم الطبيعية، وهى أحوال ثابتة. فلست أنكر أن الشهوات التى تجتذب أحد الجنسين إلى الآخر، حادة فى بعض الأقاليم التى يسودها مناخ معين ومع ذلك أرى أن هذه الحدة الطبيعية يمكن أن تستثيرها أو تحد منها أحوال المجتمع والمؤسسات السياسية.

ومع أن السائحين الذين تجولوا فى أمريكا الشمالية يختلفون فى نقاط كثيرة، فإنهم يتفقون معاً جميعاً على أن الأخلاق فيها أمتن كثيراً مما فى غيرها من البلاد، وأشد صرامه. ولا يخفى أن الأمريكيين يتفوقون فى هذه الناحية على أجدادهم الإنجليز الذين سبق أن نشأوا بين ظهرانيمهم. وحسبنا نظرة عاجلة إلى هاتين الأمتين لنقتنع بصحة هذه الحقيقة.

ففى إنجلترا تظل الشائعات العامة المؤذية تهاجم ضعف النساء كما تهاجمه فى كل دولة أوربية أخرى. فقد سمعنا الفلاسفة ورجال السياسة ينعون على الأخلاق عدم استقامتها، وعدم انتظامها، وأن ما يصدر فى البلاد من كتب الأدب يؤدى بنا دائماً إلى افتراض صحة ما يقولون. أما فى أمريكا فكل ما يوضع من كتب، بما فيها الروايات والقصص، نفسها، يفترض أن جميع النساء عفيفات ولا يخطر ببال أحد أن يقص على الناس مسائل المغامرات الغرامية.

لاشك فى أن انتظام الأخلاق الأمريكية يرجع فى جزء منه إلى طبيعة البلاد، وإلى الجنس والدين، ولكننا نجد هذه الأسباب كلها فعالة فى غيرها من البلاد، ولا تكفى لتعليل

هذه الحالة في أمريكا، فلا مندوحة لنا من أن نلجأ إلى سبب آخر، هو، في نظري، مبدأ المساواة وما ترتب عليه من مؤسسات. فالمساواة في الأحوال الاجتماعية نفسها لا تؤدي إلى استقامة الأخلاق، ولكن لاشك في أنها تسهل لها الطريق وتعمل على زيادتها.

هذا، وكثيراً ما تكون مسائل الأصل والثروة دواعي تجعل من كل من الرجل والمرأة في البلاد الأرستقراطية مخلوقين مختلفين كل الاختلاف لدرجة يستحيل معها الجمع بين الاثنين، فشهواتهما تجذبهما، ولكن أحوال المجتمع وما توحى به من أفكار، تحول بين رباطهما برباط أبدى سافر، مما أدى بالضرورة إلى كثرة عدد العلاقات قصيرة الأجل التي تعقد في الخفاء، وهكذا تتأثر الطبيعة لنفسها سراً من القيود التي تفرضها عليها القوانين جهراً وعلانية.

وليست هذه هي الحال عندما تزيل المساواة جميع الحواجز والسدود الوهمية أو الحقيقية التي تفصل بين الرجل والمرأة. فليس ثمة فتاة تعتقد أنها لا تستطيع أن تكون زوجة للرجل الذي أحبها وآثرها على سواها، مما يجعل كل انتهاك لحرمة الأخلاق قبل الزواج أمراً ليس من السهولة في شيء، فمهما كان صدق هذه الميول، فالمرأة لا تستطيع أن تقتنع بأنها محبوبة حقاً عندما يكون حبيبها حرّاً كل الحرية في أن يتزوجها، ولكنه لا يفعل.

ولهذا السبب نفسه أثره في الحياة الزوجية، وإن كان بطريقة غير مباشرة؛ فلا شيء يرير شهوة غير مشروعة، في نظر أولئك الذين تورطوا فيها أو في نظر العالم، أكثر من زواج يتم قسراً أو مصادفة.

فحيث المرأة حرة دائماً في ممارسة حقها في اختيار زوجها، وحيث التربية تحول لها أن تحسن هذا الاختيار، نجد الرأي العام قاسياً كل القسوة عندما تحطء مثل هذه المرأة وتزل. فتشدد الأمريكيين يرجع بعضه إلى هذا السبب لأنهم يعدون الزواج ميثاقاً ثقيلاً في كثير من الأحيان، ولكن الطرفين مجبران على الوفاء بكل شرط من شروطه تمام الوفاء؛ إنهما يعرفان سلفاً كل هذه الشروط، وكانا كاملين الحرية في ألا يتعاقدا عليها.

إن الظروف التي تجعل الوفاء بشروط الزواج أمراً ملزماً، هي نفسها التي تيسر هذا الوفاء.

وكثيراً ما يكون الغرض من الزواج في البلاد الأرستقراطية الجمع بين الأملاك أكثر من ضم الأشخاص والتوفيق بينهم، ومن ثم يحدث أن يكون الزوج وقت الخطبة تلميذاً لا يزال يتلقى العلم في المدرسة، والزوجة طفلة لا تزال تلعب وتعبث في حجرة الأطفال. فلا عجب إذن إن كان رباط الزوجية الذي يوحد ثروتين الزوجين ويرخص لقلبيهما بالتنقل؛ فذلك نتيجة طبيعية ليثاق هذا الزواج وروحه. وعلى العكس من ذلك؛ إن كان الرجل حرّاً دائماً في اختيار رفيقة حياته بنفسه، من غير أي إجبار يسلب عليه من الخارج،

بل وحتى من غير إرشاد أو توجيه، فذلك يكون عادة نتيجة توافق الأذواق والآراء، ذلك التوافق الذى يقرب بين الرجل والمرأة، ويستبقهما معاً ثابتين، كل منهما إلى جانب الآخر .

كان لأجدادنا فكرة غريبة بشأن الزواج؛ فقد لاحظوا أن الزيجات القليلة القائمة على الحب وتوافق الميول، والتي تمت في أيامهم، قد انتهى أمرها كلها أو معظمها بالإخفاق، فاستنبطوا من ذلك بشكل قاطع أن من الخطر الإصغاء إلى دواعى القلب في مثل هذا الأمر. لقد بدت لهم المصادفة هادياً أصدق من الاختيار الحر .

ومع ذلك فليس من العسير علينا أن ندرك أن الأمثال التى شاهدوها لا تدل على شيء في الواقع . وذلك لعدة أسباب، فأولاً: إن كانت الأمم الديمقراطية تترك الحرية للمرأة في اختيار زوجها، فقد حرصت كل الحرص على تزويدها بالمعرفة الكافية، وعلى تسليح إرادتها بالقوة التى تمكنها من أن تحسن الاختيار في هذا الأمر الخطير؛ أما أولئك الفتيات اللواتي يهرين سراً في البلاد الأرستقراطية من سلطة والديهم ليلقين بأنفسهن في أحضان رجال لم يكن لديهن وقت ليعرفنهم، ولا قدرة للحكم عليهم بالخير أو الشر، فلم يكن هن مثل هذه الضمانات الواقعية . فلا عجب إذن إن أسأن الاختيار، وأسأن استخدام حريتهن في العمل، في أول مرة يستخدمنها فيها، أو أن يقعن في أغلاط جسيمة قاسية إذا لم يكن قد حصلن على تربية ديمقراطية واخترن مع ذلك أن يتزوجن بحسب التقاليد الديمقراطية . ولكن ليس هذا كل ما في الأمر . فإذا ما عقد شاب وفتاة عزمهما على الزواج، على الرغم مما بينهما من فروق اصطلاح عليها المجتمع الأرستقراطى الذى يعيشان فيه، كان عليهما أن يتخطيا عقبات كأداء . فبعد أن يكونا قد فصما روابط الطاعة النبوية أو أضعفاها، يجدان أن عليهما أن يبذلا جهداً أخيراً في تحرير نفسيهما من سلطان العادة، وطغيان الرأى العام . وأخيراً، فبعد أن ينجحا في هذه المهمة الشاقة؛ يظلان غريبين عن أصدقائهما الطبيعيين وعن أقاربهما . فالعرف الاجتماعى الذى صدماه وتحررا منه يبعدهما عن سائر الناس ويقفهما موقفاً لا يلبث أن يفت في شجاعتهما الأديبة ويملاً قلوبهما حسرة ومرارة .

فإن تزوج اثنان على هذا النحو . وكانا أول الأمر غير سعيدين، شعرا بأنهما مذنبان، فيجب ألا يعزى ذلك إلى حريتهما في الاختيار، بل الأولى به أن يعزى إلى معيشتها في مجتمع لا يسمح بمثل هذه الحرية فيه .

وفضلاً عن ذلك ينبغى ألا يغرب عنا أن المجهود نفسه الذى يجعل الرجل يقلع عن خطأ شائع، ليدفع به عادة إلى المضى إلى ما وراء حدود العقول، فمن يجروء على شن حرب على آراء عصره وبلادته، مهما كان على حق، ومهما كانت قضيته عادلة، لا بد أن يكون ذا نفس مغامرة عتيقة، فمن النادر أن يصل الناس الذين من هذا الطراز إلى السعادة

أو الفضيلة، مهما كان الطريق الذي يسلكونه؛ ولعل هذا هو السبب في أننا في أشد الثورات ضرورة، وأنبهنا مقصدا يندر أن نصادف ثورين أمعاء معتدلين. فإذا ما اختار رجل في عصر من العصور الأرستقراطية ألا يعتمد في اختياره زوجة له على غير رأيه هو، ولا على ذوق أى إنسان سوى ذوقه هو، فلا يدهشن إن وجد أن الفساد الأخلاق والشقاق العائلي، سيتسربان إلى بيته. ولكن إن حدث هذا الاتجاه نفسه في نطاق النظام الطبيعي للأشياء وأيدته سلطة الوالدين، وسانده الرأي العام، فلا مرء في أن طمأنينة الأسرة الداخلية ستزداد، وستكون الأمانة الزوجية مرعية تمام المراعاة.

فمعظم الرجال في البلاد الديمقراطية يعملون في الحياة العامة السياسية أو في المهنة المختلفة؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فالدخل المحدود يضطر الزوجة أن تقصر نشاطها على شئون بيتها، فتراقب شخصيا وعن كتب، تفصيلات الاقتصاد المنزلي. فكل هذه الأعمال المحددة الاضطرارية تعد ائبه بجواجز طبيعية تبعد كلاً من الجنسين عن الآخر، وبذلك تجعل مغازلات أحد الجنسين أقل حدوثاً أو أشد فوراً، كما تجعل مقاومة الجنس الآخر أسهل وأيسر.

ليس معنى ذلك أن المساواة بين الناس في الأحوال الاجتماعية يمكن أن تجعلهم أعفاء طاهرين، ولكنها لا شك تجعل ما قد يكون فيهم من اضطراب أخلاق أقل خطراً. فإذا لم يعد لدى أحد الفراغ، ولا الفرص ليعتدى على فضيلة تستطيع أن تدافع عن نفسها، صار لدينا في وقت واحد عدد كبير من الخليعات وعدد كبير من النساء الفضليات. وهو وضع يؤدي إلى حالات محزنة من حيث إحداث المتاعب لبعض الأفراد. ولكنه لا يمنع المجتمع في جملته من أن يكون قوياً، فهو لا يفصم عرى الروابط الأسرية.. ولا يضعف من أخلاق الشعب، فالأمانة لا تكون في خطر من جراء دعاة قلة من الناس. ولكن الخطر يأتيها من ترهل أخلاق المجتمع كله في جملته. إن خطر البغاء في نظر الشارع لأهون من خطر الدس والفتن.

إن هذه الحياة الصاخبة التي يؤدي إليها مبدأ المساواة. لاتبعد الناس عن مشكلات الحب والغرام لأنها لاتتيح لهم الوقت لينغمسوا فيها فحسب. بل لأنها تبعدهم عنها بطريقة أخرى خفية، ولكنها ناجعة مؤكدة. فكل الذين يعيشون في بلاد ديمقراطية يفكرون إلى حد كبير بالطرق التي تجرى عليها الطبقات الصناعية والتجارية في تفكيرها، ويتخذ تفكيرهم نجاحاً جدياً وإيجابياً، بحسب لكل شيء حسابه، إنهم قد يهجرون الاتجاه إلى النواحي المثالية عن رضى كمي يتجهوا إلى غرض مرئى قريب يبدو لهم أنه الغرض الطبيعي والضرورى لرغباتهم. وهكذا نرى أن مبدأ المساواة لا يقضى على التخيل، ولكنه يقيد ولا يسمح له أن يخلق في سماء الأوهام، بل يظل في تخليقه قريباً من الأرض.

لا يوجد أحد أقل اتجاهاً إلى أحلام اليقظة وإلى تلك التخيلات العائشة، من المواطنين

الذين يعيشون في البلاد الديمقراطية، فقليل منهم من عرفوا بالاستسلام إلى تلك التأمّلات الجوفاء إذا ما خلوا بأنفسهم، وهى تلك التأمّلات التى تسبق ميول القلب الكبرى عادة، وتؤدى إليها كذلك. وفى الحق أنهم يعلقون أهمية كبرى على ذلك النوع العميق من الحب المنتظم الهادى الذى يعد بهجة الحياة وخير ضمان لها، ولكنهم لا يميلون إلى السعى وراء تلك الانفعالات العنيفة المتقلبة التى تعكّر صفاء الحياة الزوجية وتقصّر آجالها.

إننى مدرك أن كل هذا لا يصدق تمام الصدق إلا على أمريكا وحدها، وأنه لا يتسنى تطبيقه بصورة عامة فى الوقت الحاضر على البلاد الأوربية فى جملتها. ففي الخمسين سنة الماضية كانت القوانين والعادات تدفع عدة أمم أوربية بعنف لم يعرف له مثل إلى الاتجاه نحو الديمقراطية، ولم يكن لدينا فرصة لإدراك أن علاقة الرجل بالمرأة قد أصبحت أكثر انتظاماً وأكثر عفة. بل إننا لنرى نقيض هذا تماماً فى بعض البلاد. فقد ازدادت بعض الطبقات فى تشدها وانتظامها، أما أخلاق الأمة فى جملتها، فقد ازدادت ضعفاً وترهلاً. ولست أتردد فى توكيد هذه الملاحظة لأنى لا أميل إلى أن أخدع معاصري وأمتلهمهم، ولا أنا بجيل إلى تسوى سمعتهم.

هذه لاشك حقيقة محزنة ولكنها يجب ألا تدهشنا. فلا يعدو التأثير الطيب الذى تحدّثه الحياة الديمقراطية للمجتمع فى العادات المرعية أن يكون اتجاهاً من الاتجاهات التى لا يتسنى اكتشافها إلا بعد فترة من الوقت. فإن كانت مساواة الناس تعاون على طهارة الأخلاق وعلى حسن تنظيمها، فالاضطرابات الاجتماعية التى تؤدى إلى مساواة هذه الأحوال ليست فى مصلحة هذه الطهارة فى شيء، بل ضدها... ففي الخمسين سنة الأخيرة التى كانت فيها فرنسا فى هذا الدور من التطور الاجتماعى ندر أن كان فيها حرية بل كان بها اضطرابات دائماً. ففي وسط الاضطراب العام للأفكار، وفى وسط هذه الاستتارة للآراء، وفى وسط هذا الخليط غير المنسجم من العدل والظلم، والصدق والكذب، والحق والباطل - صارت الفضيلة العامة موضع رية وتشكك، وصارت الأخلاق الشخصية مضطربة متذبذبة لاستقرار فيها. ولكن لا يخفى أن كل ثورة، أيا كانت أهدافها، ومهما كانت وسائلها، لابد مؤدية فى النهاية إلى مثل هذه العواقب، وحتى الثورات التى أدت آخر الأمر إلى توثيق عرى الأخلاق، كانت الأخلاق فيها فى البداية مفككة، فالخروج على الأخلاق والآداب الذى يشاهده الفرنسيون لا يبدو فى نظرى ذاصبغة دائمة، وتشير بعض علامم العصر إلى ذلك فعلاً.

ليس ثمة أفسد من أرستقراطية ظلت تحتفظ بثرواتها بعد أن زالت عنها قوتها وسلطانها، فبقيت تنعم بقسط كبير من أوقات الفراغ بعد أن صارت هذه الأوقات مجالاً للملاهى الجافية. فالأهواء المفعمة بالنشاط والمفاهيم العظيمة التى كانت تبعث الحياة فيها حتى الآن قد زالت، ولم يبق لها سوى طائفة كبيرة من الرذائل المهملّة، تتشبث بها وتتعلق كما تتعلق الديدان بالرم.

هذا وليس ثمة من ينكر أن أرستقراطية القرن الماضي الفرنسية كانت منحلة إلى أقصى الانحلال الخلقي، ومع ذلك فالعادات المقررة، والمعتقدات القديمة قد أبقت شيئاً من الاحترام للأخلاق بين طبقات المجتمع الأخرى. ولا ينكر أحد كذلك أن بقايا تلك الأرستقراطية نفسها، مازالت تبتدى في وقتنا الحاضر شيئاً من الاستمسك بالأخلاق الطيبة، على حين أن الأخلاق هذه نفسها قد أخذت تتدهور في الطبقات الوسطى والدنيا... فالأسر التي بلغت من الفساد أقصاه في الخمسين سنة الماضية قد زادت أخلاق الأرستقراطية متانة. فالثورة الفرنسية بتقسيمها ثروات البلاد - وبإجبار الأرستقراطيين على توجيه كل همهم باستمرار إلى شئونهم الخاصة، وإلى شئون أسرهم، وبإكراههم على أن يعيشوا مع أطفالهم تحت سقف واحد - وتوجيهها أفكارهم وجهة أقرب إلى العقل وأكثر رزانة وتوقراً... قد أوحى إليهم. من حيث لا يدرون، باحترام العقائد الدينية، وبحب النظام والملذات الهادئة، والمسرات العائلية، والسعادة، على حين أن بقية الأمة التي لها هذه الميول وتلك الأذواق نفسها بطبيعة الحال، قد اندفعت وراء الاضطرابات الخلقية بذلك الجهد نفسه الذي كان لازماً لقلب قوانين البلاد وعاداتها السياسية.

لقد عانت الأرستقراطية الفرنسية القديمة نتائج الثورة، ولكنها لم تستشعر تلك الأهواء الثورية، ولا هي شاركت في ذلك الاضطراب الفوضوي الذي أوجدها، فمن السهل علينا أن نتصور أن هذه الأرستقراطية قد شعرت بتأثير الثورة الطيب في آدابها العامة، قبل أن يشعر به أولئك الذين قاموا بها وأنجزوها.. ويصح لنا أن نقول، وإن كان قولاً يبدو في ظاهره متناقضاً، إن أشد طبقات الأمة عداوة للديمقراطية في الوقت الحاضر هم الذين يظهرون تلك الأخلاق التي يصح أن نتوقعها فعلاً من قيام الديمقراطية. هذا ولا يسعى إلا أن أعتقد أن ما لا يصدق الآن إلا على عدد قليل من الأفراد سيصدق تدريجياً على جميع أفراد المجتمع، بعد أن نكون قد حصلنا على كل نتائج الثورة الديمقراطية. وقد تخلصت (الثورة) من الاضطراب الذي أحدثته.

## الفصل الثاني عشر

# المساواة بين الجنسين في نظر الأمريكيين

أوضحنا من قبل أن الديمقراطية تقضى على ما يحدثه المجتمع بين الناس من ضروب التفاوت المختلفة، أو هي تعدلها على الأقل. ولكن هل هذا كل ما في الأمر؟ أم أنها ستؤثر في النهاية كذلك في هذا التفاوت العظيم الذي تشاهده بين الرجل والمرأة؛ والذي ظل حتى اليوم يبدو لنا أمراً تأصلت جذوره في الطبيعة البشرية، ورسخت فيها إلى الأبد؟ أعتقد أن التغيرات الاجتماعية التي تقرب الابن والأب من مستوى واحد، وتقرب كذلك بين السيد وتابعه، والتي تسوى على الجملة، بين الأقوى والأضعف - هذه التغيرات ترفع المرأة وتزيد بها كل يوم مساواة بالرجل. ولكنني أشعر هنا، أكثر مما شعرت في أي وقت آخر، بضرورة أن يكون قولي مفهوماً حق الفهم، فليس ثمة موضوع انطلقت فيه أخيلة عصرنا الخشنة الجامحة التي لا ضابط لها، بمثل انطلاقها في هذا الموضوع.

ففي أوروبا قوم يخلطون بين الخصائص المختلفة التي لكل جنس من الجنسين، فلا يكتفون بأن يجعلوا من الرجل والمرأة مخلوقين متساويين، بل يجعلونهما كذلك متماثلين، فجعلوا لكليهما نفس الوظائف، وفرضوا عليهما نفس الواجبات، وخولوا لهما نفس الحقوق، لقد خلطوا بينهما في كل شيء، في الحرف، وفي المسرات، وفي الأشغال. وليس يخفى أنهم بمحاولتهم العنيفة أن يجعلوا أحد الجنسين مساوياً للآخر قسراً، إنما يحطون من قدر كليهما. فخلط عمل الطبيعة على هذه الصورة المضحكة لا يؤدي إلا إلى خلق رجال ضعاف ونساء غير مستقيمات.

ولكن الأمريكيين لم يفهموا، على هذا النحو، ذلك النوع من المساواة الديمقراطية الذي يمكن أن يقوم بين الرجل والمرأة. فهم يسلمون بأن الطبيعة قد أوجدت فروقاً شاسعة بين طبيعتي الاثنين الجنسانية والأدبية، فهدفها الظاهر أن تستخدم قدراتها المختلفة في أعمال شتى، ويعتقدون أن التقدم لا يكون بجعل مخلوقات مختلفة هذا الاختلاف، تؤدي أعمالاً تكاد تكون واحدة، وإنما التقدم يجعل كل جنس منهما يؤدي عمله الخاص به على خير وجه مستطاع، فقد طبق الأمريكيون على الجنسين مبدأ الاقتصاد السياسي الهام، الذي يسيطر على رجال الصناعة في عصرنا الحاضر، وذلك أنهم حرصوا على فصل واجبات الرجل عن واجبات المرأة حتى يتسنى للمجتمع أن يؤدي عمله العظيم على خير وجه.

فلم يحرص بلد من بلاد العالم على أن يعنى، بمثل ما عنى الأمريكيون، برسم خطين متمايزين تمام التمايز لعمل الجنسين، فقد جعلوا الرجل والمرأة يسيران بخطى متساوية، ولكن في طريقتين مختلفتين على الدوام. فالأمريكيات لا يقمن أبداً بإدارة أى شىء من شئون الأسرة الخارجية، ولا أية عملية تجارية، ولا هن يشتركن في الحياة السياسية بشىء، ومن جهة أخرى، ليس ثمة أحد يجبرهن على القيام بالأعمال الحشنة في الحقول أو غيرها، ولا على بذل أى مجهود شاق يتطلب قوة جنائية. هذا، وليس في أمريكا أسر تبلغ من الفقر أن تشذ عن هذه القاعدة. فإن كانت المرأة الأمريكية لا تستطيع أن تخرج من نطاق أعمالها المنزلية الهادئة، فهي من جهة أخرى، غير مضطرة ألبتة إلى العمل في غيرها. ومن ثم كانت الأمريكيات اللواتي كثيراً ما يبدن قدرة على حسن الفهم والإدراك لا تقل عن قدرة الرجال، وهمة مثل همتهن، يحفظن عادة بأنوثتهن وبرقة مظهرهن، وبآداب المرأة، وحسن سلوكها، على الرغم مما يبدن أحياناً أن هن قلوباً وعقولاً مثل عقول الرجال وقلوبهم.

لم يحدث قط أن افترض الأمريكيون أن المبادئ الديمقراطية تتطلب قلب أوضاع السلطة الزوجية. أو إحداث أى اضطراب في سلطات الأسرة. فهم يعتقدون أن كل جماعة لا بد لها من رئيس كى تحقق أغراضها. وأن الرجل هو الرئيس الطبيعي في مجتمع الأسرة. فهم لا ينكرون إذن على الرجل حقه في توجيه شريكه حياته. ويعتقدون أن هدف الديمقراطية في تلك الجماعة الصغرى التي تتكون من الزوج والزوجة. وكذلك في الجماعة الكبرى السياسية - المجتمع - لا يعدو تنظيم السلطات الضرورية. وجعلها مشروعة. لا أن تهدم كل سلطة قائمة.

وليس هذا الرأي خاصاً بأحد الجنسين وينازعه فيه الآخر. فلم يحدث أبداً أن لاحظت أن النساء في أمريكا يعتبرن السلطة الزوجية حقاً من حقوقهن اغتصبه الأزواج منهن، أو يعتبرن أنفسهن قد انحططن بخضوعهن لها. بل استبان لي. على العكس من ذلك. أنهن يفخرن بأن نزلن طامعات مختارات عن إرادتهن. وارتضين أن يضعن النير على عواتقهن، لأن يخلعنه عنها، ذلك هو. على الأقل. الشعور الذي تعبر عنه خير فضليات نسائهن، أما سائرهن فيلتزم الصمت. وليس من عادة المرأة الخاطئة في الولايات المتحدة أن تطالب بحقوق المرأة، في الوقت الذي تدوس فيه بقدمها أقدس واجباتها.

وكثيراً ما لوحظ في أوروبا أن شيئاً من الاحترار يكمن حتى في عبارات النساء والملق التي يغدقها الرجال على النساء، ومع أن الأوربي كثيراً ما يتظاهر بأنه عبد للمرأة. فهو بعيد كل البعد عن أن يكون مخلصاً في اعتقاده أنها مساوية له. أما في الولايات المتحدة فيندر أن يشي الرجال على النساء؛ ولكنهم يظهرهن هن كل يوم أنهم يقدرونهن حق قدرهن. ويدون دائماً ثقة كاملة بقدرة الزوجة على حسن الفهم والإدراك. كما يدون احتراماً عميقاً لحريتها، فهم يعترفون بأن عقلها لا يقل عن عقل الرجل قدرة على تعرف

الحقيقة، وأن قلبها ثابت على الاستمساك بها ثبات الرجل، ولم يسعوا قط وراء أن يضعوا فضائل أحد الجنسين في مستوى دون مستوى فضائل الجنس الآخر، تحت ستار التحيز والجهل والجهل .

ويبدو أن النساء في أوروبا، حيث يخضع الرجل في سهولة لحكمهن الاستبدادي، قد حرمن بعض تلك الصفات التي تعد من أجل ما يتميز بها الجنس البشري، وأنهن يعتبرن فائتات مغريات، وإن كن مع ذلك مخلوقات ناقصات، ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أنهن ينظرن بأنفة إلى أنفسهن على هذا الضوء نفسه، ويكدن يعددنها ميزة اختصاص بها، أن يظهرن بمظهر الشخص الهياب التافه الضعيف، على حين أن الأمريكيات لا يطالبن لأنفسهن بشيء من ذلك ألبتة .

وقد يقال من جهة أخرى، إن الأوروبيين قد رخصوا للرجل في ميدان الأخلاق بنوع عجيب من الحصانة، تنجيه من العقاب، حتى كأن ثمة فضيلة لاستعماله الخاص، وأخرى لإرشاد زوجته وتوجيهها، وأنه صار بحسب الرأي العام، يعاقب على الذنب الواحد بمعيارين مختلفين. فتارة يعد الذنب جريمة ؛ وأخرى يعده هو نفسه مجرد غلطة، أما الأمريكيون فلا يعرفون مثل هذا التقسيم الجائر للحقوق والواجبات، فعندهم أن من يفرى فتاة يلحقه العار نفسه الذي يلحق ضحيته .

صحيح أن الأمريكيين قلما يوجهون إلى النساء عندهم عبارات الثناء والملق الحارة التي يلذ للأوروبيين أن يوجهوها إلى نساتهم، ولكن سلوك الأمريكيين إزاء المرأة يتضمن دائماً أنهم يعدونها فاضلة، مهذبة، وقد بلغ من احترامهم لحرمتها الأخلاقية أن صاروا يحرصون كل الحرص على تخير الألفاظ التي يستعملونها في حضرة النساء خشية أن تفلت من أحدهم لفظة قد تجرح آذانهم، وفي أمريكا يسمح للشابة غير المتزوجة أن تقوم بأية رحلة طويلة وحدها من غير أن يساور ذويها أى خوف عليها .

لقد خفف المشرعون في الولايات المتحدة معظم العقوبات المقررة في قوانينهم الجنائية، ولكنهم مع ذلك اعتبروا جريمة اغتصاب العرض جريمة كبرى، فليس ثمة جريمة يعاقب عليها الرأي العام بقوة، أشد مما يعاقب على هذه الجريمة . وليس ثمة أية صعوبة في تعليل ذلك، فالأمريكي لا يتصور شيئاً أثنى من شرف المرأة، وأن لا شيء يجب أن يحترم مثل استقلالها، فلا غرو أن اعتقد الأمريكيون أنه لا يوجد عقاب، مهما بلغت قوته، يمكن أن يكفر عن جريمة الرجل الذي يسلبها إياها بالغضب والإكراه، على حين أن فرنسا، حيث العقاب على الجريمة نفسها أخف جداً مما في أمريكا، كثيراً ما يكون من الصعوبة بمكان الحصول من الخلفين على حكم يدين المتهم، فهل جاء هذا نتيجة احتقار للياقة والآداب، أم جاء نتيجة احتقار للمرأة نفسها؟ أنا لا يسعنى إلا أن أرى أنه جاء نتيجة الأمرين كليهما . وهكذا يرى الأمريكيون أن ليس من حق الرجل والمرأة، ولا هو من واجبهما ،

أن يؤديا نفس الأعمال ، ولكنهم مع ذلك يبدون الاحترام والاعتبار للدور الذي يقوم به كل منهما ، فمع أنهم يرون أن حظهما مختلف ، فهم يعدون الاثنين متساوين في القيمة . إنهم لا يجعلون لشجاعة المرأة نفس الشكل . ولا نفس الاتجاه ، اللذين يجعلونهما لشجاعة الرجل ، ولكنهم لا يساورهم أى شك في شجاعة المرأة ، وإن هم اعتقدوا أن ليس للرجل وشريكته أن يمارسا عقليهما دائماً بطريقة واحدة ، فهم يعتقدون ، على الأقل ؛ أن قدرة المرأة العقلية سليمة سلامة قدرة الرجل ، وأن ذهنها لا يقل صفاء عن ذهنه ، ومع أنهم سمحوا بأن تظل النساء قاصرات من الوجهة الاجتماعية عن الرجل . فقد بذلوا كل جهد مستطاع لينهضوا بهن أخلاقياً وعقلياً ، حتى يبلغوا بهن مستوى الرجال ، وهم في نظري ، من هذه الناحية ؛ قد فهموا حق الفهم فكرة التقدم الديمقراطي على وجهها الصحيح .

لست أخشى أن أعترف بأنى لأعرف بلداً آخر تحتل فيه المرأة مكانة أسمى مما تحتلها في الولايات المتحدة ، وذلك على الرغم من أنهن مقصورات على دائرة الحياة المنزلية الضيقة ، ومن أنهن بعيدات ، من بعض الوجوه كل البعد عن الاستقلال . فلو أنى سئلت ، وأنا على وشك الفراغ من الكتاب الذى ذكرت فيه كثيراً مما أنجزه الأمريكيون من جلائل الأعمال ، عن أهم سبب يجب أن يعزى إليه ازدهارهم الفذ . وقوتهم المتزايدة ، لأجبت بأن هذا السبب لا يعدو تفوق نساؤهم .

## الفصل الثالث عشر

# مبدأ المساواة قسم الأمريكيين جماعات كثيرة صغيرة خاصة

قد يتوهم المرء أن النتيجة الضرورية النهائية التي تؤدي إليها المؤسسات الديمقراطية، هي التسوية بين أعضاء الجماعة في حياتهم الخاصة، كما تسوى بينهم في الحياة العامة، وتجبرهم جميعاً على أن يعيشوا عيشة واحدة مشتركة، ولكن معنى هذا أنا فهمنا المساواة التي تستحدثها الديمقراطية على نحو جاف غليظ وظالم كل الظلم. فليس ثمة حالة من حالات المجتمع، أو من القوانين تستطيع أن تجعل الناس متشابهين كل التشابه، لدرجة لا يستطيع معها التعليم ولا الثروة ولا الذوق أن تخلق فيهم فروقاً تجعلهم يختلفون بعضهم عن بعض، هذا، ومع أن الناس المختلفين قد يرون من مصلحتهم أن يتجمعوا لتحقيق أغراض معينة واحدة، فإنهم لن يجدوا فيها مصدر مسرة لهم ومتعة. ومن ثم صاروا يتجهون دائماً إلى تحاشي القوانين أياً كانت، ويتخلصون بطريق ما من ذلك النطاق الذي حاول المشترع أن يصرهم فيه، وذلك بأن يقيموا إلى جانب الجماعة السياسية الكبرى جماعات أخرى صغيرة خاصة على أساس من تشابه الأحوال والعرف والعادات.

فجميع المواطنين في الولايات المتحدة سواسية، ليس لأحد منهم أى نوع من السيادة على الآخر. فهم لا يدينون بالطاعة ولا بالاحترام لبعضهم البعض. فكلهم يشتركون في توزيع العدالة بين الناس، وللنظر في شئون حكم الولاية. وعلى الجملة، فإنهم يجتمعون ليعالجوا المسائل التي تتصل بالمصلحة العامة وسعادة المجموع، فلم أسمع قط بأن محاولات بذلت لحملهم على أن يتبعوا في هههم طريقة واحدة، أو أن يترددوا على محلات اللهو ذاتها بشكل مضطرب صاحب لا نظام فيه.

فهؤلاء الأمريكيون الذين يسارعون إلى قاعات المجالس السياسية، وإلى دور المحاكم يحرصون على أن يتوزعوا فئات صغاراً متميزة كل التمايز، كى تستمتع كل فئة بملاذ الحياة الخاصة ومتعتها، فليس من يتردد في أن يعترف بأن جميع مواطنيه مساوون له. ومع ذلك فلا تراه يستقبل في بيته سوى عدد قليل من الناس، أصدقاء كانوا أو ضيوفاً. وهذا أمر طبيعي في نظري، فكلما اتسعت دائرة المجتمع الكبير يجب أن تنوقع أن يضيق مجال اتصال

الناس الشخصى سضهم بعض ، إنى لأبعد الناس عن أن أظن أن أعضاء المجتمع الحديث سينتهى أمرهم إلى أن يعيشوا معاً عيشة مشتركة ، ولكن أخوف ما أخاف عليهم أن لا يكونوا في النهاية سوى دوائر اجتماعية صغيرة ، فحسب .

فما أشبه الطبقات المختلفة ، في البلاد الأرستقراطية بدوائر مغلقة واسعة كل السعة ؛ يتعذر الخروج منها ، ويستحيل دخولها . ذلك إلى أن هذه الطبقات لا يتصل بعضها ببعض ، أما داخلها فالناس على اتصال كل يوم ، فعلى الرغم من أنهم لا يتلاءمون بالطبع ، فتشابه أحوالهم الاجتماعية العام يقر بهم بعضهم من بعض كل التقريب .

ولكن إذا لم يقم القانون ولا العرف بالعمل على إيجاد علاقات عادية وكثيرة الحدوث ، بين ناس معينين ، فاتصاهم بعضهم ببعض ينشأ من التشابه العرضى في الأفكار والميول ، مما يؤدي إلى تنوع الجماعات الخاصة تنوعاً لاحد له . ففي الديمقراطيات ، حيث المواطنون لا يتباينون أبداً بعضهم عن بعض تبايناً كبيراً ، بل يجدون أنفسهم بطبيعة الحال قريين بعضهم من بعض كل القرب ، حتى ليتيسر إدماجهم جميعاً في كتلة عاملة واحدة في أى وقت من الأوقات ، تظهر بينهم فروق كثيرة اصطناعية وتحكمية ، تجعل كل إنسان يأمل أن يبقى بعيداً حتى لا يجرفه تيار الجماعة على كرهه منه .

وهذا لا يمكن أن يكون إلا كذلك . فالمؤسسات البشرية يمكن تغييرها ، أما الإنسان فلا ، ومهما بذلت جماعة ما من جهود عامة لجعل أعضائها متساوين ، فإن كبرياء الأفراد الشخصية تجعلهم يعملون على الإفلات من المستوى العام ، ويكونون في ناحية ما تفاوتاً خاصاً يكون فيه فائدة لهم .

أما في البلاد الأرستقراطية فالناس منفصلون بعضهم عن بعض بجواجز ثابتة ، على حين لا يفصلهم في البلاد الديمقراطية سوى خيوط متعددة صغيرة تكاد لا ترى ، تنقص باستمرار ، وتنتقل مواضعها بغير انقطاع ، فمهما تقدم مبدأ المساواة ، فإن عدداً كبيراً من الجماعات الصغيرة الخاصة ، لا بد أن يظهر دائماً وسط المجتمع الكبير ، ولكن لن تشبه واحدة منها ، من حيث ما فيها من آداب السلوك ، الطبقة العليا في البلاد الأرستقراطية .

## الفصل الرابع عشر

# آراء في آداب الأمريكيين

لا شيء يبدو قليل الأهمية لأول وهلة مثل تلك الأشكال الخارجية التي يتجلى فيها سلوك الإنسان؛ ومع ذلك فليس ثمة شيء يغالى المرء بقيمته مثلما يغالى بهذه الأشكال ذاتها، ففي استطاع الناس أن يعتادوا كل شيء إلا المعيشة في مجتمع ليس فيه من الآداب والعادات ما يشبه ما اعتادوه منها في بلادهم، فتأثير أحوال البلاد الاجتماعية والسياسية في عادات الناس الأخلاقية جدير إذن ببحث جدى .

تنشأ آداب السلوك بوجه عام من صميم أصول الأخلاق، وإن كانت قد تنشأ أحياناً نتيجة عرف تحكّمى قام بين فئة من الناس، فهي طبيعية من جهة، ومكتسبة من جهة أخرى .

ف عندما يستشعر بعض الأشخاص أنهم أنه من في المجتمع ذكراً، وأوجههم فيه غير متنازعين؛ وعندما يكونون مشغولين دائماً بالعمل على تحقيق أغراض جسام تاركين التفاصيل الصغيرة لغيرهم، وعندما يعيشون مستمتعين بثروة لم يتعبوا في جمعها، ولا هم يخافون عليها من الضياع - عند ذلك كله يجوز لنا أن نفترض أنهم يشعرون بشيء من الازدراء للمصالح الصغرى، ولهموم الحياة المادية العملية، وأن أفكارهم لتتخذ صيغة عظيمة طبيعية تكشف عنها عباراتهم التي يستعملونها في حديثهم، وفيما يراعونه في سلوكهم مع الناس من آداب، أما في البلاد الديمقراطية فالآداب المرعية خالية عادة من التوقر والاستعلاء، فالحياة الخاصة ضئيلة في هذه البلاد كل الضائلة، وكثيراً ما تكون وضعية كل الضعة، فليس لدى عقل الإنسان سوى فرص قللت ليرتفع فيها عن التفكير في هموم المنزل، وشئون تدبير العيش التي تستغرق كل جهوده .

ويتلخص الوفاق الصحيح في آداب السلوك، في أن يراعى المرء باستمرار مكانته الواجبة له، فلا يعلو عنها كثيراً ولا يهبط دونها كثيراً كذلك، وهذا أمر في تناول الفلاح الساذج بقدر ما هو في تناول «الأمير». فكل المراكز في البلاد الديمقراطية تبدو أموراً مشكوكاً كل الشك في بقائها، ومن ثم كانت الآداب في تلك البلاد خالية عادة من صبغة الوفاق والكرامة. وإن كانت كثيراً ما تبدو خشنة جافية، وزيادة على ذلك فهي إما لم تنظم التنظيم الصحيح، وإما أنها لم تشذب ولم تصقل .

فسكان البلاد الديمقراطية متقبلون متذبذبون لدرجة لا تستطيع معها طائفة منهم أن تنجح في وضع نظام خاص لآداب اللياقة والسلوك وإجبار الناس على الأخذ به، بل كل شخص يسلك المسلك الذى يحلو له . ومن ثم فهم في مثل ذلك العصر الديمقراطى شيء من النشاز وعدم التماسق في آداب السلوك . لأن هذه الآداب إنما قامت بحسب مشاعر كل فرد وحده، بدلاً من أن تقام على غرار نموذج أعلى يوضع مثلاً ليختديه الجمهور، ومع ذلك فهذا يتجلى واضحاً كل الوضوح عقب القضاء على أرسطراطية، أكثر منه بعد مضى زمن طويل على زوالها، وعندئذ تقوم المؤسسات السياسية الجديدة والعادات الأخلاقية الجديدة وتتصافر على جمع عدد من الناس من لا يزالون مختلفين كل الاختلاف من حيث التعليم والعادات ليعيشوا معاً في بقعة واحدة. بل كثيراً ما تجبرهم على ذلك إجباراً مما يؤدي إلى جعل المجتمع مكوناً من خليط من الناس، لانسجام بينهم؛ وهؤلاء الناس لا يزالون يتذكرون قانوناً صارماً للآداب كان قائماً بينهم في يوم من الأيام . أما محتويات هذا القانون أو مكان وجوده فقد غابت في زوايا النسيان . لقد أضاع الناس قانون الآداب والسلوك هذا المشترك بينهم . ومع ذلك لم تنعقد نياتهم على الاستغناء عنه، بل صار كل امرئ منهم يحاول أن يضع لنفسه قاعدة تحكيمية متغيرة يقتبسها من رواسب التقليد السابقة ومخلفاته، فلا غرو إن لم يعد في آداب السلوك ذلك الاتساق الذى يظهر عادة بين الأمم الأرسطراطية، ولا تلك البساطة والحرية اللتان كانتا لها أحياناً في البلاد الديمقراطية . لقد صاروا مقيدين وغير مقيدين في وقت واحد .

ومع ذلك كله فليست هذه هي الحالة السوية المعتادة، فعندما تكون المساواة في الأحوال الاجتماعية قد اكتملت . ورسخت قواعدها من زمن طويل؛ وعندما يستمسك جميع الناس بأفكار تكاد تكون واحدة. ويؤدون نفس الأشياء، أو يكادون، لا يكونون بحاجة إلى الاتفاق بعضهم مع بعض، فأدابهم في السلوك تتسم باستمرار بعدة اختلافات صغرى، ولكن ليس بينها أى فروق شاسعة، فلن يكونوا أبداً متشابهين تمام التشابه، لأنهم لا يتبعون في سلوكهم خطة مرسومة معينة، ولن يكونوا أبداً مختلفين كل الاختلاف، لأن أحوالهم الاجتماعية واحدة. ولعل سائحاً يقول لأول وهلة إن آداب السلوك عند الأمريكيين واحدة تماماً، ولكن سرعان ما يتبين له بقليل من البحث والتعمق الخصائص التى فيها يتباينون .

يتندر الإنجليز على آداب السلوك عند الأمريكيين، ولكن من الغريب أن غالبية الكتاب الذين رسموا لنا هذه الصورة المضحكة، هم أنفسهم من أفراد تلك الطبقة المتوسطة في إنجلترا، الذين تصدق عليهم هذه الصورة نفسها تماماً، وتطبق عليهم تمام الانطباق، فهؤلاء الناقدون الذين لارحمة في قلوبهم . إنما يعرضون علينا عادة مثلاً من الشيء ذاته الذى يعنونه على أهالى الولايات المتحدة . لقد فاتهم أنهم بذلك إنما يسخرون من أنفسهم سخرية، قد يكون فيها مجال لتسلية كبرى للأرسطراطيين في بلادهم هم .

ليس أضر بالبلاد الديمقراطية من مظاهر الناس فيها ، فكثيرون هم الذين يرضون أن يتحملوا رذائلها ولا يستطيعون أن يستسيغوا آداب السلوك التي تتجلى فيها . ومع ذلك فليس في وسعي أن أسلم أبداً بأنه لا يوجد شيء جدير بالثناء في آداب الشعب الديمقراطي .

أما في الشعوب الأرستقراطية فكل من عاش على مقربة من أسمی الطبقات الاجتماعية فيها يبذل جهده في محاكاتها ، مما يؤدي بطبيعة الحال إلى ضروب من المحاكاة مسيخة تستثير الضحك . وإذ ليس لدى الشعوب الديمقراطية مثال لآداب السلوك الرفيعة التي تنبئ عن حسن التهذيب ، فقد أعفوا على الأقل من ضرورة أن يروا كل يوم صوراً سخيفة تعسة منها . فآداب السلوك لا تكون أبداً في البلاد الديمقراطية مهذبة ولا مصقولة كل الصقل ، مثلما تكون في البلاد الأرستقراطية ، ولكنها مع ذلك ليست بالغليظة الجافية . فإنك لا تسمع فيها تلك الألفاظ الخشنة التي تسمعها من الدهماء ، ولا تلك العبارات الرشيقة المنتقاة التي تجرى على ألسنة النبلاء ، فكثيراً ما تكون آداب السلوك عند هذا الشعب فظة جافية . ولكنها ليست أبداً بالحوشية ولا بالوضيعة .

أشرت من قبل إلى أنه يتعذر أن يتكون شيء في البلاد الديمقراطية اسمه نظام مقرر لآداب السلوك واللياقة ، ولهذا محاسنه ومساوئه . فقواعد اللياقة في البلاد الأرستقراطية تفرض سلوكاً واحداً معيماً على كل فرد في البلاد ، وبذلك تجعل كل أعضاء الطبقة الواحدة يبدون متشابهين على الرغم من اختلاف ميولهم الخاصة ، فهي تجعل الإنسان الطبيعي وتزيينه . ولكنها تخفيه عن العيون في الوقت الواحد ، أما في البلاد الديمقراطية فليست الآداب العامة مما يدرّب عليه الناس ، ولا هي موحدة كل التوحيد ، ولكنها أكثر اتساماً بالإخلاص عادة ، فما أشبهها بغشاء رقيق مهلهل النسج تبدو منه مشاعر المرء الحقيقية وآراؤه الخاصة ، على نحو يسهل تمييزه عن غيره من الناس . فشكل أفعال الإنسان وجوهرها كثيراً ما يكونان هنا متصلين أوثق اتصال ، فإن كانت صورة الحياة الإنسانية الكبرى العامة تبدو في هذه البلاد الديمقراطية أقل جمالاً وروعة ، فهي على الأقل أكثر صدقاً ، ومن ثم حق لنا أن نقول ، بمعنى ما ، أن ليس من تأثير الديمقراطية أن تجعل للناس أي آداب معينة خاصة بالسلوك ، بل إن تأثيرها في أنها تمتع هذه البلاد من أن يكون لها أي آداب مقررّة مطلقاً .

فما في البلاد الأرستقراطية من وجدانات وعواطف ورذائل قد يشاهد أحياناً في البلاد الديمقراطية ، أما آداب اللياقة فيها فلا . فقد ضاعت وزالت إلى غير رجعة بعد اكتمال الثورة الديمقراطية . هذا ، وقد يخيل إلينا أن لاشيء أدم من تلك الآداب الأرستقراطية ولا أثبت منها ، لأن هذه الطبقة تظل تحافظ عليها فترة من الزمن بعد ما زالت عنها ثروتها وجاهاها ، كما يخيل إلينا ، من جهة أخرى ، أن لاشيء أسرع إلى الزوال من هذه

الآداب نفسها، لأنها إما أن تختفى حتى لا تجد لها أثراً، ويكاد يكون مستحيلاً علينا أن نعرف ماذا كانت هذه الآداب، بعد اختفائها، فالذى حقق هذه المعجزة هو حدوث تغيير في حالة المجتمع؛ وحسبنا بضعة أجيال تمر حتى تم. إن سمات الأرسقراطية الرئيسية تظل بعد زوالها محفورة في صحائف التاريخ؛ أما رشاقة آدابها ورقتها فتمحى من ذاكرة الإنسان عقب زوال الأرسقراطية مباشرة، ولا يستطيع الناس أن يتصوروا ما كانته هذه الآداب بعد أن لم يعودوا يشاهدونها، لقد ذهبت وكان ذهاباً لم يره أحد، ولم يشعر به أحد. فكيف يستشعر الإنسان ذلك السرور الرفيع المستمد من الآداب المصقولة المنتقاة، يجب أن تكون العادة والتربية قد دربتا قلبه على حبها من قبل؛ فتذوق هذه الآداب يزول بانقطاع الناس عن ممارستها. وهكذا ترى الشعب الديمقراطى لا يمكن أن تكون له آداب سلوك أرسقراطية، بل إنه لا يستطيع أن يدركها ولا أن يرغب فيها، وإذ لم يفكر فيها، فقد يخيل إليه أن هذه الأشياء، وأمثالها لم تكن قط. ومع ذلك فلا ينبغي أن نجعل لهذه الحسارة أهمية أكثر مما يجب لها، وإن كانت مما يؤسف عليه حقاً.

ولا يفوتنى أنه كثيراً ما يحدث أن يجمع بعض الناس بين الآداب العامة الراقية كل الرق، وبين المشاعر الوضيعة كل الضعة، فحسبى أن أشير إلى أن ما يجرى داخل بلاطات الملوك، وبين ظهراى رجال حاشياتهم، قد برهن بما فيه مقنع على أن هذه المظاهر الرائعة قد تخفى وراءها قلوباً دينية مريضة. ومع ذلك فإن لم تكن آداب الأرسقراطيين من الفضيلة فى شىء، فإنها قد تزين الفضيلة نفسها فى بعض الأحيان، فليس من المناظر العادية المألوفة أن نرى طبقة قوية من الناس، عديد أفرادها، يبدو ظاهر كل عمل من أعمالها أنه جاء نتيجة تفكير سام، ووجدان رفيع، وذوق رقيق منسجم، وآداب من آداب الحضرة. فهذه الآداب الأرسقراطية تضى على الطبيعة البشرية روعة سارة خداعة؛ فإن كانت الصورة كثيراً ما تبدو زائفة خداعة، فلا يسع المرء منا إلا أن ينظر إليها بارتياح كريم.

## الفصل الخامس عشر

# رزانة الأمريكيين لا تمنعهم من أن يأتوا كثيراً بأفعال فيها تهور واندفاع

لا يستطيع الناس في البلاد الديمقراطية أن يقدروا قيمة تلك الملهى الساذجة، الصاخبة منها والخشنة، التي ينهمك فيها أهل البلاد الأرستقراطية، وذلك لأنهم يعدون أمثال تلك الملهى صيانية أو مسيخة تافهة. ولا هم يميلون كثيراً إلى الملذات العقلية الرفيعة التي تعنى بها الطبقات الأرستقراطية، لأنهم لا يسعون إلا وراء كل شيء مادي منتج، ومن ثم صاروا يخلطون ملاهيمهم ومسراتهم بما يدر عليهم الربح فعلاً.

أما في البلاد الأرستقراطية فيهرع الناس إلى الاندفاع في المسرات الصاخبة الكثيرة الجلبة، مما ينسبهم في الحال التفكير فيما يعانونه من هموم، على حين يعز على سكان البلاد الديمقراطية أن ينتزعوا هكذا من أنفسهم بصورة عنيفة؛ فهم لا ينسون تماماً الانشغال بشئون أعمالهم، وإن فعلوا ففي ندم وتحسر، فبدلاً من تلك المباحج العابثة، يؤثرون الملهى ذات الطابع الجدى التي تكون أقرب إلى الشغل منها إلى اللعب واللهو، ولا تطرد فكرة العمل من عقولهم طرداً تاماً.

فبدلاً من أن يذهب الأمريكي في ساعة فراغه يمرح ويرقص في ملهى عام، كما يفعل أمثاله من أبناء مهنته في معظم البلاد الأوروبية، تراه يجلس نفسه في بيته ليتناول ما شاء من خمر، وبذلك يستمتع بمسرتين معاً: بمسرة الاستمرار في التفكير في أشغاله، ومسرة احتساء النبيذ في غير عربة، وهو جالس في بيته وبين أهله وذويه.

كنت أعتقد أن الإنجليز أكثر أم الأرض جدلاً وتزمتاً، ولكنى غيرت رأى فيهم بعد أن خبرت الأمريكيين، ولست أريد بذلك أن أقول أن ليس للمزاج نصيب كبير في تشكيل أخلاق السكان في الولايات المتحدة، بل أرى أن مؤسساتهم السياسية ما زالت لها اليد الطولى في تكوين تلك الأخلاق.

ومن رأى أن جزءاً من جدية الأمريكيين هذه يرجع إلى كبريائهم، فعند الناس

في البلاد الديمقراطية ، حتى الفقراء منهم ، فكرة عالية عن أهميتهم الشخصية ، فتراهم ينظرون إلى أنفسهم راضين مغتبطين حتى ليظنوا أن الناس ينظرون إليهم على أنهم كذلك حقاً ، ومن ثم حرصوا على مراقبة أنفسهم في كل ما يعملون وفي كل ما يقولون في أحاديثهم ؛ فهم ليسوا صرحاء الصراحة التي قد تكشف عما فيهم من نقائص ، ولذا خيل لهم أن الامتصاص من أن يستمسكوا بالوقار والرزانة كي يصونوا كرامتهم .

ولكن ثمة سبب آخر أقوى من هذا وأعمق ، يدفع الأمريكيين على نحو فطري إلى أن يتشبثوا بتلك الرزانة التي تبعث في نفوسنا الدهشة . فالمعروف أن الجماعة ، عندما يحكمها طاغية مستبد ، قد تستسلم في بعض الأحيان إلى الاندفاع في الملذات العنيفة ، ولكنهم مع ذلك تغشاهم الكتابة والانقباض من جراء خوفهم من أن يطش بهم هذا الطاغية المسيطر عليهم . أما في الملكيات المطلقة حيث عادات البلاد وآدابها تعدل من أمزجة الناس ، فكثيراً ما نجدهم مرحين ومتزينين معاً ، ذلك لأنهم ، بما ينعمون به من بعض الحرية ، والكثير من الاطمئنان على أنفسهم ، قد أصبحوا معفون من أهم متاعب الحياة ، ولكن جميع الأمم الحرة تسم بالجديّة والوقار لأن عقولهم تكون عادة مشغولة بالتفكير في أمر خطير ، أو عسير المنال . ويتجلى هذا بشكل خاص في تلك الأمم الحرة المنظمة على أساس ديمقراطي ؛ ففي طبقة من طبقاتها عدد كبير من الناس المشغولين باستمرار بشئون الحكم ومشكلاته ، وهي لا تكون شئنا جدية خطيرة الشأن . أما الذين لا تشغل هذه الامور العامة افكارهم فمنهمكون في العمل على زيادة ما عندهم من ثروة خاصة ، ففي مثل هذا الشعب لا تكون الرزانة إذن خاصية من خصائص بعض الناس فحسب . بل عادة قومية من عادات الشعب بأسره .

سمعنا عن ديمقراطيات صغار قامت في العصور القديمة . كان المواطنون فيها يجتمعون في الميادين العامة ، وعليهم أكاليل من الورد ، ويقضون معظم أوقاتهم في الرقص ومشاهدة المسرحيات . ولكني لا أومن بأمثال هذه الجمهوريات ، كما لا أومن بجمهورية أفلاطون . فإن كان ما قرأناه عنها هنا قد حدث فعلاً ، فلا يسعني إلا أن أؤكد أنها كانت تتكون من عناصر مختلفة كل الاختلاف عما تتكون منها ديمقراطيتنا ، وأن ليس بينهما شيء مشترك سوى الاسم وحده .

ومع ذلك يجب ألا يتوهمن أحد أن الناس الذين يعيشون في البلاد الديمقراطية يظنون أنفسهم ، وهم وسط أشغالهم وهمومهم ، جديرين بالشفقة والعطف ، بل العكس هو الصحيح . فليس ثمة ناس مغرمون بحالتهم التي هم عليها أكثر منهم . فالحياة لامذاق لها عندهم إن هم أعفوا من ضروب القلق التي ترعجهم وتقض مضاجعهم ، فهم يتعلقون بهمومهم ومتاعبهم أكثر مما تتعلق الأمم الأرستقراطية بملذاتها .

وإني لأتساءل بعد ، كيف جاز لهذه الأمم الديمقراطية ، على ما بها من جدية ، أن تسلك في بعض الأحيان سلوكاً كله تهور واندفاع ؟ إن الأمريكيين الذين يحرصون عادة على مراعاة التوقر في سلوكهم ، وعلى الظهور بمظهر الحليم كثيراً ما يسمحون لأنفسهم بأن تحرفهم نشوة غامضة مفاجئة ، أو رأى خطير ، بعيداً عن حدود المعقول ، وقد يرتكبون في بعض الأحوال سخافات عجيبة - يرتكبونها في رزانة وفي توقر كذلك .

فيجب ألا يستتير هذا التناقض أية دهشة فينا ، فثم نوع من الجهل ينشأ من الإفراط في حب الإعلان عن النفس ، فالناس في الأمم الاستبدادية لا يعرفون كيف يسلكون فيما يعملون ، لأنهم لا يجدون من يرشدهم ؛ على حين أنهم في البلاد الديمقراطية يتخبطون فيما يعملون ، لأنه لم يترك لهم شيء دون أن يحاطوا به علماً ؛ فالأولون لا يدرون ، والآخرون ينسون ، وبذلك تضيع المعالم الرئيسية لكل من الصورتين في زحمة ما فيهما من تفصيلات .

إن المرء ليدهش حقاً من العبارات الخرقاء البعيدة عن الكياسة التي قد يصطنعها رجل نصب نفسه للخدمة العامة في البلاد الحرة ، ولا سيما الديمقراطية منها ، من غير أن يضار بذلك في سمعته ، على حين أن أخاه في البلاد الملكية المطلقة قد تفلت منه بضع كلمات تجرى على لسانه عرضاً فتكون عاراً عليه يلازمه إلى الأبد ؛ وقد تورده مورد التهلكة من غير أن يكون له أمل في الإنابة واسترداد الاعتبار . وتفسير هذا فيما سبق أن ذكرته من قبل . فعندما يتحدث الرجل إلى جمهور كبير من الناس يذهب الكثير من عباراته دون أن يسمع ، أو أنه سرعان ما ينمحي من ذاكرة من يكون قد سمعه ؛ أما في وسط جمهور مصغ صامت فأقل همسة تصك الأسماع .

ولا يخفى أن الناس في البلاد الديمقراطية أبعد من أن يكونوا جامدين لا يتحركون ، فأمامهم ظروف وفرص لا تحصى تدفعهم باستمرار إلى مراكزهم وحظوظهم . هذا ، وإن حياتهم لتجرى دائماً في ظروف غير منظورة ، أو في أحوال مرتجلة ارتجالاً ، إن جاز لنا مثل هذا التعبير ؛ فلا غرو أن وجدناهم كثيراً ما يضطرون إلى القيام بعمل أشياء لم يحسبوا تعلمها ، أو إلى أن يذكروا أموراً لم يفهموها حق الفهم ، وأن يكرسوا أنفسهم لأعمال لم يستعدوا لها من قبل الاستعداد الكافي لأن يتدربوا عليه طويلاً ، أما في البلاد الأرستقراطية ، فلكل إنسان غرض واحد يظل يدأب ويتابر عليه ويسعى وراءه سعياً متصلاً ، أما الحياة في البلاد الديمقراطية فأكثر تعقداً ، وعقل المرء فيها معنى دائماً بعدة أغراض في آن واحد ، وهي أغراض كثيراً ما تكون بعيدة بعضها عن بعض كل البعد ، وإذا كان لا يستطيع أن يدركها كلها الإدراك الصحيح ، اجتزأ بفكرة عنها ناقصة كل النقص .

إن لم يكن المواطن في البلاد الديمقراطية مدفوعاً دائماً باحتياجاته ، فهو مدفوع

على الأقل برغبته ، فليس في كل ما يراه حوله من الخيرات شيء بعيد تمام البعد عن متناوله . ومن ثم صار يعمل كل شيء في عجلة ، وحسبه منه أن يكون مقبولاً نوعاً ما ، فهو لا يلبث إلا لحظة واحدة يتدبر فيها كل عمل أنجزه . إن فضوله نهم دائماً لا يشبع ؛ ولكنه في الوقت نفسه يرضى بالقليل وبالرخيص ، فهو يعني بأن يعرف أشياء كثيرة بسرعة أكثر مما يعني بمعرفة شيء واحد معرفة طيبة عميقة . فليس لديه الوقت الكافي لذلك ، وسرعان ما يفقد كل ميل إلى استيعاب الأشياء وتعمق دراستها .

ومن أجل هذا صار أفراد الشعب الديمقراطي متوقرين متزينين لأن أحوالهم السياسية والاجتماعية تدفعهم باستمرار إلى الاشتغال بأمر جديد ، وإنهم ليعملون مع ذلك في طيش وتهور ، لأنهم لا ينفقون إلا وقتاً قليلاً في الانتباه إلى كل أمر من تلك الأمور ودراسته حتى الدرس ؛ فيجب أن تعد عادة عدم تركيز الانتباه هذه أكبر نقص في الخلق الديمقراطي .

## غرور الأمريكيين القومي أكثر قلقاً وأعسر إرضاء من غرور الإنجليز

تفخر كل الأمم الحرة بأعجابه وتباهى بها ، ولكن شعورها بالعزة القومية لا يتجلى فيها جميعاً بصورة واحدة . فعندما يتصل الأمريكيون بأجنبي ؛ يبدون له أنهم لا يطيقون صبراً على أى نقد يوجه إليهم مهما كان طفيفاً ، على حين أنهم لا يشبعون من سماع المدح والثناء عليهم . فأقله مقبول ، أما أجزله فقلما يرضيهم ، فهم يظنون يلحون عليك ويضايقونك باستمرار حتى يتزعوا منك الثناء عليهم ، فإن قاومت إلحافهم وتوسلاتهم تولوا هم الثناء على أنفسهم . فكأنى بهم يتشككون فيما فيهم من فضل ؛ فأرادوا أن يعرض على أنظارهم وعلى مسامعهم دائماً . وليس غرورهم نهماً فحسب ، بل قلق وغيور ، فهو غرور لا يمنح أحداً شيئاً ما ، على حين يتطلب المزيد باستمرار ، ولا يتحرج من أن يتوسل ويناضل ، في سبيل ما يرضيه في وقت واحد .

فلو قلت لأمرىكى أن بلده طيب قال « نعم إنه لا مثيل له في العالم بأسره » وإن أنا أعجبت بما يستمتع به سكان بلاده من حرية أجنبي « إن الحرية شيء جميل قيم ، ولكن ما أقل الأمم الجديرة بالاستمتاع بها ! » وإن أشرت إلى طهارة الأخلاق التى تتميز بها الولايات المتحدة قال « إنى أستطيع أن أتصور الدهشة التى تستولى على الغريب الذى عرف الفساد المستشرى فى البلاد الأخرى ، عندما يدرك الفرق بيننا وبينها » ، وأخيراً أدعه وحده يفكر فى نفسه ؛ ولكنه لا يلبث أن يعود إلى الهجوم ، ولا يتوقف إلا بعد أن يجبرنى على تكرار كل ما سبق أن قلته له . إنه لمن المستحيل علينا أن نتصور وطنية متعبة ثرثرة أكثر من وطنية مثل هذا الأمريكى ، فهى وطنية تتعب حتى أولئك الذين يميلون إلى احترامها .

أما فى إنجلترا فالحال غير الحال . فالإنجليزى يستمتع فى هدوء بالميزات الحقيقية أو الموهومة التى يعتقد أنها من خصائص بلاده . فإن كان لا يعترف للبلاد الأخرى بشيء من الفضل ، فهو لا يلحف فى المطالبة بشيء منه لأتمته . فانتقاد الأجانب إياها لا يستفزه ،

ويكاد ثناؤهم عليها يحرك مشاعره . فموقفه تجاه سائر العالم موقف كله تحفظ ، وفيه احتقار ، وفيه جهل ، فكبرياؤه ليست بحاجة إلى ما يغذيها لأنها تغذى نفسها بنفسها ، فمن عجب أن أمتين نشأتا حديثاً من أصل واحد تصبحان متضادتين في مسلكيها وفي آدابهما العامة ، وفي حديثهما ، مثل هذا التضاد .

والمعروف أن عظماء الناس في البلاد الأرستقراطية ينعمون بعدة امتيازات كبرى تقوم عليها كبرياؤهم ، من غير حاجة لهم إلى السعي وراء الحصول على مزايا أخرى صغيرة قد تكون متصلة بها بشكل ما ، وإذا جاءتهم تلك الامتيازات الكبرى عن طريق الإرث ، فقد صاروا يعدونها بشكل ما جزءاً من أنفسهم ، أو على الأقل حقاً طبعياً لهم ذاتياً في نفس أشخاصهم . فلا غرو أن صاروا لا يحسون إحساساً هادئاً مطمئناً بتفوقهم ، ولا يحلمون بأن يتباهوا بمزايا يعرفها كل إنسان ، ولا يتنازع فيها اثنان ، فهي ليست بالجدية الجدة التي تجعلها موضع حديث الناس . فالإنجليز يظنون ثابتين فيما تفردوا به من عظمة ، واثقين كل الثقة من أن الدنيا كلها تشهدهم ، فلا حاجة بهم إلى بذل أى مجهود لعرضها على الناس وعلى مسامعهم ، فليس ثمة أحد يحاول أن يزيلهم عن مكائنتهم هذه ، فعندما تصطلع أرستقراطية بإدارة الشؤون العامة في البلاد اتخذت كبرياء أهله القومية هذا الموقف المتحفظ المستعلي الذي لا يبالي بغيره ، والذي لا مناص لطبقات المجتمع الأخرى من أن تحاكمهم فيه .

والأمر على العكس من ذلك وإن كانت أحوال الناس الاجتماعية لا تختلف بعضها عن بعض إلا اختلافاً طفيفاً ، فإن أدنى الميزات لها أهمية وشأن . ولما كان كل منهم يرى أن ملايين الناس حوله يستمتعون بميزات كالتى يستمتع بها تماماً أو تشبهاً على الأقل ، أصبح غيوراً ، ذا كبرياء نهمة لا يرضيها شيء ، وصار يتعلق بالتوافه . ويدافع عنها بكل ما أوتى من قوة ومن ثبات . فالناس في البلاد الديمقراطية ، حيث أحوال المعيشة في تذبذب وتغير كثيرين ، لم يحصلوا على ما يستمتعون به من امتيازات إلا بالأمس القريب ، فلا غرو أن كان يطيب لهم أن يعرضوها على أنظار الناس لعلهم يقنعونهم ويقنعون أنفسهم كذلك بأنهم يستمتعون بها حقاً . وإذا كانت مميزات معرضة للزوال في أية لحظة ، صار أصحابها متيقظين لها دائماً ، حذرين من أن تفلت من أيديهم ، ويحرصون كل الحرص على إظهار أنهم مازالوا حائزين لها . فالناس الذين يعيشون في البلاد الديمقراطية يحبون أوطانهم حبهم أنفسهم ، وسرعان ما ينقلون عادات غرورهم الشخصى إلى غرورهم من حيث هم أمة .

فغرور الأمة الديمقراطية ، ذلك الغرور القلق النهم ، يرجع كله إلى تساويم في الأحوال الاجتماعية ، وإلى عدم استقرار هذه الأحوال نفسها حتى إن أعضاء أسمى طبقة من طبقات النبلاء ليظهرون نفس الشهوة إلى تلك النواحي الصغرى من حياتهم التى قد يكون فيها شيء متغير ، أو تكون موضع خلاف ونزاع . فالطبقة الأرستقراطية تختلف

دائماً عن سائر طبقات الأمة من حيث مدى امتيازاتها ، ومن حيث مدى دوام الامتيازات . ولكن كثيراً ما يحدث ألا تكون الفروق الوحيدة التي بين الأعضاء المنتمين إليها سوى مزايا عابرة دائمة ، تكتسب مرة وتزول أخرى في أى يوم من الأيام . ومن المعلوم أن أعضاء الأرستقراطيات القوية المتجمعين في عاصمة من العواصم ، أو في بلاط ملك من الملوك ، يتنازعون بشدة وعنف على تلك الامتيازات العابثة التي تتغير بحسب « الموضة » أو بحسب مشيئة سيدهم . فهم يدون إذن نحو بعضهم البعض تلك الغيرة الصيبانية نفسها التي تحرك رجال الديمقراطيات ، ونفس الלהفة على اختطاف أدنى شيء يتنازع عليه أندادهم من امتيازات ، وكذلك يدون الرغبة نفسها في أن يعرضوا على الناس ما يتمتعون به منها .

فإن حدث ودخلت العزة القومية عقول رجال الحاشية ؛ لم يساورنى أى شك أنهم سيبيدونها بنفس الطريقة التي تبيدها بها الناس في الشعوب الديمقراطية .

## الفصل السابع عشر

# المجتمع في الولايات المتحدة مستثار ونمطى رتيب في آن واحد

يبدو أن لاشيء أصلح لإيقاظ حب الاستطلاع في نفوس الناس ولتقويته، من مشهد الولايات المتحدة، حيث الآراء والقوانين والثروات في تغير متصل. حتى كأن الطبيعة الثابتة نفسها قد صارت هي الأخرى متغيرة، مادامت تحول كل يوم بأيدي الإنسان وتغير تغيراً كبيراً. ومع ذلك فقد صار مشهد هذا المجتمع المضطرب غطياً مملأً في النهاية بعد أن يتأمل الرائي هذا الموكب المتحرك برهة يستولى عليه السأم والضجر.

يكاد كل امرئ في الأمم الأرستقراطية يكون ثابتاً في مركزه الخاص، ولكن الناس، مع ذلك، مختلفون بعضهم عن بعض كل الاختلاف بشكل يستثير فينا الدهشة؛ فأهواؤهم وعاداتهم وآراؤهم وأذواقهم كلها متباينة كل التباين، فلا شيء فيهم يتغير، ومع ذلك فكل شيء مختلف عن الآخر. أما في الديمقراطيات فالأمر على النقيض من ذلك، فجميع الناس متماثلون، ويؤدونه بطريقة تكاد تكون واحدة. إنا لانفكر أنهم معرضون لتقلبات عظيمة وكثيرة الحدوث؛ ولكن مادامت الأحداث نفسها، حسنها وشرها، تتكرر هي باستمرار، لم يعد شيء يتغير سوى أسماء الممثلين، على حين تظل المسرحية نفسها ثابتة. هذا، ويبدو مظهر المجتمع الأمريكي في حركة ونشاط دائبين لأن الناس والأشياء تتغير فيه باستمرار، ولكنه مع ذلك مجتمع نمطى رتيب مملول، فجميع التغيرات التي تحدث فيه واحدة لا تختلف.

ولا يخفى أن للمواطنين في البلاد الديمقراطية ميولهم وأهواءهم الكثيرة، ولكن أغلبها يؤدي إما إلى حب المال، أو هو يصدر عنه. وليس مرد ذلك أنهم أضيقت نفوساً من سواهم، بل إن أهمية المال لتكون عظيمة في مثل تلك العصور، فله فيها شأن كبير حقاً. فحين يكون جميع أعضاء المجتمع مستقلين بعضهم عن بعض أو لا يكثرثون بعضهم لأحوال بعض، لم يكن يتسنى لأحد أن يستعين بآخر إلا بالثمن: مما يضاعف إلى غير حد الأغراض التي تتناول فيها الأموال، كما يزيد في الوقت نفسه من قيمتها. فعندما يزول عن كل قديم ما كان له من روعة وجلال، لم يعد الأصل ولا الحالة الاجتماعية، ولا المهنة، هي التي تميز

الناس بعضهم على بعض، أو تكاد تكون كذلك؛ ولم يعد غير المال يخلق فيهم الفروق ويجعلها بارزة واضحة، فيرفع بعضهم فوق المستوى العام. وهكذا يزداد التمايز الناشئ عن الثروة كلما زالت المميزات الأخرى أو تضاءلت، فالمال في الأمم الأرستقراطية لا يصل إلى نقاط قليلة على محيط دائرة رغبات الإنسان، وهي دائرة واسعة كل السعة؛ على حين يبدو أنه يصل إلى جميع النقاط في البلاد الديمقراطية.

ومن ثم كان الغرام بالمال، من حيث هو دافع رئيسي أو ثانوي، راسخاً في صميم كل عمل يعمله الأمريكيون، مما يجعل في كل أهوائهم شيئاً من التشابه، مثل ذلك الذي نراه بين أفراد الأسرة الواحدة، والذي لا يلبث أن يجعل منظر أعضائها مملأً لمن يتأملهم. فتكرار حدوث هوى بعينه أو شهوة بعينها باستمرار أمر رتيب غمطي، ولا تقل الطرق الخاصة التي تتبعها هذه الشهوة في إشباع نهمها غمطية عنها نفسها.

ولا يستطيع الناس في بلاد ديمقراطية منتظمة مسالمة، مثل الولايات المتحدة، أن يثروا عن طريق الحروب، ولا عن طريق شغل الوظائف العامة، ولا بالمصادر السياسية - ومن ثم صار حب المال هو الذي يدفعهم إلى مزاوله الأعمال التجارية والصناعية. ومع أن هذه الأعمال كثيراً ما تؤدي إلى الاضطراب، وتجرب الكوارث الفادحة، فإنها مع ذلك لا تزدهر من غير مراعاة لعادات منظمة صارمة؛ ولنظام غمطي طويل، يستلزم القيام بعدة أفعال صغيرة تجرى كلها على غمط واحد.. وكلما اشتدت الشهوة إلى جمع المال، وجب أن تزداد هذه العادات انتظاماً، وهذه الأفعال الصغيرة غمطية ورتابة، ولا بأس من أن نقول إن ما في رغبات الأمريكيين من عنف هو الذي يجعلهم منظمين كل الانتظام فيما يفعلون؛ فإن كان هذا العنف يخلق الاضطراب في عقولهم، فإنه يؤدي إلى تنظيم حياتهم.

إن ما ذكرته هنا عن أمريكا يصدق، في الواقع، على معظم أهل عصرنا، فالتنوع أخذ في الاختفاء من الجنس البشري كله حتى صرنا نجد طرق العمل والتفكير الوجداني نفسها قائمة في كل رجا من أرجاء العالم. ولا يرجع هذا إلى ازدياد تأثير الأمم بعضها في بعض، وازدياد محاكاتها لبعضها البعض بأمانة أدق فحسب، بل كلما ترك أهل كل قطر الآراء والوجدانات الخاصة بطبقة مغلقة، أو مهنة أو أسرة، فإنهم سيصلون جميعاً في وقت واحد إلى شيء أقرب إلى طبيعة الإنسان وتكوينه؛ وطبيعة الإنسان واحدة في كل مكان، وبذلك يزدادون تشابهاً حتى ولو لم يحاكوا بعضهم بعضاً؛ مثلهم في ذلك مثل السياح المعثرين في غابة عظيمة تحترقها مسالك كثيرة تتلاقى كلها في نقطة واحدة. فلو ظلوا يوجهون أنظارهم كلها صوب هذه النقطة المركزية، واتجهوا نحوها، لتقاربوا على غير تفطن منهم، ولو أنهم لم يقصدوا إلى البحث عن بعضهم البعض، ولم يكونوا قد رأوا أو عرفوا بعضهم بعضاً، فقد يدهشهم أن يجدوا أنفسهم قد تجمعوا والتقوا آخر الأمر في الموضع ذاته. فجميع الأمم التي تتخذ الإنسان موضوعاً لبحوثها - (الإنسان من حيث هو إنسان؛ وليس إنساناً معيناً بالذات)، وضروب محاكاتها، تتجه كلها في النهاية نحو آداب أخلاقية واحدة، شأنها في ذلك شأن أولئك السياح الذين تلاقوا عند تلك النقطة المركزية في الغابة.

## الفصل الثامن عشر

### « الشرف »<sup>(١)</sup> في الولايات المتحدة

### وفي سائر البلاد الديمقراطية

يتبع الناس عادة طريقتين متمايزتين كل التمايز في حكمهم على ما يصدر من بنى جنسهم من أفعال . فأحياناً يزنونها بمقيار من تلك الأفكار البسيطة العامة الذائعة في كل بلاد العالم عن الحق والباطل، وأخرى يقدرونها بحسب قواعد قليلة خاصة كل الخصوص، لا تصدق إلا على عصر معين أو قطر معين، وكثيراً ما يختلف هذان المقياران . وقد يتضاربان أحياناً، ولكنهما لا يندمجان أبداً الواحد في الآخر . اندماجاً تاماً يجعل منهما مقياراً واحداً، ولا هما من جهة أخرى، يلغى أحدهما الآخر .

وكان الشرف في العصور التي بلغ فيها أقصى سلطانه، يتحكم في إرادة الناس أكثر مما يتحكم في معتقداتهم، فإن نزعة فطرية قوية تجعلهم، على الرغم من غموضها؛ يشعرون بقانون أهم وأقدم وأقدس، وقد يعصون هذا القانون أحياناً . ولكنهم مع ذلك يظنون يعترفون به باستمرار، فتمتة أفعال اعتقدوا أنها دائماً فاضلة، ومحللة بالشرف معاً، مثل رفض امرئ أن يبارز آخر تحديه .

وهذه الأمور الخاصة، يتيسر تعليلها، في رأيي، بغير هوى بعض الأفراد المعينين، أو هوى بعض الأمم، كما هي العادة المتبعة في تفسيرها حتى الآن . فالجنس البشري معرض لاحتياجات دائمة وعامة خلقت له قوانين أخلاقية . ودرج الناس في كل عصر، وفي كل بلد، على أن يربطوا بها فكرة الدم والعار . فمن انتهك حرمة تلك القوانين فقد أساء عملاً، ومن اتبعها فقد أحسن صنعاً .

هذا، وقد تكون داخل مجتمع الجنس البشري الضخم، مجتمعات أصغر منه حجماً سموها أمماً، وحدث أن تكونت في قلب الأمم أفساء أخرى سموها طبقات أو طوائف . فكان كل مجتمع من هذه المجتمعات الصغرى يعد - تجوزاً - جنساً خاصاً من البشر قائماً بذاته .

(١) يقول المؤلف أنه يقصد بكلمة الشرف هنا جملة القواعد التي تجعل من بأحد بها موضع احترام الناس وتكريمهم لما يصدر عنه من أفعال وتصرفات .

وعلى الرغم من أن كل مجتمع منها لا يختلف عن الجنس البشرى كله اختلافاً أساسياً في كل شيء، فهو مجتمع منفصل قائم بذاته إلى حد ما، له احتياجات معينة خاصة به يشعر بها. وإلى هذه الاحتياجات الخاصة يجب أن نعزو تلك التعديلات التي تؤثر بدرجات متفاوتة، وفي أقطار مختلفة، في طرق الحكم على أفعال الإنسان وسلوكه، وفي مدى التقدير الذي يجب أن يعطى لها، فمن المصلحة العامة والدائمة للبشر ألا يقتل الناس بعضهم بعضاً، ومع ذلك فقد يحدث أن مصلحة خاصة ومؤقتة من مصالح أمة ما، أو طائفة معينة من طوائفها، تقتضى تبرير قتل الإنسان أخاه الإنسان بل قد تقتضى بتكريم هذا القتل وتشريفه.

فليس الشرف إذن سوى تلك القاعدة الخاصة التي قامت على أساس حالة خاصة من أحوال المجتمع، والتي بسببها تزجى الأمة أو الطائفة المدح، أو توجه اللوم والتعزير إلى فعل معين من أفعال الناس. وليس أعقم في نظر العقل من فكرة مجردة، وهذا ما يدعوني إلى أن أبادر وأستعين بالحقائق وضرب الأمثال، أوضح بها ما أقصد إليه من معنى.

وسأختار أغرب نوع من أنواع «الشرف» عرفه العالم، وعرفناه نحن كذلك حق المعرفة، وأقصد ذلك الشرف الأرستقراطي الذي نشأ في المجتمع الإقطاعي، وسأوضحه بما ذكرته من قبل، كما سأوضح المبدأ بهذا المثل عينه.

لست هنا بصدد البحث عن الزمن الذي ظهرت فيه أرستقراطية العصر الوسيط، ولا عن الطريقة التي قامت بها، ولا عن سبب انفصالها عن سائر الأمة ذلك الانفصال الكبير، بل ولا عن الدواعي التي أدت إلى إرساء قواعد سلطتها وتوطيدها، ولكنني سأعد وجودها حقيقة مقررة وأحاول أن أعلل وجهة نظرها الخاصة (التي كانت تنظر منها عادة) إلى الجزء الأعظم من أفعال البشر.

فأول ما يسترعى النظر أن الأفعال في العالم الإقطاعي لم تكن تمدح أو تذم دائماً من أجل ما لها من قيمة أصيلة فيها، ولكنها كانت تقدر أحياناً من حيث الشخص الذي تصدر عنه، أو تقع عليه، دون أي اعتبار آخر، وهذا أمر بغيض يميته الضمير العالمي، فثمة أفعال متواضعة لا يبالي بها الرجل العادي الذي من السوق قد تجر العار على النبيل؛ وثم أفعال أخرى تتبدل صبغتها كلها بحسب إن كان الشخص الذي صدرت عنه من الأرستقراطيين أو من خارج دائرتهم.

فما أن ظهرت هذه الأفكار المختلفة حتى كون هؤلاء النبلاء من أنفسهم هيئة ممتازة وسط الشعب الذي يحكمونه من صياصي حصونهم الحريزة المقامة على شواخ الجبال، والتي يعز الوصول إليها، ولكي يصونوا هذا الموقع الخاص الذي تستند إليه قوتهم، كان لا بد لهم من مزايا سياسية ومن معيار الحق والباطل، والفضيلة والرذيلة، يطبق عليهم وحدهم.

فإن تكن فضيلة معينة أو رذيلة معينة خاصة بالنبلاء، أكثر مما تخص الطبقات الأخرى التي دونهم، وإن تعد بعض الأفعال أموراً غير معاقب عليها عندما تمس العبد، على حين أنها

تعد إجراماً عندما تمس النبيل - فتلك أمور تحكّمية في الغالب، أما نسبة الشرف أو العار إلى أفعال الإنسان بحسب حالته الاجتماعية فقد كانت نتيجة النظام الداخلى لجماعة أرسطراطية. وكانت كذلك فعلاً في جميع البلاد التى كان فيها أرسطراطية. فمادام هناك أثر للمبدأ فستظل هذه الخصائص قائمة. فاستفواء زنجية قلما يحدش اسم الرجل الأمريكى الذى استفواها، أما أن يتزوج بها فهذا العار كل العار .

كان الشرف الإقطاعى يدعو إلى الانتقام في بعض الأحوال، على حين كان يسم من يتساح في الإهانة بميسم العار، ولكنه كان في غيرها يأمر الناس بكبح أهوائهم الخاصة، ويدعوهم إلى إنكار ذواتهم، فهو لم يتخذ مبادئ الإنسانية والرحمة قانوناً له، ولكنه مع ذلك كان يعلى من قيمة الكرم ويهتم به اهتمامه بفعل الخير، لقد سمح للناس بأن يفتنوا عن طريق المقامرة أو الحروب، بدلاً من أن يثروا عن طريق العمل. وكان يفضل الجرائم الكبرى على المكاسب الضئيلة، ويستسيغ الطمع أكثر مما يستسيغ الشح، وكثيراً ما كان يميز حتى العنف نفسه. أما الخداع والغدر فلم يكن نصيبهما عنده سوى الاحتقار .

لم تنشأ هذه الأفكار الغريبة من أهواء أولئك الذين تصوروا. فالطبقة التى وصلت إلى القمة وعلت على سائر الطبقات، والتى تبذل جهوداً دائمة لصيانة مركزها السامى هذا، ترى أن الواجب يقتضيها أن تغالى بقيمة الفضائل التى تتجلى فيها العظمة والروعة الخلابه، والتى يتسنى الجمع بينها وبين الكبرياء، وحب السلطان في سهولة ويسر. فلا يتردد الناس من هذه الطبقة في أن يقبلوا نظام الضمير «الطبيعى» كى يجعلوا هذه الفضائل الأسبقية على غيرها، وإنا نستطيع أن نتصور أن بعض الرذائل التى فيها جرأة، وفيها تألق قد ترتفع إلى مرتبة فوق تلك الفضائل الهادئة التى لاتنفج فيها. فوجود أرسطراطية من هذا القبيل في المجتمع قد يجعل مسلكها هذا أمراً لامناس منه .

كان النبلاء في العصور الوسطى يضعون الشجاعة الحربية على رأس الفضائل، ويعدونها بديلاً من الكثير منها. وهذا رأى عجيب آخر ينشأ بالضرورة من حالة المجتمع الخاصة التى يعيشون فيها. لقد قامت الأرسطراطية الإقطاعية على أساس الحروب؛ فسلطاتها تأسست بقوة السلاح، وصينت كذلك بقوة السلاح، ومن ثم لم تكن بحاجة إلى شىء أكثر من الشجاعة الحربية، فلا غرو أن آثرت هذه الفضيلة على سائر الفضائل. فكل ما ينم عليها، حتى وإن جاء مخالفاً للعقل، ومجافياً للإنسانية، كان موضع استحسان؛ وكثيراً ما كانت توصى به آداب العصر وعاداته. هذا هو المبدأ الأساسى. أما أهواء الناس فكانت لاتتجلى إلا في تفاصيل صغيرة. فإن اعتبر امرؤ لظمة خفيفة على الصدغ إهانة لاتحتمل، ويضطر إلى مبارزة ذلك الذى لطمه ويقتله فذلك ليس سوى قاعدة تحكّمية. أما إن كان النبيل لا يستطيع أن يتقبل في هدوء إهانة ما، ويوصم من أجلها بالعار إن هو تقبل اللظمة من غير أن يقاتل، فتلك نتيجة مباشرة من نتائج المبادئ الأساسية ومن مقتضيات الأرسطراطية الحربية واحتياجاتها .

إنه لحق إذن، إلى حد ما، أن قوانين الشرف هذه كانت قوانين متقلبة لها أهواؤها، ولكن تقلباتها هذه كانت محصورة مع ذلك في حدود معينة وضرورية. فالقاعدة الخاصة التي كان يسميها أجدادنا «شرفاً». بعيدة كل البعد عن أن تكون في نظري، قانوناً تحكيمياً، ولست أتردد مطلقاً في أن أعزو أبعاد أوامرها عن الانسجام، وأكثرها غرابة، إلى عدد قليل من الاحتياجات الثابتة التي لا تتغير المتأصلة في المجتمعات الإقطاعية .

ولو شئت أن أتابع فكرة الشرف الإقطاعي في ميدان السياسة لما وجدت أية مشقة في تفسير مطالبها ومقتضياتها. فحالة المجتمع في العصر الوسيط؛ وحالة مؤسساته السياسية، كانت على نحو جعل سلطة الأمة العليا لا تحكم المواطنين بشكل مباشر أبداً. فليس لهذه السلطة وجود في نظر الشعب: فكل شخص منهم كان تابعاً لرجل معين، عليه أن يطيعه ويدعنه له، وأنه بوساطة هذا الرجل، يصبح على غير علم منه؛ متصلاً بسائر الناس. فنظام الدولة في المجتمع الإقطاعي يقوم كله على أساس من عاطفة الولاء لشخص السيد، ومن ثم فالقضاء على هذه العاطفة يعني الفوضى والاضطراب. وكان الولاء لرئيس سياسي، زيادة على ذلك، عاطفة يستطيع كل عضو من أعضاء الأرستقراطية أن يقدر ما لها من أهمية وشأن. فكل واحد منهم كان تابعاً ومتبوعاً يطيع ويأمر. فالبقاء على الولاء للسيد المسموع الكلمة، والتضحية بالنفس في سبيله إذا اقتضى الأمر، ومشاركته فيما يصيبه من خير أو شر، والوقوف إلى جانبه في كل ما يضطلع به من أمور - هذه هي المطالب الأولى التي كان يقتضها الشرف الإقطاعي من حيث العلاقة بالمؤسسات السياسية الغالبة على تلك العصور. لقد كان الرأي العام يصم جريمة عدم الولاء بوصمة شديدة غير معهودة وقد اخترعوا لفظة شنيعة كل الشناعة للدلالة على هذه الجريمة - فقد سموها «غدرًا» .

وعلى العكس من ذلك، فإننا لا نجد في العصور الوسطى سوى بضعة آثار قليلة من تلك العاطفة التي كانت عماداً لحياة الشعوب في العصور القديمة؛ وأقصد بها عاطفة الوطنية. فحتى لفظة «الوطنية» نفسها ليست قديمة في تاريخ اللغة (وحتى كلمة الوطن *patrie* لم تجر بها أقلام الكتاب الفرنسيين إلا في القرن السادس عشر) فقد كانت المؤسسات الإقطاعية تحفي البلاد جملتها عن عيون الناس؛ وتقلل من ضرورة محبتهم إياها! لقد نسيت الأمة في زحمة العواطف التي ربطت الناس بالأشخاص. فلم يكن جزءاً إذن من قانون الشرف الإقطاعي الصحيح أن يظل المرء مخلصاً لوطنه. لا لأن محبة الأوطان لم تكن في قلوب أجدادنا، ولكنها كانت عندهم أشبه شيء بفريزة طبيعية ازدادت قوة ووضوحاً كلما ألغيت الطبقة الأرستقراطية وتركزت سلطة الشعب العليا .

ويستبين لنا هذا جلياً من الأحكام المتناقضة التي تصدرها الشعوب الأوربية في مختلف الأحداث التي مرت بها في تاريخها، وذلك بحسب الأجيال التي تصدر هذه الأحكام.

فكان الحادث الذي فضح الكونستابل دو بوربون<sup>(١)</sup> بين معاصريه أنه حمل سلاحه ضد بلاده. هذا وإنا لنصمه الآن بأفدع أنواع العار كما وصمه به أجدادنا فعلاً؛ ولكن لسبب آخر، هو أنه يحمل سلاحه ضد وطنه .

اخترت أن أوضح المعنى الذي قصدته «بالشرف» في العصر الوسيط لأن سمات هذا الشرف بارزة ومألوفة لنا أكثر من سماته التي له في أي عصر آخر، ولكن كان يصح لي أن أختار مثلاً من أي عصر آخر، ولو أتى فعلت، لوصلت إلى النتيجة نفسها، ولكن من طريق آخر .

ومع أن معرفتنا بالرومان أقل كلاً من معرفتنا بأجدادنا، فإننا لنعلم مع ذلك، حق العلم، أنه كان عندهم أفكار معينة عن المجد، وعن العار، لم تستمد مباشرة من المبدأ العام عن الحق والباطل. فقد كانوا يحكمون على الكثير من أفعال الناس بأحكام تختلف باختلاف المحكوم عليهم من حيث هم مواطنون أو أجانب. أحرار أو عبيد، وكانوا يشنعون على الرذائل ويشهرون بها في كل مكان، ويشيدون ببعض الفضائل ويعالون بها كل المغالاة. قال بلوتارك<sup>(٢)</sup> في ترجمته لحياة كريبولانس: في ذلك الزمان، كانت الشجاعة في الحروب موضع تكريم وتشريف في روما أكثر من سائر الفضائل. حتى إنهم سموا كل ضروب الشجاعة، باسم هذا الضرب الواحد منها وهو اللفظ اللاتيني virtue، فهل ثمة إنسان يمكن أن يشق عليه أن يدرك تلك الحاجة الخاصة التي كان يتطلبها هذا الشعب الذي خلق ليفتح العالم كله؟

ويصدق هذا إلى حد ما على الجماعات الديمقراطية، كما يصدق على غيرها، وأسأشع في التدليل على ذلك متخذاً الأمريكيين مثلاً .

فلا تزال توجد بضعة آراء مفككة عن معاني الشرف الأرسطراطي القديم في أوروبا، مبعثرة بين ما عند الأمريكيين من آراء. إلا أن هذه الآراء التقليدية قليلة العدد، ليس لها في البلاد سوى جذور قليلة، كما ليس لها سوى قوة ضئيلة. فهي أشبه بالديانة التي لا تزال لها بضعة معابد قائمة، على الرغم من أن الناس لم يعودوا يؤمنون بها. ولكن بين هذه الأفكار

---

(١) هو شارل دو بوربون Constable de Bourbon (١٤٩٠ - ١٥٢٧)، أمدى شجاعة فائقة في معركة مارنيانو بإيطاليا سنة ١٥١٥ في أوائل عهد الملك فرنسوا الأول. ثم حدث خلاف شديد بينه وبين أم الملكة فانقلب على فرنسا وتآمر عليها مع أعدائها وقاد جيشاً ضدها وانتصر عليها في موقعة Rebecco بإيطاليا (١٥٢٥) وهي الموقعة التي قتل فيها الفارس «بايار» وهو يدافع عن بلاده. وبينما هو يلفظ أنفاسه رأى دو بوربون هذا أمامه فلامه على جبانته فرنسا وحمل السلاح ضد الوطن ووصفه بالعدو والحياة .

(٢) بلوتارك Plutarch (٤٦ - ١٢٠ م) أديب وفيلسوف إغريقي عاش مراراً في روما يحاضر الناس في الفلسفة وغيرها وتعرف بكثير من رجالها. وتقوم شهرته على كتاب (العظماء) وبحوى على ٤٦ شخصية إغريقية. فالها بنظائرها من الشخصيات الرومانية وقد ترجم جزء من الكتاب إلى العربية ونشر سنة ١٩٢٨ مطبوعاً مطبعة دار مجلة المصور التي كان يحررها المغفور له الأستاذ إسماعيل مطهر .

التي عن الشرف الخارجي، والتي تكاد تطمس معالمها، قامت بضعة أفكار جدد يصح أن نسميها في عصرنا بالشرف الأمريكي .

سبق أن بينت كيف كانت الأحوال تدفع الأمريكيين باستمرار إلى الاشتغال بالتجارة والصناعة، فأصلهم وأحوالهم الاجتماعية، ومؤسساتهم السياسية، بل والإقليم الذي يعيشون فيه، كلها تدفعهم في هذا الاتجاه بقوة لا قبل لأحد منهم بمقاومتها، فحالتهم الحاضرة إذن هي حالة جماعة تجارية صناعية أقيمت وسط بلاد جديدة مترامية الأطراف لانهاية لحدودها. فجل همهم أن ينقبوا فيها بحثاً عن المكاسب، تلك هي السمة التي يتميز بها الشعب الأمريكي بوجه خاص على سائر الشعوب في الوقت الحاضر .

فكل هذه الفضائل الهادئة التي تجعل المجتمع يسير في أموره بانتظام، وتشجع الناس على الأعمال التجارية والصناعية - ستكون عند هذا الشعب إذن موضع التبجيل والتكريم، ولا يسع أحداً أن يهملها من غير أن يستهدف لاحتقار الشعب . أما الفضائل العنيفة الصاخبة التي كثيراً ما تهر الجماعة، وتشيع فيها الاضطراب بأكثر مما تبرها، فيضعها هذا الشعب نفسه، على العكس من ذلك، في مرتبة ثانوية، فمن يهملها لا يفقد تقدير الجماعة واحترامها، وأما من يستنسك بها فقد يتعرض لفقدانها .

وكذلك يصنف الأمريكيون رذائل الناس تصنيفاً لا يقل تحكماً عن تصنيفهم الفضائل؛ فثم بضع نزعات معينة تبدو للعقل العام وللضمير العالمي أنها موضع نقد وتعزير، ولكنها قد تتفق مع حاجات الجماعة الأمريكية الخاصة، ومن ثم لم يكن يوجه إليها سوى اللوم الرفيق، بل إنها نزعات ثانوية يصح أن نتخذها هنا مثلاً على ذلك بوجه خاص . فكى يظهر الأمريكي أراضى هذه القارة الواسعة غير المأهولة التي هي ميدانه الخاص، من الأشجار، وكى يحرثها ويطورها، كان بحاجة إلى رغبة نشيطة دفاعة تسنده باستمرار في أعماله، ولا يمكن أن تكون هذه الرغبة غير الرغبة في الثراء، فليست الرغبة في الثراء موضع ذم واستهجان في أمريكا، وما دامت لا تتعدى الحدود المرسومة لها لكفالة الأمن القومي، فإنها توضع في مركز التشريف . فما كان أجدادنا يصمونونه في العصور الوسطى بوصمة الطمع والجشع، يمتدحه الأمريكي من حيث هو مطمح نبيل خليق بكل ثناء، كما كان يعد تماماً هذا التحمس الشديد للفتح والغزو، وذلك المزاج الحربي اللذين حملاهم إلى ميادين القتال، جنوناً وحشياً أعمى .

وما أيسر ما تقتنى الثروات في الولايات المتحدة؛ وما أسهل ما تضيع! فالبلاد لاحدود لها، ومواردها لاتنفد، ولدى أهلها جميع الاحتياجات وكل الرغبات التي يقتضيها مخلوق نام، فمهما كانت جهودهم فحولهم خيرات وأموال أكثر مما يمكن أن يطمعوا في إحرازه من الأموال والخيرات . فليس خراب بضعة أفراد - وهو أمر يتيسر إصلاحه في وقت قصير - هو الذي يؤدي إلى دمار مثل هذا الشعب . أما الذي يؤدي إلى دماره حقاً

فخمول الجماعة كلها وترهلها . فالإقدام على تنفيذ المشروعات التجارية والصناعية هو السبب الأول في تقدم الأمة الأمريكية، وإليه ترجع قوتها وعظمتها، فالأعمال التجارية والصناعية هذه أشبه ما تكون ، بـ"يانصيب" كبير يظل يخسر فيه عدد صغير من الناس باستمرار . على حين تربح فيه الدولة نفسها دائماً، فمثل هذا الشعب يجب أن يشجع دائماً على الإقدام على المضاربة التجارية، وعلى وضعها موضع التجليل . ولكن لا يخفى أن كل مضاربة جريئة تجعل ثروة المضارب وثروات من يضعون ثقتهم فيه كلها في خطر . فالأمريكيون الذين يجعلون من التهور في الشئون التجارية فضيلة، لاحق لهم في أن يصموا بالعار أولئك الذين يمارسون هذا التهور التجارى، وإلى هذا ترجع تلك الشفقة الغريبة التى يبدىها أهالى الولايات المتحدة على من يفلسون من رجال التجارة والصناعة، فهذا الإفلاس لا يؤثر بحال في شرف التجار عندهم، وهنا يختلف الأمريكيون عن جميع الشعوب التجارية في عصرنا، لآعن الأمم الأوربية فحسب، ومن ثم كانوا لا يشبهون أية أمة من تلك الأمم من حيث موقعهم . ولا من حيث احتياجاتهم .

فجميع هذه الرذائل التى تؤدى إلى إضعاف الأخلاق في أمريكا . وتعمل على فصم الروابط الزوجية فيها، تواجه بدرجة من الشدة لانظر لها في سائر أقطار العالم . ويبدو لأول وهلة أن هذا الأمر يتناقض تناقضاً غريباً مع ما عرف به الأمريكيون من التسامح في أمور أخرى، فلا يسع المرء منا إلا أن يدهش من أن يصادف في وقت واحد، وفي بلد معين أخلاقيات مترهلة كل الترهل، وصارمة كل الصرامة . ومع ذلك فهذه الأمور أقل تنافراً وعدم اتساق عما تبدو فعلاً . فالرأى العام في الولايات المتحدة رفيق كل الرفق في قمع الإسراف في حب المال، مادام هذا الحب يؤدى إلى ازدهار الأمة وإلى عظمتها التجارية؛ على حين أنه ينعى على الناس ما فيهم من رذائل، وما فيهم من ترهل في الأخلاق بوجه خاص، ذلك الترهل الذى يصرف الناس عن السعى وراء السعادة والازدهار، ويعمل على تعكير صفو النظام في الحياة المنزلية؛ وهو النظام الذى لاغنى عنه للنجاح في الأعمال الصناعية والتجارية . فكى يكسب الأمريكيون احترام بنى وطنهم اضطروا إذن إلى أن يأخذوا أنفسهم بالعادات المنظمة . ولا ضير من أن نقول في هذا الصدد، إنهم يقدرونها مسألة من مسائل الشرف أن يحيا حياة تتسم بالعفة .

وثم نقطة أخرى تتفق فيها فكرة الشرف الأمريكى هذه مع أفكار الشرف المعترف بها في أوروبا . فهم يضعون الشجاعة على رأس الفضائل ويعدوننا أعظم الضروريات الأخلاقية للإنسان، إلا أن فكرة الشجاعة نفسها تتخذ عندهم صبغة أخرى، فالناس في الولايات المتحدة لا يقدررون الشجاعة الحربية في شيء، أما نوع الشجاعة الذى يعرفونه حق المعرفة، ويقدرونه حق قدره فذلك الذى يدفع المرء إلى اقتحام أخطار المحيط كى يصل إلى الميناء قبل غيره، وإلى أن يتحمل ما يصادفه من ضروب الحرمان في القلوات والقفار دون أن يتذمر أو يشكو، والوحدة عندهم أسمى من الحرمان . فالشجاعة عندهم هى تلك التى

تجعلهم لا يكادون يحسون فقدان ثروتهم التي أجهدوا أنفسهم في جمعها، وتدفعهم في الحال إلى بذل جهود جديدة في سبيل جمع ثروة غيرها، فالشجاعة التي من هذا القبيل ضرورية كل الضرورة لصيانة الجماعة الأمريكية والمحافظة على استدامة الرخاء فيها، وإنهم ليجدون في هذا الضرب من الشجاعة شرفاً لهم ومجداً، فمن يتضح أنه يعوزه شيء منها فقد جر على نفسه الخزي والعار .

هذا، وثم صفة أخرى قد تصلح لإبراز فكرة هذا الفصل بصورة أقوى، ففي كل مجتمع ديمقراطي مثل مجتمع الولايات المتحدة، حيث الثروات صغيرة وغير مأمونة، نجد أن كل إنسان يعمل؛ والعمل كما لا يخفى يفتح الأبواب لكل شيء، وقد غير ذلك وجه مسألة الشرف، وحوها ضد الكسل. وقد صادفت في أمريكا شاباً أثرياً لا يميلون إلى بذل أى مجهود، ولكنهم اضطروا مع ذلك إلى اتخاذ حرفة لهم؛ فمزاجهم وثروتهم خولا لهم أن يظلوا بغير عمل، ولكن الرأي العام لا يرضى عن ذلك، وللرأى العام سلطان لا يحصى. أما في البلاد الأوربية فالأمر على العكس؛ فالأرستقراطية لا تزال فيها في صراع مع ذلك الفيضان الجارف الذى يكاد يغمرها، فكم من مرة رأيت فيها أشخاصاً تحفزهم احتياجاتهم ورغباتهم باستمرار إلى العمل، ومع ذلك يظلون كسالى خشية أن يفقدوا احترام بنى طبقتهم. وعرفت أشخاصاً أذعنوا للملل والحرمان وآتروهما على العمل والكدح، فلا يسع الواحد منا إلا أن يدرك أن هذين الالتزامين المتناقضين قاعدتان مختلفتان من قواعد السلوك، وأنها يرجعان مع ذلك، إلى فكرة الشرف هذه أصلاً .

فما كان يعده أجدادنا شرفاً مطلقاً، لم يكن في الواقع سوى شكل واحد من أشكال الشرف، فهم يطلقون لفظة الجنس، على ما ليس غير نوع واحد من الأنواع التي تدرج تحته. فالشرف موجود إذن في العصور الديمقراطية وجوده في العصور الأرستقراطية، ومن اليسير علينا أن نتبين أنه يتخذ في الأولى مظهراً آخر غير ما يتخذه في الثانية، وليست مطالبه مختلفة فحسب، بل سنرى توأماً أنها أقل عدداً وأقل تحديداً، وأن قوانينه لم تكن تراعى بدقة وصرامة .

إن مركز الطبقة المغلقة في المجتمع لأعجب دائماً من مركز الشعب وأغرب. فليس شيء في العالم، أكثر غرابة واستثناء من جماعة صغيرة تتكون دائماً من أسر متعينة تظل هي ثابتة لا تتغير (كما كانت الأرستقراطية في العصر الوسيط)، غرضها أن تجعل ما ورثته من التربية والثروة والقوة؛ مقصوداً على أعضائها وحدهم، وتورثها هي أبناءها كذلك؛ ولكن كلما كان مركز جماعة ما أكثر استثناء وشذوذاً، ازدادت احتياجاتها الخاصة، واتسع مدى رأيها في أمور الشرف باتساع هذه الاحتياجات وازديادها .

ومن ثم صارت قوانين الشرف في الأمة الديمقراطية الحالية من الطبقات المغلقة؛ أقل دائماً من حيث العدد مما هي في أية أمة أخرى. فإن حدث وتكونت أم ينذر أن تجد فيها

أى طبقات خاصة، انحصرت فكرة الشرف عندها في عدد صغير من الأقوال والحكم، تظل تقترب شيئاً فشيئاً من القوانين الأخلاقية التي يتبعها بنو الإنسان في جملتهم .

وهكذا تصبح قوانين الشرف ومطالبه أقل غرابة وأقل تنوعاً وعدداً في الأمة الديمقراطية منها في الأمة الأرستقراطية، كما تصبح كذلك أكثر غموضاً وإبهاماً، وهي نتيجة ضرورية لما سبق . فإذا كانت السمات التي يتميز بها الشرف أقل عدداً وأقل غرابة، فلا بد أن كان تمييزها صعباً كل الصعوبة في بعض الأحيان . هذا، وثم أسباب أخرى يصح إضافتها إلى ما سبق . ففي الشعوب الأرستقراطية عتياً كان الجيل يلي الجيل في العصور الوسطى؛ فقد كانت كل أسرة أشبه بالشخص الخالد، ولم تكن حالة الآراء أميل إلى التبدل والتغير من الأحوال الاجتماعية نفسها، فكان كل واحد إذن يجعل نفس الأغراض نصب عينه على الدوام، ينظر إليها ويتأمل من وجهة النظر نفسها كذلك، وتدرجياً أصبح قادراً على أن يدرك أدنى تفصيل من التفصيلات إدراكاً واضحاً، وكان لامناص لقدرة على التمييز هذه، من أن تصبح آخر الأمر دقيقة كل الدقة . وهكذا يتبين لنا أنه لم يكن عند الناس في عصور الإقطاع آراء خارقة للعادة بشأن مسائل الشرف فحسب، بل كان كل رأى من آرائهم تلك واضحاً في أذهانهم كل الوضوح ومحدداً كل التحديد .

ولا يمكن أن تكون هذه هي الحالة في بلاد مثل أمريكا، حيث الناس جميعاً في حركة دائمة؛ وحيث المجتمع الذي يتغير كل يوم بما يقوم به من عمليات، يغير آراءه بتغير احتياجاته، ففي مثل هذه البلاد نجد لدى الناس لغات من قواعد الشرف، ولكنهم قلما يجدون الوقت لحصر انتباههم فيها .

وحتى إن كان المجتمع ثابتاً لا يتطور، لظل من العسير علينا تحديد المعنى الذي يجب أن تنطوي عليه لفظة الشرف . ففي العصر الوسيط حيث كان لكل طبقة قانونها الخاص بالشرف، لم يكن ثم رأى واحد يمكن أن يقبله عدد كبير من الناس في وقت واحد، مما جعل إعطائه شكلاً معيناً دقيقاً أمراً ممكناً . وكان هذا ميسوراً لأن جميع الذين قبلوه لهم مكانة واحدة وخاصة بهم وحدهم، فكانوا بذلك ميالين بالطبع إلى الاتفاق على نقاط قانون لم يوضع إلا من أجلهم وحدهم .

وهكذا أصبحت قوانين الشرف نظاماً كاملاً مفصلاً كل التفصيل، يتضمن كل شيء يمكن أن يتوقع حدوثه، وفيه معيار ثابت ومحسوس دائماً، يطبق على أفعال الإنسان ومظاهر سلوكه . ففي الأمم الديمقراطية التي من أمثال الأمة الأمريكية، حيث تختلط مراتب الناس ودرجاتهم بعضها ببعض، وحيث المجتمع كتلة واحدة مفردة، تتكون من عناصر متشابهة (وإن لم تكن متعادلة تمام التعادل) كان من المستحيل أن يتم الاتفاق سلفاً على الأمور التي يمكن أن يسمح بها قانون الشرف، والتي لا يسمح .

لاشك أن في هذا الشعب بعض احتياجات قومية أدت إلى ظهور آراء في موضوعات

تتعلق بالشرف تشترك فيها الأمة جمعاء، ولكنها نقاط لا تخطر أبداً بعقول الجماعة بأسرها في وقت واحد، ولا بشكل واحد أو بشدة واحدة، فقانون الشرف موجود ولكن ليس ثمة أجهزة تعمل على نشره بين الناس وشرحه لهم .

هذا وإن الاضطراب ليزداد بشدة في بلد ديمقراطي مثل فرنسا، حيث الطبقات المختلفة التي كانت قوام بنية المجتمع السابق قد تقاربت، ولكنها لم تندمج بعضها في بعض، فهذه الطبقات تستورد كل يوم آراء متنوعة، وأحياناً متضاربة، عن الشرف، وفيها يهجر كل إنسان بحسب مشيئته وهواه، جزءاً من عقيدة أجداده ويستبقى جزءاً آخر حتى لم يعد يتسنى مطلقاً أن تقام قاعدة عامة وسط إجراءات تحكيمية كثيرة هذه الكثرة - ويكاد يكون مستحيلاً أن نتنبأ بأى الأفعال ستكون موضوع شرف وأياً موضوع فضيحة وعمار على مرتكبيها، فهذه الأوقات وأمثالها أوقات بؤس وشقاء ولا شك، ولكنها مع ذلك أوقات قصيرة الأجل .

ولما كان الشرف في البلاد الديمقراطية غير محدد تمام التحديد، ضعف نفوذه بالطبع . فمن الصعوبة بمكان أن يطبق في ثقة وباستمرار قانون غير معروف تمام المعرفة . فإن لم يستطع الرأى العام، وهو الشارح الطبيعي لقوانين الشرف، إن لم يكن أعظم شراحها جميعاً، أن يميز كل التمييز الجهة التي ينبغي أن يوجه إليها المدح أو الذم، لا يسهه إلا أن يصدر أحكاماً نائية قلقة مشكوكاً فيها . هذا فضلاً عن أن الرأى العام قد يتناقض مع نفسه في بعض الأحيان، وفي أخرى أكثر من السابقة قد لا ينجز شيئاً ما، ويدع الأمور وشأنها تجرى في أعتها .

كذلك يرجع ضعف حاسة الشرف في البلاد الديمقراطية إلى عدة أمور أخرى . ففى البلاد الأرستقراطية نفسها لا يستمسك سوى عدد قليل من الناس بالأفكار الخاصة بالشرف هذه، وهو عدد محدود، وكثيراً ما يكونون بمنأى عن سائر المواطنين . ومن السهل أن يرتبط الشرف في عقولهم بكل ما يتميز به مركزهم الخاص، فيتجلى لهم على أنه الميزة الكبرى لمكانتهم الموهودة، ولذا فإنهم يطبقون قواعده الخاصة بكل تلك الحماسة التي يقتضيها إنجاز مصلحة شخصية ويشعرون بعاطفة قوية تدفعهم إلى الإذعان لمطالبه ومقتضياته .

وتبدو هذه الحقيقة جلية في كتب القانون القديمة (المعروفة بذوات الحروف السود)، وبخاصة التي تعالج شئون المحاكمة بطريق المباشرة، فقد كان الأشراف مضطرين في خصوماتهم إلى استخدام السيوف والحرايب، على حين كان العبيد والأقناء لا يستعملون فيما بينهم غير العصى، فهؤلاء الأقناء لا شرف عندهم، كما تقول تلك الكتب القديمة . وليس معنى ذلك على نحو ما يمكن تخيله في عصرنا الحاضر، أنهم كانوا محترقين، بل يعنى أن أفعالهم وسلوكهم لا تقدر بنفس المعيار الذى يقدر به سلوك الأرستقراطيين وأفعالهم .

وقد يدهش المرء لأول وهلة، أن يدرك أنه عندما تكون حاسة الشرف هذه واضحة بارزة، تكون مطالبها غريبة عادة كل الغرابة، لدرجة أنه يبدو أن طاعتها تكون ألزم، كلما ازدادت هذه المطالب بعداً عن المعقول؛ ومن ثم فقد استخلص بعض الناس، أن قوانين الشرف تقوى من جراء إفراطها هذا، والحق أن هذين الأمرين كليهما، يرجعان إلى مصدر واحد بعينه، مع العلم بأن أحدهما ليس مستمداً من الآخر. وقد يصبح الشرف غريباً شاذاً بنسبة خصائص الاحتياجات التي يمثلها، وقلة عدد من يستشعرون هذه الحاجات، فمن أجل أنه يدل على احتياجات من هذا القبيل، صار له نفوذ كبير، فلا تزداد فكرة الشرف قوة من أجل غرابتها ولكنها غريبة وقوية من أجل هذا السبب عينه وهكذا.

وزيادة على ذلك، فكل رتبة أو درجة من رتب الأمم الأرستقراطية أو درجاتها تختلف عن الأخرى، على حين تظل جميع هذه الدرجات والمراتب ثابتة فيها. ولكل امرئ في دائرته التي ينتمى إليها مركزه الذي لا يستطيع أن يزياله، فهو يعيش فيه مع غيره من الناس المقيدين بالقيود نفسها. فليس في الأمم شخص واحد يأمل أن لا يراه الناس، أو يخشى ألا يروه، وليس بينهم واحد في مركز وضع يمنعه من أن يكون له مسرح خاص يمثل عليه دوره أمام النظارة، وليس يستطيع أحد أن يتحاشى المدح أو الذم بسبب أنه حامل مغمور.

والأمر على العكس من ذلك في البلاد الديمقراطية، حيث يندمج أعضاء الجماعة كلهم في نفس الحشد، وحيث هم في حركة مستمرة، فليس للرأى العام في هذه البلاد سلطان قوى، لأنهم يخفون عنه في كل لحظة ويفلتون دائماً من سلطانه. ومن ثم كانت مقتضيات الشرف فيها أقل طغياناً وأقل صرامة منها في سائر البلاد، لأن الشرف لا يعمل إلا ليكون عمله هذا سافراً معروضاً على مرأى من الجمهور فحسب. فهو في هذا يختلف عن مجرد الفضيلة التي تعيش على ذات نفسها مغتبطة قائمة برضاها هي عن نفسها.

فإن ألم القارىء بكل ما تقدم إلاماً صحيحاً واضحاً أدرك وجود صلة وثيقة وضرورية بين تفاوت الأحوال الاجتماعية، وبين ما سميناه هنا «بالشرف»، وهي صلة لم يشر إليها أحد من قبل إشارة واضحة صريحة على ما نعلم. ومن ثم كان لزاماً علينا، أن نبينها هنا مرة أخرى بصورة أدق.

فلنفرض أن أمة بمنأى عن سائر البشر، فسيكون لها، فضلاً عن بعض الاحتياجات العامة التي يستشعرها الناس جميعاً، احتياجات ومصالح خاصة بها وحدها، فتشأ فيها آراء معينة من حيث الاستحسان أو الاستهجان، المدح والذم، خاصة بها دون غيرها، ويطلق أفرادها على حملة هذه الآراء اسم «الأشراف». ولنفرض أن قامت في هذه الأمة نفسها طبقة مغلقة وقفت بدورها بمنأى عن سائر الطبقات والطوائف، وصار لها احتياجات معينة تؤدي بدورها هي الأخرى إلى ظهور آراء معينة فيها، فشراف هذه الطبقة (وهو شرف

يتكون من خليط عجيب من آراء الأمة، ومن آراء أخص فيما يتعلق بالطائفة وحدها) سيكون بعيداً كل البعد عن آراء الناس البسيطة العامة .

هذا؛ وإذ وصلنا إلى هذه النقطة المتطرفة من البرهان فجدد بنا أن نعود أدر اجنا .

فعندما تختلط الناس على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم في أمة ما، ويلغى كل ما لديهم من امتيازات، ويعودون مرة أخرى إلى المساواة والنشابه؛ تصبح مصالحهم واحتياجاتهم واحدة من جديد، وتختفى جميع الآراء الخاصة التي تسميها كل طبقة من طبقات هذه الأمة بالشرف . ولا يعود هذا الشرف ينشأ من أى مصدر آخر غير الاحتياجات الخاصة بالأمة في جملتها، وتعلن هذه الأمة للعالم كله السمة التي تتميز بها فرديتها عن سائر الأمم .

وأخيراً، إن جاز لنا أن نفترض كذلك أن جميع الأجناس البشرية قد اختلطت كلها بعضها ببعض، وصار لجميع أمم العالم في النهاية مصالح واحدة، واحتياجات واحدة، لا يميز بعضها عن بعض بأية ميزات خاصة - لم تعد ثمة حاجة إذن مطلقاً إلى قيمة عرفية، أيا كانت، تعزى إلى أفعال الإنسان، لأن الناس كلهم سينظرون إلى أفعال كل امرئ منهم على ضوء واحد، فاحتياجات البشر العامة التي يكشف عنها الضمير لكل إنسان، تصبح هي وحدها المعيار المشترك، وعندئذ فقط تصبح الأفكار البسيطة العامة التي بشأن الحق والباطل، معترفاً بها في العالم، وترتبط بها فكرة الاستهجان أو الاستحسان بصلة قوية ضرورية .

وتلخيصاً لما قصدت إليه من المعنى في صيغة واحدة أقول: إن وجوه الاختلاف والتفاوت التي بين الناس هي التي أدت إلى إيجاد فكرة الشرف هذه بينهم، وهي فكرة تضعف كلما انطمست هذه الفروق وامحّت، ولسوف تزول بزوالها .

## الفصل التاسع عشر

# في الولايات المتحدة كثرة من الرجال الطموحين وقلة من المطامح السامية

أمران يستثيران دهشة السائح في الولايات المتحدة، أولهما ذلك العدد الضخم الذي لا يحصى من الناس الذين يعملون جاهدين لينهضوا بأنفسهم عن حالتهم الاجتماعية الأصلية. وثانيهما، ندرة ما يلاحظ من المطامح السامية وسط حركة المجتمع الطموحة بشكل شامل. فليس ثمة أمريكي يخلو من الرغبة اللاهفة إلى الترقى، ومع ذلك يندر أن يكون لدى بعضهم آمال عراض أو أغراض سامية يعمل على تحقيقها. فكلهم يعمل باستمرار للحصول على الثروة والسلطان وبعد الصيت. ولكن ما أقل من يفكر منهم في هذه الأمور نفسها على نطاق واسع، مما هو أدعى للدهشة والعجب، فليس في عادات أمريكا، ولا في قوانينها، شيء يمكن أن يحد من رغبات الأهلالي أو أن يمنعهم من أن يخلقوا برغباتهم في أية سماء يشاءون. ويبدو أنه من الصعوبة بمكان إرجاع هذه الحال الغريبة إلى تساويهم في الأحوال الاجتماعية، فما أن تنشأ هذه المساواة نفسها في فرنسا حتى تحلّق مطامح الناس في أجواء لا حد لها ولا نهاية. ومع ذلك فأغلب الظن أننا قد نجد السبب الرئيسي لهذه الحقيقة في أحوال الأمريكيين الاجتماعية وفي آدابهم الديمقراطية.

فلا يخفى أن كل الثورات توسع مطامح الناس، ولا سيما الثورات التي تقضى على الأرستقراطية. فعندما تنهار فجأة الحواجز التي كانت تحول بين الجمهور وبين إحراز الشهرة والقوة، تحدث حركة عنيفة عادة من جراء الاندفاع نحو المعالي التي طالما تمنّاها الناس، ثم سمح لهم الزمان بأخرة أن يستمتعوا بها. فلا شيء يبدو مستحيلاً على أى إنسان في ميعة نشوة الفوز؛ وسرعان ما تصبح الرغبات واسعة لا تحدد، وتصبح كذلك القدرة على إرضائها عظيمة هي الأخرى. ففي وسط هذا التجديد الفجائي الشامل للقوانين والعادات، وفي هذا الاضطراب العام الذي مس جميع الناس. والقواعد والأشياء - في وسط هذا كله، نشاهد مختلف أعضاء الجماعة ينهضون، ويكونون. بسرعة مذهلة لم نسمع بها من قبل، وكذلك تنتقل السلطة بسرعة من يد إلى يد، حتى لم يعد أحد يأس من أن تكون من نصيبه في يوم من الأيام.

ومع ذلك يجب ألا يغرب عنا أن الشعب الذي يقضى على أرستقراطية وإن كان قد عاش في ظل قوانينها، وشاهد أفرادها ازدهارها وروعها وتمثلوا، على غير تفتن منهم، عواطفها وآراءها التي كانت تستمسك بها، ففي اللحظة التي تنهار فيها الأرستقراطية تظل روحها متغلغلة في جملة الشعب، وتظل نزعاتها قائمة فعلاً رشحاً من الزمن بعد اندحار الأرستقراطية بمدة طويلة. وعلى ذلك تبدو المطامح عظيمة بالغة مادامت الثورة الديمقراطية، قائمة بعد انقضائها .

ولا تمنحني ذكرى الأحداث الخارقة للعادة التي شاهدها الناس من أذهانهم بين عشية وضحاها، فالأهواء التي استتارتها الثورة لا تخمد بانقضاء هذه الثورة، بل يبقى في النفوس إحساس بالقلق وعدم الاستقرار، وسط النظام الذي عاد إلى نصابه؛ وتظل فكرة ذلك النجاح السهل قائمة بعد تلك التقلبات الغريبة التي استحدثتها، وكذلك تبقى الرغبات بعد أن تكون قد اتسعت أيما اتساع، على حين تكون الوسائل اللازمة لإشباعها قد تناقصت يوماً عن يوم، ويبقى الميل إلى جمع المال والثروة الضخمة، على الرغم من أن فرص الحصول عليها قلت حتى صارت نادرة، وإنا لنصادف في كل ناحية آثار الإفساد والدمار التي أدى إليها الإسراف في المطامح الفاشلة التي اضطرت في الناس وجعلت تأكل قلوبهم في الخفاء وبغير جدوى .

وأخيراً تمنحني مع ذلك آثار المعركة، وتزول من الوجود بقايا الأرستقراطية زوالاً تاماً، وتنسى تلك الأحداث الجسام التي صاحبت سقوطها: ويعقب السلام الحرب؛ ويستتب النظام في حكم الدولة الجديدة؛ وتعود الرغبات فتتكيف من جديد بما يرضيها من الوسائل؛ وتتناقص احتياجات الناس وآراؤهم ووجداناتهم من جديد؛ ويتحدد إلى الأبد مستوى أحوال الجماعة؛ وأخيراً يقوم المجتمع الديمقراطي وطيد الدعائم .

وتبدو الأمة الديمقراطية التي تصل إلى مثل هذه الدرجة من الثبات والاستقرار - تبدو للناس في صورة مختلفة تمام الاختلاف عما وصفت تواتراً؛ فلنا أن نستخلص إذن أن الطموح، إن بلغ درجة كبيرة من الشدة والعظمة وأخذت أحوال الناس الاجتماعية تزداد تساوياً تكون قد زالت عنه صفة العظمة هذه عندما تتساوى الأحوال الاجتماعية .

فكلما توزعت الثروات الكبيرة وانتشر التعليم؛ لم يعد أحد جاهلاً ولا فقيراً كل الفقر، وبعد أن زالت مميزات الطبقات، وحطم الناس الأغلال التي ظلت تكبلهم رشحاً من الزمن غير قصير، وجعلتهم جامدين لا يتقدمون - بعد أن يحدث ذلك كله كان لا بد لفكرة التقدم من أن تداعب خواطر كل إنسان، وتحرك في الناس الرغبة في النهوض بأنفسهم وتقوى، ويسعى كل امرئ ليرتفع إلى مركز أسمى مما هو فيه، وهكذا يصبح الطموح شعوراً عاماً في كل الناس .

فإن كانت المساواة في الأحوال الاجتماعية توفر لكل عضو من أعضاء المجتمع بعض

الموارد، فإنها تمتع أى واحد منهم من أن تكون له موارد واسعة كل السعة، مما يجد بالضرورة من رغباتهم ويحصرها في دائرة ضيقة بعض الضيق. فالطموح في البلاد الديمقراطية حاد إذن ومستمر، ولكن أغراضه التي يهدف إليها لا تكون أغراضاً سامية في العادة. فالحياة في تلك البلاد تنفق في الجرى وراء تحقيق أغراض صغيرة قرية المنال.

فليس الذي يحول بين الرجال الديمقراطيين وبين المطامح السامية ضالة ثروتهم، بل عنف ما يبدلونه من جهود كل يوم في تحسين هذه الثروات، فهم يرهقون قواهم كل الإرهاق كي يحصلوا على نتائج ليست بذات شأن، ولا يلبث هذا الإرهاق أن يحدد مدى أنظارهم، ويقيد قواهم، إنهم قد يصبحون أفقر مما كانوا بكثير ومع ذلك يظنون أعظم مما كانوا بكثير.

فقلة عدد المواطنين الأثرياء في البلاد الديمقراطية ليس استثناء من هذه القاعدة، فالرجل الذي ينهض بنفسه تدريجياً إلى الحصول على الثروة والجاه يكتسب في أثناء سعيه الطويل وراءهما عادات الخزم والكياسة وضبط النفس، وهي عادات لا يستطيع فيما بعد أن يتخلل عنها، فالمرء لا يستطيع أن يوسع بيته الذي يسكنه.

وتصدق هذه الملاحظة نفسها على أبناء هذا الرجل: حقاً إنهم ولدوا في مركز سام، ولكن والدهم متواضعان، لقد شبوا وسط مشاعر وأفكار يشق عليهم أن يتخلصوا منها فيما بعد، فلا ضمير من أن نفترض أنهم سيرثون نزعات والدهم مع ما سيرثونه من أموالهما.

وقد يحدث، على العكس من ذلك، أن يبدى أفقر فرع في أرستقراطية قوية، مطامح واسعة لأن آراء بنى جنسه التقليدية، وروح أهل طائفته العامة، تظل تسنده وترقى به صعوداً فترة من الزمان إلى ما فوق مستوى ثروته.

وثم شيء آخر يمنع الناس في العصور الديمقراطية من أن يطمحوا في سهولة ويسر إلى مواصلة السعي وراء تحقيق أغراض سامية كبرى، وذلك هو طول الزمن الذي يرون سلفاً أن لا بد من مضيه قبل أن يكونوا على استعداد للاضطلاع بالجهاد في سبيل تحقيق تلك الأغراض، قال بسكال<sup>(١)</sup>: «إنها لميزة كبرى حقاً أن يكون المرء شخصاً وجيهاً ممتازاً، فقد يسمو به امتيازه هذا وهو في الثامنة عشرة من عمره، أو وهو في العشرين، إلى ما يكونه رجل آخر في الخمسين، فهذه ثلاثون سنة تعد ربحاً صافياً له». وهذه السنوات الثلاثون تعوز عادة الرجال الطامحين في البلاد الديمقراطية. فمبدأ المساواة الذي يحول لكل امرئ أن يصل إلى كل شيء يمنع جميع الناس من أن يترقوا بخطوات واسعة.

(١) بلز بسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢) فيلسوف ورياضي فرنسي بدأ نوعه مبكراً - ومن أشهر كبه «Pensées»

وقد نشر بعد وفاته.

لا يوجد في البلاد الديمقراطية، وفي غيرها من البلاد كذلك - لا يوجد سوى عدد قليل من الثروات الواسعة التي يمكن إحرازها، لأن الطرق المؤدية إليها مفتوحة للجميع من غير تفرقة أو تمييز، فلا مناص لهم إذن من أن يكون سيرهم فيها بطيئاً. ولما كانوا وراء هذه الثروات يبدون جميعاً متشابهين، ومن العسير اختيار طائفة منهم دون انتهاك حرمة مبدأ المساواة، وهو قانون المجتمعات الديمقراطية الأسمى، كانت أول فكرة تخطر بالبال هي أن تجعلهم جميعاً يتقدمون بسرعة واحدة، وأن يعرضوا كلهم لنفس التجارب والاختبارات. وهكذا يتضح لنا أنه كلما تساوى الناس في أحوالهم الاجتماعية، أصبحت قواعد الترقى أشد صرامة، وأصبح الترقى نفسه بطيئاً كل البطء، وازداد إمكان الارتفاع إلى مستوى معين بسرعة، مشقة على مشقته، فمن جراء كراهية الناس للامتيازات، وبسبب الحيرة في الاختيار اضطروا آخر الأمر، مهما كان مستواهم، إلى أن يمروا جميعاً بنفس المحن والاختبارات، وبأن يخضعوا كلهم من غير تمييز أو تفرقة للقيام بطائفة من التمرينات الأولية الصغيرة يضيعون فيها شبابهم، وتخدم فيها حدة خيالهم، حتى ليستولى عليهم اليأس من أن يستمتعوا أبداً بما هو معروف عليهم من الخير؛ وعندما ينتهي بهم الأمر ويصبحوا قادرين على إنجاز أعمال جسام، يكون ميلهم إلى الاضطلاع بأعباء مثل هذه الأعمال قد زایلهم.

ففي الصين حيث المساواة في الأحوال الاجتماعية عظيمة بالغة وقديمة مفرقة في القدم، لا يسمح لأحد أن ينتقل من وظيفة عامة إلى أخرى إلا بعد أن يجوز امتحان مسابقة، وتكرر محنة هذا الامتحان في كل مرحلة من مراحل حياته الوظيفية، حتى صارت فكرة الامتحان هذه متأصلة الآن في عادات الشعب وأخلاقه، وأذكر أني قرأت مرة قصة صينية كان البطل فيها، بعد أن عانى الكثير من تقلبات الحظ وظروفه، قد ظفر في النهاية بفؤاد حبيته عقب نجاحه في الامتحان بدرجة طيبة. إن المطامح السامية يندر أن تعيش في مثل هذه الأجواء إلا بكل مشقة.

وما قلته بشأن السياسة، يصدق على كل شيء غيرها. فالمساواة تنتج في كل مكان النتائج ذاتها، فحيث قوانين البلاد لا تنظم أمور ترقية الموظفين وتأخيرهم في وظائفهم بقرارات إيجابية، تولت المنافسة تحقيق هذه الغرض نفسه.

وفي البلاد التي رسخت فيها أسس النظم الديمقراطية وتوطدت قواعدها يندر كل الندرة أن تحدث ترقيات سريعة، وإن حدثت كان استثناء من القاعدة العامة. فغرابة أمثال هذه الأحداث تسمى الناس أنها نادرة الوقوع.

هذا، ويدرك المواطنون في البلاد الديمقراطية هذه الأمور كلها آخر الأمر، ويستكشفون أن قوانين بلادهم تفتح لهم مجالاً للعمل واسعاً لا يحد، يستطيع كل منهم أن يتقدم فيه بخطوات بطيئة، فلا أحد منهم يأمل أن يجتازه بسرعة، لأن بينهم وبين الغرض الأقصى الذي جعلوه نصب أعينهم طائفة من العقبات الصغار التي عليهم أن يحطوها ببطء.

وقد تضعف هذه الفكرة ذاتها من مطامعهم، وتنبط من همهم فيتركون هذه الآمال العراض البعيدة المدى، والمشكوك في أمر تحقيقها ويلتمسون آمالاً أخرى أقل سمواً، ولكنها أيسر منالاً. فالقوانين لم تحدد لهم آفاقهم، ولكنهم هم الذين يضيفون هذه الآفاق بأنفسهم.

أشرت من قبل إلى أن المطامع السامية أندر في العصور الأرستقراطية؛ وأضيف إلى ذلك، أنها على الرغم من هذه العقبات الطبيعية، قد تظهر فعلاً إلى حيز الوجود، ولكن سماتها تكون مختلفة. أما في البلاد الأرستقراطية فمجال المطامع واسع ولكن حدوده متعينة. وعلى حين أنه في البلاد الديمقراطية ضيق؛ ولكن، إن حدث وتجاوزت هذه المطامع المجال، كان من العسير وضع حد لها. لما كان الناس ضعافاً في البلاد الديمقراطية، من حيث هم أفراد، ويعيشون متفرقين منعزلين بعضهم عن بعض؛ وكل منهم في حركة دائبة، وليس للسوابق عندهم تأثير كبير فيهم، والقوانين لا تلبث بينهم على ما هي عليه أمداً طويلاً - فقد أدى كل هذا إلى ضعف المقاومة التي يلقاها كل تجديد، ولم يعد المجتمع يبدو أبداً مستقيماً كل الاستقامة، ولا راسخاً موطد الدعائم، حتى إذا ما حدث أن استولى ذوو المطامع على أزمّة الحكم اعتقدوا أن في استطاعتهم أن يعملوا أى شيء يريدون. وإذا ما زالت عنهم القوة والسلطان، فقد يخطر ببالهم أن يهدموا الدولة كلها كي يعودوا ويستعيدوها لأنفسهم من جديد. فهذا يجعل للمطامع السياسية الكبرى صفة العنف والثورة. ولكن يندر أن تظهر هذه الصفة ذاتها بالدرجة عينها في المجتمعات الأرستقراطية، فنظر الشعوب الديمقراطية العام تتجلى فيه مطامع صغيرة كثيرة ومعقولة إلى حد كبير، وقد يخرج منها الفينة بعد الفينة بضع رغبات كبرى وإن كان يعوزها التخطيط والتوجيه، ولكننا لانصادف فيها أبداً أى مطمح كبير قد أحسن تصوره ونظم أمره على نطاق واسع.

أشرنا في موضع آخر إلى ذلك التأثير الخفى الذى استطاع به مبدأ المساواة أن يجعل الميل إلى الاستمتاع بالملذات الجسمية. والميل إلى الاقتصار على الاهتمام بمطالب الحاضر العاجلة وحدها - الأمرين اللذين يسيطران على قلوب الناس. فهذان الميلان وأمثالهما تندمج في عاطفة الطموح، وقد تصبغها بصبغتها هي.

وفي اعتقادي أن ذوى المطامع الذين يعيشون في البلاد الديمقراطية أقل رعاية لمصالح الأجيال المقبلة، وأقل احتفالاً بما سوف تصدره عليهم هذه الأجيال من أحكام. فليس يشغلهم سوى اللحظة الحاضرة التي تستغرق كل اهتمامهم. فهم أميل إلى إنجاز عدد من المشروعات بسرعة، منهم إلى إقامة آثار خالدة من عمل أيديهم - إنهم يعنون بالنجاح أكثر مما يعنون بالشهرة وتخليد الذكر. فأقصى ما يتطلبونه من الناس لا يعدو الطاعة والإذعان. وأقصى ما يطمعون فيه هم أنفسهم لا يعدو القوة والسلطان. لقد ظلت آدابهم في جميع الحالات تقريباً دون مراكزهم، مما أدى بهم في كثير من الأحوال إلى نقل أذواق وضيعة

كل الضعة إلى ما ينعمون به من رغد ومن ثراء، والظاهر أنهم لم يحصلوا على السلطة العليا إلا ليخدموا ملذاتهم الخسنة أو التافهة<sup>(١)</sup>.

ولعله من الضروري كل الضرورة في عصرنا الحاضر أن نعمل على تطهير النزعة إلى الطموح، وتنظيمها وتنسيقها. ولكن من الخطر كل الخطر أن نعمل على الإسراف في إفقارها وقمعها؛ علينا أن نحاول أن نضع لها حدوداً قصوى معينة لا تتجاوزها. أما في نطاق هذه الحدود المعينة، فيجب ألا يكون ثم إسراف في كبحها.

ولا يسعني إلا أن أعترف بأن ما أخافه على المجتمعات الديمقراطية من جراء اندفاعها في توسع رغباتها، لأقل مما أخافه عليها من تواضعها فيها. وفي رأبي أن الذى يجب أن يخشى أكثر من غيره، هو أن يفقد الطموح نشاطه وعظمته، وتتضاءل مطامع الإنسان وسط المشاغل الصغيرة الملحة التى تملأ حياته الخاصة، وأن تتحط هذه المطامع كذلك في الوقت نفسه، فيزداد المجتمع هدوءاً على هدوئه، ويصبح أقل مما كان إيجاء وإلهاما.

إن زعماء المجتمعات الحديثة مخبطون في رأبي في سعيهم وراء تهديئة الجماعة، بأن يوفروا لها حالة من السعادة والرخاء موحدة أكثر مما ينبغي، وهادئة كل الهدوء، حتى تكاد تبلغ حد الركود. فمن الخير أن يعرضوا الجماعة الحين بعد الحين لمشكلات فيها إعضال وفيها خطر، كى يوقظوا في أنفسهم الطموح ويتيحوا له مجال للعمل.

ويتشكى الأخلاقيون دائماً من طغيان رذيلة الكبرياء على الناس في الوقت الحاضر؛ وهذا حق من بعض الوجوه. فكل إنسان صار يعتقد أنه أفضل من جاره، أو يأبى أن يطيع رئيسه، وهو أسمى منه مقاماً. ولكن هذه الشكوى خطأ كل الخطأ من وجوه أخرى، لأن لهذا الشخص نفسه الذى يأبى أن يذعن لأحد، ولا يستطيع أن يطبق المساواة بغيره، رأياً في نفسه، حقيراً كل الحقارة، حتى ليخيل له أنه لم يخلق إلا ليستمتع بالملذات الحسية، فتراه يقبل على المشروعات والرغبات الصغيرة الوضيعة ولا يجرؤ على الاضطلاع بأية مشروعات سامية؛ بل إنه لا يكاد يحلم بها.

فما أبعدنى عن أن أقول بأن الواجب يتطلب منا أن نوصى معاصرنا بالتواضع! بل إنى لأرى أن تتجه الجهود إلى أن تثبت فيهم فكرة عن أنفسهم، وعن بنى جنسهم، أوسع مما لديهم، فالتواضع لا يصلح لهم ولا تستقيم به أمورهم؛ أما الذى يعوزهم أكثر من غيره، فهو في رأبي، الكبرياء، وإنى لأرضى أن ننزل عن كثير من فضائلنا الصغار في سبيل هذه الرذيلة الوحيدة.

(١) ربما كان المؤلف يشير هنا إلى لويس فيليب ملك الفرنسيين (١٨٣٠ - ١٨٤٨) فقد كان معروفاً عنه أنه مولع بتزيين أقال الأبواب التى فى القصر.

## الفصل العشرون

### حرفة تصيد الوظائف في بعض البلاد الديمقراطية

ما أن يحصل امرؤ في الولايات المتحدة على قسط من التعليم والثقافة، وتتوافر له بعض الموارد المالية، حتى يتجه للسعى وراء جمع المال، إما عن طريق العمل في التجارة والصناعة، وإما بشراء الأراضي في الأقاليم التي لم تظهر بعد مما فيها من الغابات، فيتحول بذلك إلى رائد من الرواد، لا يطالب الدولة بشيء سوى أن تدعه وشأنه من غير أن تعطله عن السير في أعماله، وسوى أن تؤمنه على ما يكسبه من مال بكده وعرق جبينه. هذا في أمريكا، أما في غالبية الأمم الأوربية فأول ما يخطر بباله أن يعمل. بعد أن يكون قد شعر بقوته، وبال الحاجة إلى توسيع مدى رغباته - أن يسعى وراء الحصول على وظيفة في الحكومة. فهاتان النتيجتان المتناقضتان الناشتان عن سبب واحد بعينه، جديرتان هنا بملاحظة عابرة.

فعندما تكون الوظائف العامة قليلة العدد، ضئيلة الأجر، وغير مأمونة، على حين تكون الأعمال الحرة المختلفة عديدة وأكثر إدراكاً للريح، تتجه رغبات الناس الجديدة المتحفزة التي خلقها فيها مبدأ المساواة إلى الأعمال الحرة هذه، من صناعة وتجارة، فيقبل عليها الناس من كل حذب وصوب، بدلاً من إقبالهم على الوظائف الإدارية. أما إن كانت طبقات الأمة آخذة في التساوى، وظل تعليم الشعب ناقصاً، أو ظلت نفوسهم متقاعسة هيابة، أو إن قام في سبيل التجارة والصناعة عقبات تعوق ازدهارهما، وبذلك تصبحان من الوسائل الشاقة البطيئة في نظر الساعين وراء الثروة وجمع المال، عندئذ يتجه المواطنون، وقد استولى عليهم اليأس من تحسين أحوالهم بمجهودهم الشخصية إلى رئيس الدولة يستعينون به، كأنهم يرون أن تحسين أحوالهم على حساب الخزانة العامة أيسر طريق مفتوحة أمامهم، إن لم تكن في نظرهم الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن يرتفعوا بها عن حالة لم تعد ترضيهم، فعندئذ يصبح السعى وراء الوظائف العامة وتصيدها أهم حرفة يتجه إليها الناس، ويؤثرونها على غيرها من الحرف.

وهذا ما ينبغي أن يكون، وبخاصة في الدول الملكية العظمى. المركزية الحكم، وحيث عدد الوظائف ذات المرتبات كبير يتسع للكثيرين، والاستمرار في الوظيفة مكفول إلى حد

معقول ؛ فلا معنى لأن يأس أحد من أن يجد له وظيفة ويستمتع بمرتبتها في هدوء واطمئنان ، كما لو كانت إراثاً ورثه عن أبويه .

لست أبغى أن أشير هنا إلى أن هذه الرغبة العامة المفرطة ، في الحصول على الوظائف العامة ، شر اجتماعي خطير ، وإنها تقضى على روح الاستقلال في المواطنين وتنتشر في الجماعة كلها ميلاً خبيثاً إلى اعتبار أن كل شيء له ثمنه ؛ ذلك إلى أنها تحمد الفضائل القوية التي تتحلل بها الرجولة ، ولا أريد كذلك أن أجشم نفسى مئونة التذليل على أن حرفة من هذا القبيل لن تؤدي إلا إلى نشاط عقيم غير مجد ، يحرك البلاد ويستثيرها من غير أن يضيف إلى موردها جديداً - فهذه كلها أمور جليلة واضحة ميسور فهمها ؛ ومع ذلك فلا يسعنى إلا أن ألاحظ هنا أن الحكومة التي تؤيد مثل هذه النزعة تخاطر بهدونها وبسلامتها ، وقد تضع وجودها نفسه في مأزق حرج كل الحرج .

هذا ولا يغيب عنى أن في عصر مثل عصرنا الذي نعيش فيه ، حيث أخذت عاطفتنا المحبة والاحترام اللتان كانتا من قبل من نصيب السلطان ، في أن تضعفا شيئاً فشيئاً - في مثل هذا العصر ، يبدو من الضروري لمصلحة أولئك الذين بيدهم مقاليد الحكم ، أن يزيدوا سلطتهم المباشرة على الفرد قوة وإحكاماً ، وذلك عن طريق مصالحه الخاصة ، وقد يكون من صالحهم أن يستغلوا أهواءه كي يجعلوه يرعى النظام ويلتزم الصمت ، إلا أن هذه الحال لا يمكن أن تستمر طويلاً ، فما يبدو مصدر قوة لفترة معينة ، سيصبح لاشك آخر الأمر مدعاة للارتباك وسبباً للضعف .

ففي البلاد الديمقراطية وغيرها ، بدلاً من أن يكون لعدد الوظائف الرسمية حد في النهاية يقف عنده ، على حين أن عدد الطامحين في تلك الأمم لا حد له ولا نهاية ، فإنه يظل يزداد زيادة متصلة ترتفع تدريجياً ارتفاعاً يتعذر مقاومته ، كلما ازدادت الحياة الاجتماعية مساواة ، وليس شيء يمكن أن يقف هذه الزيادة غير تناقص عدد السكان .

وهكذا ، إن أصبحت الوظائف العامة هي المنفذ الوحيد لمطامح الناس ، فلا مناص للحكومة من أن تواجه بأخرة مقاومة عنيفة بضرورة الحال ؛ إذ عليها أن ترضى بما لديها من وسائل محدودة رغبات لا حد لها ولا نهاية . وليس من شك في أن أصعب شعوب العالم كبحاً ، وأشقها إدارة شعوب يقصد أفرادها الوظائف العامة ويسعون وراءها يتصيدونها ، فمهما بذل حكام هذه الشعوب من جهود فلن يستطيعوا إرضاء مطالب أهابها ، حتى إنه ليخشى دائماً أن يعمدوا إلى دستور البلاد فيقوضوه ويقلبوه رأساً على عقب ، لا لشيء سوى إخلاء المناصب الحالية من شاغليها .

فملوك العصر الحاضر الذين لم يألوا جهداً في أن يأخذوا على عواتقهم سد جميع تلك الرغبات الجدد التي ولدت المساواة ، سينتهي بهم الأمر ، إن لم أكن مخطئاً ، إلى أن يندموا على اصطناعهم هذه السياسة ، وسوف يأتي عليهم يوم يدركون فيه أنهم قد خاطروا بسلطتهم يجعلها ضرورية إلى هذا الحد ، وأن أسلم الطرق وأشرفها كان أن يدرّبوا رعاياهم على فن الاعتماد على أنفسهم .

## الفصل الحادى والعشرون

### الثورات الكبرى ستقل

لا يتسنى لأمة ظلت تعيش قروناً طويلة في كنف نظام الطبقات والوظائف المغلقة، أن تتحول إلى حالة اجتماعية ديمقراطية، إلا بعد أن تمر بسلسلة طويلة من التطورات الحرجة حرجاً كبيراً أو قليلاً، وتم بمجهود عنيقة، بعد تقلبات عدة، يحدث في أثنائها أن تنتقل الأموال والآراء والسلطة بسرعة فائقة من يد إلى يد. وحتى بعد أن تكتمل هذه الثورة، فيسيطر ما خلفته من عادات ثورية قائماً في الأمة زمناً طويلاً، وسوف تعقب (هذه الثورة) اضطرابات عميقة. وإذا يحدث كل هذا في الوقت الذى أخذت فيه أحوال الناس الاجتماعية تزداد مساواة، فقد حق لنا أن نقول بوجود علاقة خفية ورابطة كامنة بين مبدأ المساواة هذا وبين الثورة، حتى إن إحداهما لا يتسنى لها أن توجد من غير أن تؤدي إلى الأخرى.

وظاهر الأمر أن العقل والخبرة كليهما يتفقان في هذه النقطة، ويشيران إلى نتيجة واحدة. فالشعب الذى تساوت فيه الطبقات، أو كادت، لا تكون فيه رابطة ظاهرة تربط الناس بعضهم ببعض وتستقيهم في مراكزهم ثابتين. فليس لأى منهم حق دائم، ولا سلطة دائمة تخول له أن يكون صاحب الأمر والنهى في الناس، كما أنه ليس فيهم من تضطره أحواله إلى الطاعة والإذعان، ولما كان كل منهم قد حصل على قسط من التعليم والثقافة، وتوافرت له بعض الموارد، فقد صار يرى أن من حقه أن يختار الطريق الذى يسلكه في حياته، وأن يسير فيه وحده من غير اعتبار لسائر الناس. فالأسباب التى تجعل أعضاء الجماعة مستقلين بعضهم عن بعض، هى نفسها التى تدفعهم كل يوم إلى أن تكون لهم رغبات قلقه تحفزهم دائماً إلى التقدم إلى الأمام. فطبعى إذن أن يغير الناس والأشياء والآراء في الجماعات الديمقراطية أشكالها وموضعها باستمرار، وأن العصور الديمقراطية يجب أن تكون عصور تحول وتغير سريع دائم.

ولكن أهذه هى الحالة في الواقع؟ وهل يدفع تساوى الأحوال الاجتماعية الناس دائماً إلى القيام بالثورات؟ وهل تشتمل هذه الحالة الاجتماعية على مبدأ مشر للقلق والاضطراب يحول بين الجماعة وبين أن عهداً وتستقر أبداً، ويدفع المواطنين إلى العمل باستمرار على تغيير

قوانينهم ومبادئهم وآدابهم؟ لا أعتقد ذلك. ولكن الموضوع من الأهمية بمكان، فلا بد لي من أن ألفت إليه نظر القارىء.

انتهت معظم الثورات التي غيرت من ملامح الأمم، إما إلى إقرار ما بين الناس من تفاوت اجتماعي، وإما إلى القضاء عليه. فإن استبعدنا العوامل الثانوية التي استحدثت الثورات الكبرى وهزت العالم هزاً عنيفاً لوجدنا أن مبدأ المساواة كان أساسها دائماً أو يكاد، فإما أن الفقراء قد حاولوا أن يسلبوا الأثرياء أموالهم، وإما أن الأغنياء حاولوا أن يسترقوا الفقراء ويستعبدوهم. فلو أننا استطعنا أن نوجد حالة اجتماعية تمكن لكل إنسان فيها من أن يمتلك شيئاً، ولا يكون بحاجة إلى أن يأخذ من سواه إلا القليل، لكننا قد عملنا الكثير في سبيل إقرار السلام في العالم.

لست أنسى أن كل شعب ديمقراطي عظيم، لا يخلو أبداً من مواطنين فقراء كل الفقر، على حين ينعم آخرون بثراء عريض، ولكن الفقراء لا يكونون الغالبية العظمى في الأمة، كما هي الحال في الأمم الأرستقراطية دائماً، بل هم أقلية فيها، ولم تربطهم قوانين البلاد بعضهم ببعض بروابط تحتم عليهم أن يظلوا في ذلك البؤس المتوارث المقيم الذي لا علاج له.

أما الأغنياء فقليلو العدد، ولا حول لهم ولا سلطان، ولم تعد لهم بعد تلك الامتيازات التي تسترعى انتباه الجماهير، كما لم تعد ثروتهم مرتبطة بالأراضي، ولا بالمندجة فيها، إنها كانت ثروة، إن شئت قلت عنها إنها ثروة غير مرئية. فإذا لم يعد ثمة جيش من الفقراء ولم يعد ثمة كذلك جيش من الأغنياء، فقد صار هؤلاء الأغنياء يخرجون كل يوم من صميم الشعب ويعودون إليه باستمرار. ومن ثم فهم ليسوا هنا طبقة متميزة ومستقلة دائماً وقائمة بذاتها تسترعى أنظار الناس فيستطيعون أن يضعوا أيديهم عليها في سهولة ويسر، وينهبونها بسهولة كذلك؛ وإذا كانوا متصلين بجملة مواطنيهم بالآلاف من الروابط غير المنظورة فلن يستطيع الشعب إذن أن يهاجمهم من غير أن يجرى على نفسه الكثير من الأضرار.

وبين هذين الطرفين، يوجد في الجماعات الديمقراطية عدد كبير لا يحصى من جمهور الناس تكاد تتشابه أفرادهم كل التشابه من غير أن يكونوا فقراء فعلاً ولا أغنياء يملكون من الأموال والخيرات ما يكفي لجعلهم يرغبون في استقرار الأمن واستتباب النظام، ولكنه لا يكفي مع ذلك لاستتارة الغيرة والحسد في النفوس. فهؤلاء إذن أعداء بالطبع لكل اضطراب عنيف، هذا، وإن ثباتهم وعدم تهيجهم يجعلان كل من فوقهم، ومن دونهم، يلتزم الهدوء، ويكفلان للهيئة الاجتماعية الاستقرار.

وليس معنى ذلك أن هؤلاء الناس قانعون بما أوتوا من حظ، ولا أنهم يشعرون بمقت طبعي لثورة يشتركون في أسلابها ومغاتها، من غير أن تصيهم كوارثها، إنهم، على العكس من ذلك، يرغبون في حماسة منقطعة النظر، في أن يصبحوا أثرياء، ولكن الصعوبة التي تواجههم هي أن يعرفوا الناس الذين يمكن أن تؤخذ منهم الأموال المنشودة. هذا،

ونفس الحالة الاجتماعية التي تحفز الرغائب باستمرار، هي نفسها التي تقيد هذه النزعات الفطرية وتحصنها في دائرة ضرورية؛ فهي تمنح الناس مزيداً من الحرية لأن يغيروا ويدلوا ولكنها تقلل من اهتمامهم بالتغير نفسه.

فأهل البلاد الديمقراطية لا يرغبون بطبيعة الحال في الثورات فحسب، بل إنهم يخشونها لأنها تهدد الممتلكات، بشكل أو بآخر، فلأغلب سكان البلاد الديمقراطية أملاك يحرسون عليها كل الحرص، ذلك إلى أنهم يعيشون في ظروف تستدعي الناس أن يجعلوا لأملاكهم أعظم شأن وأكبر قيمة.

وإن أنعمنا النظر في كل طبقة من الطبقات التي يتكون منها المجتمع، لانتضح لنا في سر أن الأطماع التي يخلقها نظام الملكية تكون على أشدها مرارة وأدومها بقاء في الطبقات الوسطى، فلما يهتّم الفقراء بما يمتلكون، لأن ما يعانونه من فقدان ما ليس عندهم أكثر مما يستمتعون بالقليل الذي لديهم، أما الأغنياء فلدائم أطماع أخرى كثيرة غير حب المال بهمهم أن يشبعوها.

وفضلاً عن ذلك فطول عهدهم بالاستمتاع المجهد بثروات طائلة، قد ينتهي في بعض الأحيان بأن يجعلهم لا يحسون بما في الثروة من مفاخر. أما الذين عندهم ما يكفهم من الثروة، من غير أن يدخلهم في زمرة الأغنياء. ولا في عداد الفقراء، فيجعلون لممتلكاتهم قيمة كبيرة. وإذا كانوا لا يزالون غير بعيدين عن الفقر. صاروا يدركون قسوته من كتب، فيستولون عليهم الفزع من العودة إليه. إذ ليس بين الغنى والفقر سوى قليل من الثروة في أيديهم، ولا غرو أن جعلوا يعلقون على هذا القليل مخاوفهم وأمالهم. فكل يوم يمر بهم يزيدهم حرصاً عليه واهتماماً له، لما يحدثه لهم من هم مقيم متواصل من جهة، ومن جهة أخرى فإن الجهود التي يبذلونها في الحصول عليه تزيدهم تعلقاً به. ففكرة النزول عن أدنى جزء من ثروتهم، فكرة لا يستطيعونها ولا يطيقون احتمالها، أما فكرة ضياع ثروتهم كلها، فهي في نظرهم، أفدح كارثة يمكن أن تحل بهم.

والآن، فإن هؤلاء المواطنين المتلهفين المتخوفين ذوي الملكيات الصغيرة، هم الطبقة التي تزداد باستمرار من جراء تعادل الأحوال الاجتماعية. فغالبية الناس في الجماعات الديمقراطية، لا يرون إذن بوضوح ماذا يرغبون من جراء قيام ثورة ما في البلاد، ولكنهم يشعرون دائماً وبطرق شتى عديدة بأنهم سيكونون الخاسرين إذا ما حدثت ثورة بينهم.

وذكرت في موضع آخر من هذا الكتاب أن المساواة في الأحوال الاجتماعية تدفع الإنسان بطبيعة الحال إلى المغامرة في الأعمال التجارية والصناعية، وأنها تعمل على زيادة الملكية العقارية، وعلى زيادة توزيعها بين المواطنين، وكذلك سبق أن أشرت إلى الوسائل التي توحى بها إلى كل إنسان برغبة قوية دائمة في العمل على زيادة الوسائل التي تسعده، وليس ثمة شيء أكثر مقاومة للميول الثورية من هذه الأشياء. نعم قد يحدث أن تجيء النتيجة

النهائية لثورة ما في مصلحة التجارة والصناعة، ولكن أولى نتائج هذه الثورة أنها تؤدي دائماً إلى خراب أرباب المصانع والتاجر؛ لأنها تؤدي حتماً إلى تغييرات في نظم الاستهلاك العامة، وتقلب مؤقناً النسبة القائمة بين العرض والطلب .

ولست أعرف شيئاً يتعارض مع الاتجاهات الثورية أكثر من التجارة؛ فهي تنفر بطبيعتها من جميع الأهواء العنيفة، وتميل إلى المسايرة والمداهنة، وإلى مقابلة العملاء في منتصف الطريق، والرضى بأنصاف الحلول - وتحرص جاهدة على تجنب الغضب والتهيج . فمن مستلزمات التجارة الصبر والإيحاء والمرونة، ولا تلجأ أبداً إلى اتخاذ إجراءات متطرفة حاسمة إلا إذا اضطرتها إلى ذلك الضرورة القصوى، فالتجارة تجعل الناس مستقلين بعضهم عن بعض، وتبث فيهم فكرة عالية عن قيمتهم الشخصية، وتدفعهم إلى العمل على أن يظلموا بإدارة شئونهم الخاصة بأنفسهم على خير وجه؛ فهي تهيب الناس للحرية إذن، ولكنها تبعدهم عن التعرض للثورات .

فأصحاب الأموال المنقولة أولى الناس إذن بالتخوف فعلاً من قيام الثورات، إذ فيها كثير من الفرض للاستيلاء على أملاكهم وأموالهم، هذا ومن جهة أخرى، فإن هذه الأملاك قد تختفي كلها فجأة في أية لحظة - وهو مصدر فزع كبير لهم، على حين أن أصحاب الأملاك العينية، أقل تعرضاً منهم لمثل هذا الفزع لأنهم، على الرغم مما يخسرون من غلات ضياعهم، يأملون أن يظلوا يحتفظون برقاب الضياع نفسها، حتى في أشد الأحوال تقلباً واضطراباً . ومن ثم كان الفزع يستولى على الأولين بأكثر مما يستولى على غيرهم عند ظهور بوادر الحركة الثورية . وعلى هذا، كانت الأمم أقل ميلاً إلى قيام الثورات فيها كلما ازدادت الأموال المنقولة، وكلما ازداد توزيعها على المواطنين فيها .

وفضلاً عن ذلك، فأياً كانت الحرفة التي يحترفها الناس، وأياً كان نوع الأموال التي في حيازتهم، فثم سمة واحدة يشتركون فيها جميعاً، فليس منهم أحد يرضى كل الرضى بما في يديه من الثروة فعلاً، بل كلهم يسعون باستمرار، وبآلاف من الطرق المختلفة، وراء الحصول على المزيد منها، وما عليك إلا أن تتأمل واحداً منهم في أية مرحلة من مراحل حياته، تجده مشغولاً بمخطط جديدة وبمشروعات جديدة ليزيد بها ما لديه من ثراء . وإياك أن تتحدث إليه عن ضرورة رعايته لحقوق الإنسان ومصالحه، فعمله الخاص به يستغرق كل أفكاره مؤقناً ويجعله يرجو أن يؤجل مهام السياسة المثيرة إلى وقت آخر . وهذا لا يمنع الناس فقط من القيام بأية ثورات فحسب، بل يمنعمهم كذلك من أن يفكروا في أن يرغبوا فيها . فالأهواء السياسية العنيفة لا تعنى كثيراً أولئك الذين كرسوا كل همهم للحصول على ما يوفر لهم الرفاهية والسعادة الشخصية، فالحماسة التي يبذلونها في صفار الأمور تهديء من شدة تحمسهم للقيام بالمشروعات الخطيرة الجسام .

هذا، وقد يظهر حقاً في الجماعات الديمقراطية، من وقت لآخر، رجال مغامرون

طموحون تأتي عليهم ما معهم الواسعة التي لا تحُد، أن يسلكوا الطريق الممهود الذي يطرقه سائر الناس عادة. فأمثال هؤلاء الناس هم الذين يحبون الثورات ويرحبون بها، ولكنهم يجدون مشقة كبيرة في العمل على إحداثها. اللهم إلا إذا حدثت أمور غير عادية تعاونهم على إطلاقها. فليس ثمة رجل يستطيع أن يناضل وحده ضد روح عصره، وضد روح بلاده ثم يكمل نضاله ضدهما بالنجاح. فمهما ظن به الناس القدرة والكفاية، فسيجد أن حمل معاصريه على أن يشاركوه شعوره وآراءه أمر من الصعوبة بمكان، مادامت هذه المشاعر وتلك الآراء تتنافى مع مشاعرهم ومع رغباتهم.

فمن الخطأ أن نعتقد أنه إذا ما صارت المساواة في الأمور الاجتماعية هي حالة المجتمع المستقرة التي لم يعد يتنازع فيها اثنان؛ والتي أفاضت سماتها على عادات الأمة الأخلاقية، وأن يترك الناس أنفسهم بسهولة في أيدي زعيم متهور، أو لمجدد جرىء يدفع بهم في مغامرات محفوفة بالأخطار. وليس معنى هذا أنهم سيقاومونه مقاومة صريحة سافرة، ويخطط أحكموا وضعها، أو بنظام يتوه بلبيل من قبل. فهم لا يجاهدون ضده بقوة ونشاط، بل قد يصفقون له أحيانا ويكيلون له التناء. ولكنهم مع ذلك لا يتبعونه، بل يردون على عتفه في تحمسه لمقاصده بأن يعارضوه سرا بما يدونه له من جود وسلبية، ويقابلون نزعاته الثورية بالاستمسك بمصالحهم التليدة المحافظة. ويقاومون أهواءه المغامرة بأذواقهم البسيطة، وتحليقات عبقريته بدوقهم السليم. ويواجهون شعره بنثرهم. نعم إنه قد يوفق بعد جهد جهيد. فينجح في إثارتهم لحظة قصيرة. ولكنهم سرعان ما يفلتون من قبضته ويعودون إلى ما كانوا عليه. إنه ليبدل قصارى جهده في أن يستثير ذلك الجمهور غير المكترث المشتت الأفكار؛ وأخيرا يجد أنه قد أضحي عاجزا لا حول له ولا قوة؛ لأنه هزم واندهر. بل لأنه أصبح في الميدان وحيدا يناضل بمفرده.

لست أؤكد هنا أن الناس الذين يعيشون في الجماعات الديمقراطية يكونون بطبيعة أحوالهم جامدين لا يتطورون، بل أرى. على العكس. أن ثمة حركة دائمة في صميم هذه الجماعات، وأن الراحة لا تعرف إليهم سبيلا. ولكنني أعتقد أن الناس فيها قد ينشطون ويتحركون في نطاق حدود معينة، يكادون لا يتجاوزونها أبدا، فهم دائبون باستمرار على تغيير الأمور الثانوية وتبديلها ثم إعادتها إلى ما كانت عليه؛ أما الأمور الأساسية فيحرصون كل الحرص على ألا يمسوها مجال من الأحوال. فهم يحبون التغيير إلا أنهم يخشون الانقلابات والثورات.

وعلى الرغم من أن الأمريكيين يعملون باستمرار على تعديل بعض قوانينهم أو إلغاءها، فهم بعيدون كل البعد عن إظهار أية ميول ثورية. وليس من العسر علينا أن ندرك من السرعة التي بها يكبحون أنفسهم ويهدنونها، عندما يأخذ اضطراب الجمهور أن يهدد بالشتر ويصبح مصدر فزع، وفي اللحظة التي تبدو فيها شهوات الناس قد بلغت أقصاها

من الثوران - أن ندرك أنهم يخشون الثورة من حيث هي أفدح كارثة يمكن أن تصيهم، وأن كل واحد منهم قد عقد العزم بينه وبين نفسه، على أن يضحى بالكثير في سبيل تجنب وقوع مثل هذه الكارثة. وليس في العالم كله بلد يتجلى فيه حب الناس للملكية بأنشط وبأكثر قلقاً مما يتجلى في الولايات المتحدة؛ ولا يوجد كذلك بلد تبتدى فيه الغالية ميلاً إلى المبادئ التي تهدد بتغيير قوانين الملكية (على أية صورة كان ذلك التغيير) أقل مما تبتديه الغالية في الولايات المتحدة.

كثيراً ما أشرت إلى أنه لما كانت النظريات ذات الطبيعة الثورية لا تتحقق إلا بإحداث تغيير كامل في أحوال الملكية وفي أحوال الأشخاص أنفسهم، وهو تغيير قد يكون فجائياً في بعض الأحيان - فإن هذه النظريات غير مرغوب فيها في الولايات المتحدة، حيث الناس ينفرون منها بقدر ما تنفر الدول الملكية في أوروبا، فإن أمن بها نفر من الناس فالجمهرة الكبرى من الشعب تأبأها وترفضها بنوع من الفزع يكاد يكون فطرياً فيهم، ولست أخشى أن أقول إن الشطر الأكبر من المبادئ التي يسمونها في فرنسا؛ ديمقراطية عادة، تأبأها ديمقراطية الولايات المتحدة وتحرم دخولها بلادها. وليس ذلك بغريب، فأراء الناس وميولهم في أمريكا ديمقراطية، أما في أوروبا فلا زالت عندنا أهواء ثورية وآراء ثورية.

فلو حدث أن قامت ثورات عنيفة في أمريكا، لكان ذلك من جراء وجود الزوج في أراضي الولايات المتحدة؛ أي أن المساواة في الأحوال الاجتماعية ليست هي التي ستؤدي إلى تلك الثورات، بل على العكس من ذلك، فإن التفاوت - عدم المساواة - هو الذي سيؤدي إليها.

فعندما يتساوى الناس في أحوالهم الاجتماعية، يميل كل امرئ إلى قصر نفسه على الاهتمام بشئونه الخاصة وحدها، وينسى مصالح الشعب العامة، فإن لم يعن المشترعون في الأمم الديمقراطية بالعمل على تعديل هذه النزعة الخبيثة وراء أهوائهم السياسية وبذلك يمنعون قيام الثورات - فقد ينتهي الأمر بهؤلاء المشترعين إلى إيجاد هذا الشر نفسه الذي أرادوا أن يتفادوه. وقد يأتي وقت تنور فيه النزعات العارمة التي تضطرم في نفوس أقلية من المواطنين، تؤيدهم أثرة الغالية العمياء، أو ضيق ألقها العقلي، وبذلك يعرضون الجماعة كلها لمعاناة تقلبات وتصرفات غريبة. والحق أنه لم يعد في المجتمعات الديمقراطية أقليات صغار ترغب في قيام الثورات، ولكن هذه الأقليات قد تتجح أحياناً في إشعال نيرانها.

ليس معنى هذا أني أقول إن الأمم الديمقراطية بمنجى من الثورات، بل أقول إن أحوال المجتمع في تلك الأمم لا تؤدي إليها، ولكنها تعمل على تحاشيها، فإن تركت الأمم الديمقراطية وشأنها تعذر عليها أن تقامر وتبقى بنفسها في غمار مخاطرات كبيرة؛ وهي لا تمضى إلى الثورة أبداً وهي واعية متفطنة. نعم إنها قد تعانى الثورات أحياناً ولكنها ثورات ليست

من صنع يدها في شيء، وأزيد على ذلك أنه إذا ما تيسر للأمة الديمقراطية الحصول على الكفاية من العلم والخبرة فلن تسمح للثورات أن تقوم فيها .

هذا، ولم يفتنى أن المؤسسات نفسها تستطيع أن تعمل الكثير في هذه الناحية، ففي مقدورها أن تساند النزعات التي تنشأ عن حالة المجتمع، أو أن تكبحها، ومن ثم أعود وأكرر أنى لأعتقد أن الشعب، يكون بمأمن من الثورات مجرد أن أحوال الناس العامة الاجتماعية متساوية، ولكنى أرى أياً كانت المؤسسات التي في مثل هذا الشعب، أن حدوث الثورات الكبرى سيكون دائماً أقل عدداً مما يتصوره الناس عادة. ومن السهولة بمكان أن أفترض نظاماً سياسياً إذا ما اتحد بمبدأ المساواة. جعل المجتمع، في هذا الجزء من العالم الغربي الذي نعيش فيه، أثبت مما كان عليه في أى وقت من الأوقات .

إن ما ذكرته توأ بشأن الأحداث الواقعة، ليصدق إلى حد ما على الآراء والأفكار، فثم شيان في الولايات المتحدة يثيران الدهشة: كثرة التغيير الذى يعثور معظم أعمال الإنسان، وثبات بعض المبادئ المعينة ثباتاً عجباً. فالناس يتحركون في غير انقطاع، على حين يبدو العقل البشرى جامداً لا يتحرك. فإن حدث أن انتشر في البلاد رأى معين حتى تأصلت جذوره ورسخت في تربتها، خيل إلينا أنه لا توجد قوة على الأرض تستطيع أن تقتلعه منها .

ففى الولايات المتحدة نجد المبادئ العامة في الدين والفلسفة والأخلاق، بل وفي السياسة، لا تتغير، أو أنها لا تتعدل على الأقل إلا بعد مساع عدة تبذل في الخفاء وكثيراً ما تكون غير محسوسة، وحتى أحسن ضروب التعصب نفسها لا تنمحي إلا ببطء شديد يكاد لا يصدقه أحد وسط تلك الاحتكاكات المستمرة بين الأشياء والناس مئات المرات .

بلغنى أن ثمة من يقولون بأنه من طبيعة الديمقراطيات وعاداتها، أنها دائماً بصدد تغيير آرائها ومشاعرها؛ وهو قول يصدق على الأمم الديمقراطية الصغيرة مثل ديمقراطيات العالم القديم، حيث تستطيع الجماعة أن تجتمع كلها في ميدان عام، وعندئذ يصح أن تتأثر بالخطيب وأن تتفعل به بحسب مشيئته. ولكنى لم أر شيئاً من هذا القبيل في الشعب الديمقراطى العظيم الذى يقطن العدو الأخرى من المحيط الأطلسى. لقد استنارت دهشتى في الولايات المتحدة صعوبة زحزحة الغالية عن رأى اعتقته، وإبعادها عن الوفاء لزعيم اختارته. فلا الخطابة ولا الكتابة مجدية معهم شيئاً في هذه الناحية، فلا يفيد فيها غير الخبرة؛ وهذه الخبرة نفسها يجب أن تتكرر في كثير من الأحيان .

قد يستثير فينا هذا الأمر الدهشة لأول وهلة ولكننا إن أنعمنا فيه النظر لم يلبث السبب أن يتجلى لنا واضحاً، فليس من السهولة بمكان كما خيل لكثير من الناس، أن نستأصل ما يتعصب له شعب ديمقراطى، ولا أن نغير من معتقداته، أو نخل مبادئ جديدة في الدين أو السياسة أو الأخلاق محل أخرى قديمة سبق أن تقرررت في نفسه ورسخت من قبل. وجملة

القول، ليس من الهين استحداث تغييرات عظيمة متكررة في عقول الناس في البلاد الديمقراطية، لا لأن العقل البشرى فيها قد استقر أمره فجمد، بل هو، على العكس من ذلك، في استتارة مستمرة، لأنه أصبح مشغولاً بتغيير نتائج معلومة تغييراً لا يقف عند حد، وبأن يستكشف نتائج أخرى غيرها، بدلاً من أن يسعى وراء التوصل إلى مبادئ جديدة. فهو يظل يدور في حركة سريعة حول نفسه، بدلاً من أن يندفع قدماً بجهود مباشرة وسريعة، فهو يوسع مجاله بعد أن يتحرك حركات صغيرة سريعة باستمرار ولكنه لا يغير موضعه فجأة .

فإذا ما تساوى الناس في الحقوق، وفي التعليم، والثروة، أو إذا ما تساوا في أحوالهم الاجتماعية، كانت لهم احتياجات وعادات وأذواق واحدة لا تختلف في كثير، فإذا كانوا ينظرون إلى الأمور من زاوية واحدة اتجهت عقولهم بطبيعة الحال إلى استنباط نتائج مشابهة، ومع أن كل واحد منهم قد ينحرف عن معاصريه بعض الانحراف، ويتخذ لنفسه آراء خاصة فلا بد أنهم سيتفقون قسراً، وعلى غير تفتن منهم، على طائفة معينة من الآراء المشتركة بينهم. فكلما أنعمت نظرى في تأثير المساواة في العقل ازدادت إيماناً بأن الفوضى العقلية الضاربة أطنابها بين ظهرانينا ليست، كما خيل إلى كثيرين، بالحالة الطبيعية في الأمم الديمقراطية، والأولى بنا أن نعدها أمراً عارضاً اقتضاه شباب تلك الأمم، وأنها لا تظهر إلا في مرحلة الانتقال هذه عندما يكون الناس قد قطعوا الصلات التي كانت تربطهم بعضهم ببعض، ويظنون مع ذلك يختلفون اختلافاً كبيراً بسبب الأصل والثقافة والأخلاق، فبعد أن يكونوا قد احتفظوا بآراء ونزعات وأذواق شتى، منوعة كل التنوع، واستمسكوا بها، لم يعد هناك ما يمنعهم من أن يعترفوا بها ويبدوها صراحة وعلناً. فأراء الناس الرئيسية تزداد تشابهاً بازدياد تشابه أحوالهم الاجتماعية: هذه هي في رأبي، القاعدة العامة الخالدة، أما ما عداها فعرضى زائل .

يندر أن يحدث لأى شخص في جماعة ديمقراطية، أن يكون لنفسه فجأة نظاماً من الآراء يختلف كل الاختلاف عن النظام الذى يسير عليه أهل عصره، وحتى إن فرضنا وجود مثل هذا المبتكر المجدد فإنى أخشى عليه من أن يصادف في طريقه عقبات شداداً في أن يجعل الناس يصغون إليه ويستمعون كل ما يقول . وأصعب من ذلك أن عليه أن يقتنع بصحة آرائه، فعندما تتعادل أحوال الناس الاجتماعية لم يك سهلاً على أحد منهم أن يقتنع بما يقوله غيره . ولما كانوا يعيشون جميعاً متصلين بعضهم ببعض، وقد تعلموا معاً أشياء واحدة وصاروا يجيئون حياة واحدة، فقد صاروا لا يميلون بطبيعة الحال إلى أن يتخذوا واحداً منهم هادياً لهم يتبعونه ويطيعونه الطاعة العمياء، فمن المتعذر على الناس في مثل هذه الأحوال أن يتقوا برأى واحد منهم مساو لهم .

وليست الثقة بالمواهب السامية التي لبعض أفراد معينين ناهين، هي التي تضعف

في الأمم الديمقراطية فحسب كما أوضحت في موضع آخر في هذا الكتاب، بل إن فكرة التفوق الذهني العامة التي قد يتميز بها واحد منهم على سائر الناس لا تلبث أن تنطمس . وكلما ازداد الناس تعادلاً وتمائلاً، تسرب إلى آرائهم شيئاً فشيئاً الاعتقاد بالمساواة في العقول والذكاء، وصار من العسير على أي مجدد أو مبتكر . أيا كان، أن ينال سلطاناً عظيماً على عقول الشعب . ففي مثل هذه الشعوب تصبح الثورات العقلية المباحثة نادرة . فإن ألقينا نظرة على تاريخ العالم لنتضح لنا أن الثغرات الكبيرة السريعة التي حدثت في عقول البشر إنما ترجع إلى ما لاسم معين من قوة التأثير ، أكثر مما ترجع إلى قوة التفكير والاستدلال .

ويجب أن نلاحظ كذلك ، أن الذين يعيشون في مجتمعات ديمقراطية لا يرتبط بعضهم ببعض بأية رابطة قوية، ومن ثم وجب أن يقنع كل منهم على حدة؛ أما في المجتمعات الأرستقراطية فحسبنا أن نؤثر في عقول عدد صغير من الناس حتى يسارع الآخرون إلى اتباعهم . فلو أن لوثر عاش في عصر المساواة، ولم يكن بين الذي استمعوا إلى مقالته أمراء ورجال من ذوى النفوذ والسلطان ، لكان من المحتمل أن يجد أن تغيير وجه أوروبا أصعب مما وجد .

وليس ذلك لأن الناس في الدول الديمقراطية موقنون كل الإيقان بصحة آرائهم . أو لا يتزحزحون عن معتقداتهم، فكثيراً ما تساورهم الشكوك فيها ، وهي شكوك يرون أن أحداً لا يستطيع أن يزيلها عنهم ويريجهم منها . هذا . وقد يحدث في هذه الأوقات أن يدل العقل البشرى موقفه راضياً، ولكن عندما يجد شيئاً عديده . أو يدفعه قدماً باستمرار ، فإنه يظل يتأرجح حيث هو من غير أن يتحرك ويتقدم خطوة إلى الأمام .

وحتى إذا تم لامرء أن يكتسب ثقة الشعب الديمقراطي . فما زال أمامه أن يجتذب إليه انتباههم، وهو أمر شاق . فمن الصعوبة بمكان أن تسترعى آذان قوم يعيشون في بلاد ديمقراطية إلا إذا كنت تتحدث إليهم عن أنفسهم هم . فهم غافلون عما يقال عن غيرهم لأنهم منهمكون دائماً فيما هم بصدده من أشغال . وفي الحق أنك لا تجذب في الأمم الديمقراطية من الكسالى سوى قلة ضئيلة . فالناس هنا يعيشون وسط حركة صاخبة لا تنقطع ؛ فلا غرو إن هم انهمكوا كل الانهماك في أعمالهم حتى لم يعد لديهم من وقت للتفكير والتأمل سوى النزر اليسير . ويعنى أن أشير هنا بوجه خاص إلى أنهم ليسوا مشغولين فحسب . بل إنهم يقدمون على ما يشتغلون به بكل حماسة وإخلاص . فهم دائماً في عمل، وكل عمل يقومون به يستغرق كل قواهم وكل عقولهم : فما يدون فيه من غيرة لا يبدع لهم مجالاً للتحمس للأمور العقلية . وفي رأبي أن استشارة حماسة شعب ديمقراطي لأية نظرية لاتصل اتصالاً محسوساً ومباشراً بشئون حياتهم اليومية . لأمر من أشق الأمور . وهذا ما يجعلهم يستمسكون بآرائهم القديمة ولا ينزلون عنها بسهولة، فالحماسة وحدها

هى التى تدفع العقل البشرى إلى أن يجيد عن المسالك المطروقة، والحماسة هى التى تستحدث الانقلابات الكبرى فى الأمور العقلية كما تستحدث الثورات السياسية الجارفة .

وهكذا لا يكون لدى الأمم الديمقراطية الوقت، ولا الميل للبحث عن آراء جديدة، وإن ساورتهم الشكوك بشأن ما لديهم من آراء فإنهم يظنون يستمسكون بآرائهم مادام تغييرها يقتضيم وقعاً طويلاً وبحوثاً مستفيضة، ولذا تراهم يعتصمون بها لاعلى أنها آراء يقينية مقطوع بصحتها، بل على أنها آراء مقرررة متفق عليها .

ومع ذلك فثم أسباب أقوى وأوجه تمنع أى تغيير فى مبادئ الشعب الديمقراطى من أن يتم فى سهولة ويسر. هذا، وقد سبق أن لفتنا النظر إلى هذه الحقيقة .

فإن كان نفوذ الفرد ضعيفاً لا يكاد يحس به أحد فى أمثال هذه الشعوب الديمقراطية: فالقوة التى يمارسها المجموع على كل فرد عظيمة بالغة التأثير. هذا، وقد سبق أن أوضحنا الأسباب الداعية إلى ذلك، فحسبى أن أقول إنه من الخطأ أن نتصور أن هذا الأمر يتوقف على شكل الحكومة وحده، وأن الأغلبية ستفقد سلطانها على العقل إن هى فقدت سلطتها السياسية .

وكثيراً ما يكون للأفراد فى البلاد الأرستقراطية عظمة وقوة كبيرتان فى أنفسهم، فإن وجدوا أنهم فى خلاف مع الأغلبية العظمى من بنى وطنهم انسحبوا عنهم واقتصروا على دائرتهم الخاصة بهم، حيث يظنون فيها يساندون بعضهم بعضاً ويعززون بعضهم بعضا. وليست الحال كذلك فى البلاد الديمقراطية، ففيها يبدو أن رضى الشعب أمر لاغنى عنه، شأنه فى ذلك شأن الهواء الذى تستنشقه، فأن نضل نحيا فى خلاف مع الشعب معناه ألانحيا مطلقاً، فليس الجمهور بحاجة إلى القانون يستعين به على إكراه أولئك الذين يخالفونه، على أن يفكروا مثل تفكيره، بل حسبه أن يستهجنهم؛ وعندئذ يلاحقهم الشعور بالوحدة والانعزال حتى يدفعهم إلى اليأس .

وكلما تساوت الأحوال الاجتماعية ضغط الرأى العام بقوة عظيمة على عقل كل فرد من الأفراد، فيحيط به، ويوجهه ويستبد به. وينشأ هذا كله من نفس بنية المجتمع وتكوينه ذاته، أكثر مما ينشأ من قوانينه السياسية. وكلما ازداد الناس تائماً شعور كل فرد منهم بأنه ضعيف كل الضعف بإزاء المجموع؛ وإذا لا يرى له وسيلة ما يستطيع بها أن يرتفع ارتفاعاً عظيماً عن مستوى الناس، ويتميز بها عليهم، فقد الثقة بنفسه حالما يهاجمونه. وهو لا يثق بقوته فحسب، بل إنه ليتشكك حتى فيما له من حقوق، ويكاد يعترف بأنه على خطأ عندما تؤكد الجمهرة الكبرى من بنى وطنه أنه كذلك. فلا حاجة إذن لهذه الأغلبية إلى إجباره، بل حسبها أن تقنعه فيقتنع. فعلى أى شكل تنظم سلطات الجماعة الديمقراطية، ويوازن بعضها ببعض، فإنه سيظل أمراً شاقاً دائماً كل المشقة أن نعتقد بصحة شىء أجمعنا الكثرة الكاثرة من الشعب على رفضه، أو أن نأخذ بما سبق أن استنكرته ونددت به .

ويعاون هذا الطرف كل المعاونة على استقرار المعتقدات والآراء. فإذا ما حدث أن رسخ رأى ما في شعب ديمقراطى، واستقر في أذهان الأغلبية منه. ظل باقياً فيهم بقوته الذاتية، فلا يكلفهم الاستمسك به والحفاظة عليه أى جهد أو مشقة، لأنه لم يعترض عليه أحد. أما أولئك الذين رفضوه بادية ذى بدء بحجة أنه رأى زائف، فسيتهى بهم الأمر أن يقبلوه على أنه مجرد انطباع عام، وأما أولئك الذين لا يفتأون يتنازعون فيه في سريرتهم، فإنهم سيخفون أمر عدم موافقتهم عليه عن الناس، ويحرصون على ألا يخوضوا معركة خطيرة لاجدوى منها ولا طائل تحتها.

حقاً إن غالبية الشعب الديمقراطى إذا ما غيرت آراءها، قد تقوم فجأة وبشكل تحكمى، وتحدث ثورات غريبة في عقول الناس. ولكن آراء هؤلاء لا تتغير إلا بكل مشقة، كما يصعب كذلك على أحد أن يبين أنها تغيرت.

وقد يحدث أن يعمل الزمن، وتعمل الأحداث، أو أن يعمل العقل وحده ومن تلقاء نفسه، على زعزعة رأى معين، أو على نقضه تدريجياً من أساسه. من غير أن تبدو أية أمارة بارزة تدل على ما حدث من التغيير. فمثل هذا الرأى لم يهاجم بصورة سافرة ولم يتألب الناس ويتفقوا على شن حرب عليه. وإنما يظل أتباعه يتراجعون عنه باستمرار واحداً بعد واحد، وفي غير ضجة ظاهرة، فلا يكاد يمر يوم دون أن يتركه نفر من أتباعه، حتى لا يتبقى وقياً له سوى أقلية ضئيلة. ومع ذلك كله يظل قائماً على هذه الحالة. وإذا كان أعداؤه يلتزمون الصمت، ولا يتبادلون أفكارهم بشأنه إلا خلسة، فيظلون هم أنفسهم زمناً طويلاً من غير أن يدركوا أن ثورة كبرى قد حدثت فعلاً. وفي هذه الحالة من الشك وعدم التأكد، لا يتخذون أى إجراء. بل يستمر كل واحد منهم يلاحظ الآخر وهو ملتزم الصمت. فلم تعد الأغلبية تؤمن بما كانت تؤمن به من قبل، ولكنها تظل تتظاهر بالاعتقاد؛ فشبح الرأى العام هذا يظل قوياً حتى إنه ليكفى لإخماد أصوات القائلين بالتجديد، ويكرههم على الاستمسك بأهداب الصمت. ويستبقهم بعيدين عنه.

لا يخفى أنا نعيش في عصر شهد أسرع التغيرات التى حدثت في آراء البشر الرئيسية واستقرت في نفوسهم، ومع ذلك فقد يحدث أن تستقر آراء البشر الرئيسية بعد قليل، وتكون أكثر استقراراً عما كانت عليه من عدة قرون من تاريخنا، ولكن هذا الوقت لم يكن بعد، ولعله قريب. فكلما أمعنت في الفحص عن احتياجات الأمم الديمقراطية ونزعاتها الطبيعية اقتنعت بأن المساواة الاجتماعية إذا ما رسخت في العالم واستقرت فيه بشكل عام دائم، أصبح قيام الثورات الكبرى، عقلية كانت أو سياسية. أقل وأصعب مما يتوهمون. ذلك لأن الناس في البلاد الديمقراطية يدون دائماً مستارين، غير واثقين من شيء، متلهفين ومتقبلين في إرادتهم وفي مراكزهم، حتى ليخيل إلينا أنهم يسارعون إلى إلغاء قوانينهم فجأة، وإلى اعتناق آراء جديدة، وأداب جديدة في السلوك، ولكن إن كان مبدأ

المساواة يجعلهم ميالين إلى التغيير، فإنه يوحى إليهم كذلك بمصالح معينة وبأذواق معينة، لا يتسنى إرضائها إلا إذا استقر الأمر واستقرت الأحوال في البلاد. فالمساواة تدفعهم قدماً، ولكنها كذلك تكبحهم، فهي تحفزهم، ولكنها تقيدهم بالأرض، وتحرك رغباتهم وتلهبها، إلا أنها تحد من قواهم .

على أن هذا الذي لا يدرك مع ذلك لأول وهلة، هو أن الأهواء التي تؤدي إلى فصل المواطنين بعضهم عن بعض في الديمقراطية واضحة جلية، أما القوة الخفية التي تكبحهم، وتجمع شملهم فلا يمكن أن تدرك في طرفة عين .

فهل لي أن أجزؤ وأقول، وهذه الأنقاض والخرائب تحيط بي من كل جانب، إن الثورات ليست بأخوف ما أخافه على الأجيال المقبلة؟ فإن ظل الناس يقصرون أنفسهم باستمرار على دائرة مصالحهم العائلية الضيقة، وظلوا يعيشون في قلق، وتبيح باستمرار، يخشى أن ينتهي بهم الأمر فيتعذر أن تصل إليهم تلك الوجدانات العامة العنيفة، التي تستثير الشعوب، لكنها مع ذلك ترقبها وتعبثها . وعندما تصبح أحوال الملكية متقلبة متذبذبة، ومحبة اقتنائها قلقة متوهجة في النفوس؛ لا يسعني إلا أن أخشى على الناس أن يصبحوا في حالة يرون فيها كل نظرية جديدة خطراً عليهم، وكل تجديد عملاً شاقاً مجهداً، وكل تحسين اجتماعي خطوة نحو الثورة، وعندئذ يابون أن يتقدموا مخافة أن يتحركوا إلى أبعد مما ينبغي أن يتحركوا. إنني لأخاف عليهم، وأعترف بأن أخاف عليهم فعلاً - من أن ينتهي بهم الأمر أن يستسلموا استسلاماً مطلقاً إلى ميل خسيس - إلى الملذات العاجلة، ويففلوا المصالح الآجلة - ومصالح الأجيال المقبلة - ويؤثروا أن يسبوا مع التيار الحالّي السهل، على أن يعمدوا إلى جهود قوية عاجلة يبدلون في سبيل الوصول إلى غرض أسمي، إذا ما اقتضت الحال .

ومن الناس من يرون أن ملامح المجتمعات الحديثة وشكلها، ستظل في تغير دائم، أما أنا فأخشى أن ينتهي بها الأمر، أن تبقى ثابتة لا تتطور، وتجمد على المؤسسات نفسها، وعلى ضروب الانحياز التي تعصب لها، والعادات والآداب التي جرت عليها، حتى إن البشرية لتتوقف عن التقدم وتظل جامدة حيث هي، ويظل العقل يتأرجح دائماً بين أمام وخلف دون أن تنشأ عن تحركه هذا أى أفكار جدد، وسيضيع الإنسان قوته سدى في توافه مبعثرة غير مجدية، فعلى الرغم من أن الإنسانية في حركة متصلة لا تنقطع، فإنها ستظل راكدة لا تتقدم .

## الفصل الثاني والعشرون

# الأم الديمقراطية راغبة في السلام على حين ترغب جيوشها في الحرب

الخاوف والمصالح والأهواء نفسها التي تمنع الأمم الديمقراطية من القيام بالثورات، تمنعها كذلك من الإقدام على شن الحروب. فروح التطلع إلى المجد الحربي وروح الثورة تضعفان كلتاهما في وقت واحد ولأسباب واحدة. هذا، وتزايد عدد الملوك - وهم أنصار السلام عادة - وازدياد الثروات الشخصية، التي سرعان ما تلتهمها الحروب، والتلطف في آداب السلوك، ورقة القلب، وتلك الميول إلى الشفقة التي يستدعيها تساوى الناس في أحوالهم الاجتماعية، والتروى في التفهم الذي يجعل الناس لا يتأثرون نسيباً بالانفعالات العييفة والخيالية التي تستثيرها الحروب في نفوس الجند - كل هذه الأسباب تتضافر على إخماد الروح الحربية. وفي رأيي؛ إننا نستطيع أن نضع قاعدة عامة ودائمة، نسلم بها جميعاً وهي أنه كلما تزايد تساوى الناس في الأحوال الاجتماعية في البلاد المتحضرة، صارت النزعات الحربية فيهم أكثر ندرة وأقل حدة.

ومع ذلك فالحرب أمر تتعرض له جميع الأمم الديمقراطية منها وغير الديمقراطية. ومهما كانت ميولها تتجه إلى السلام، فعليها أن تعد نفسها لرد أى اعتداء يقع عليها، وبعبارة أخرى، يجب أن يكون عندها جيش قائم. فالخط الذي أتاح لسكان الولايات المتحدة منافع كثيرة خاصة بهم، ألقى بهم وسط مفاوز وقفار لا جيران لهم فيها (إذا جاز لنا هذا التعبير) فحسبهم بضعة آلاف من الجند لسد كل احتياجاتهم الدفاعية. ولكن هذا شيء من طبيعة أمريكا. وليس من طبيعة الديمقراطية.

فتساوى الأحوال الاجتماعية. وما يترتب عليه من آداب أخلاقية ومن مؤسسات، لا يعفى الشعب الديمقراطى من وجوب احتفاظه بجيش قائم، ولما كان لجيوش الأمم الديمقراطية نفوذ قوى يؤثر دائماً في مصائرها. فمن الأهمية لنا بمكان أن نتعرف تلك النزعات الطبيعية التي تحرك الناس الذين تتكون منهم هذه الجيوش.

لا يخفى أن جيوش الأمم الأرستقراطية، تلك التي يعد فيها الأصل والنسب أساس

الرتب الوحيد، يوجد فيها التفاوت الذى نجده فى الأمة، فالضباط فيها نبيل، أما الجندى فبعيد من عبيد الأرض. وعلى حين أن المطلوب من الأول أن يأمر وينهى، فالمطلوب من الثانى أن يذعن ويطيع. فمطامح الجندى فى الجيوش الأرسقراطية محصورة إذن فى نطاق ضيق، وليست مطامح الضباط نفسه مما لآحد له ولا نهاية. وليست الهيئة الأرسقراطية جزءاً من سلم الرتب والمقامات المعترف به فى الأمة فحسب، بل إن لها نفسها سلمها الخاص بها، فأعضاء هذه الهيئة (الأرسقراطية) موضوعون فى مراكز مرتبة ترتيباً تصاعدياً، درجات بعضها فوق بعض، وعلى نحو ثابت لا يختلف. فهذا رجل ولد ليقود فرقة وذلك ليقود سرية فحسب، وإذا ما وصل الواحد منهم إلى أقصى ما يأمله، توقف من تلقاء نفسه وقنع بما أصاب من خير.

وفضلاً عن ذلك فثمة سبب قوى يخفف من مطامح الضباط فى الترقى فى الجيوش الأرسقراطية، ذلك أن الضباط فضلاً عما يتمتع به من الرتبة العسكرية، فإنه يحتل فى هذه البلاد مكانة مرموقة فى المجتمع، وفى نظره ليست الأولى سوى أمر ثانوى لاحق بالأخيرة. فالنبيل الذى يحترف الجندية إنما يفعل ذلك عن شعور بواجهه الذى يفرضه عليه أصله ونسبه أكثر مما يفعله بدافع الطموح؛ فهو لم يلتحق بها إلا حباً فى أن يجد عملاً شريفاً يقضى فيه سنى شبابه، التى لولا ذلك لقضاها فى الفراغ والكسل، وكى يستطيع أيضاً أن يعود إلى أهله وأقرانه بطائفة من الذكريات عن الحياة فى الجيش. فليس غرضه الرئيسى من اختياره مهنة الجندى أن يحصل على أملاك أو جاه أو سلطة إذن، فهو حائز لكل هذه الميزات بطبيعة أحواله، ويستطيع أن يستمتع بها من غير أن يضطر إلى مغادرة أوطانه.

أما فى الجيوش الديمقراطية فكل جندى يمكن أن يصبح ضابطاً فى يوم ما، مما يجعل الرغبة فى الترقى عامة، ويجعل حدود المطامح الحرية تمتد إلى مدى بعيد يكاد لا يجد. فالضباط، من ناحيته، لا يرى بالطبع شيئاً ما يضطره إلى التوقف عند رغبة دون أخرى؛ فلكل رتبة أهميتها العظمى عنده، لأن مكانته فى المجتمع تكاد أن تكون متوقفة دائماً على رتبته فى الجيش. وكثيراً ما يحدث فى هذه الأمم الديمقراطية ألا يكون لدى الضباط أى أملاك خاصة، وبذلك يكون جل اعتياده على مرتبه وحده؛ فهو لا اعتبار له فى المجتمع إلا بسبب رتبته العسكرية، ومن ثم كان حظه يتغير بتغير رتبته، ويصبح كأنه رجل آخر خلق خلقاً جديداً. فما لم يكن فى نظر الضباط فى الجيش الأرسقراطى سوى أمر ثانوى بالنسبة لمركزه؛ يصبح فى الجيوش الديمقراطية الأمر الرئيسى للضباط، بل يصبح كل شىء فى حياته الاجتماعية، فى كيانه نفسه.

لقد كان الضباط الأرسقراطيون أيام الملكية الفرنسية القديمة يدعون دائماً بألقابهم ورتبهم التى ورثوها عن أجدادهم، أما فى أيامنا فقد صاروا يدعون برتبهم الحرية فحسب، فهذا التغيير الصغير فى أسلوب التعبير، يكفى للتدليل على أن ثورة ضخمة حدثت فى بنية المجتمع وفى نظام الجيش.

أما في الجيوش الديمقراطية فالرغبة في الترقى تكاد تكون عامة، وإنما لرغبة متقدمة، ملحة، دائمة، تغذيها سائر الرغبات الأخرى وتقويها، فهي رغبة لا تحمد إلا بمحمود الحياة نفسها. فمن السهل علينا أن نرى أن الجيوش التي يجب أن يكون الترقى فيها أبطأ ما يكون في أيام السلام، هي جيوش البلاد الديمقراطية وحدها. ولما كان عدد وظائف كبار الضباط محدوداً بطبيعة الحال، وعدد المتنافسين عليها كبيراً وقانون المساواة الصارم يقتضى أن يعامل الجميع على حد سواء، لم يكن لأحد أن يترقى بسرعة، بل إن الكثيرين لا يستطيعون أن يترقوا أبته. وهكذا يتضح لنا أن الرغبة في الترقى أعظم ما تكون في الجيوش الديمقراطية، وفرص الترقى أقل مما في جيوش البلاد الأخرى، فلا غرو إن كان جميع الطموحين الذين في الجيوش الديمقراطية متحمسين للحروب راغبين فيها كل الرغبة، إذ أنها تحدث أمكنة شاغرة يمكن أن يرقوا إليها، وتسوغ انتهاك حرمة ذلك القانون - قانون الأقدمية الصارم الذي يعد الميزة الطبيعية الوحيدة في الديمقراطية.

وهكذا وصلنا إلى حقيقة عجيبة: إن الجيوش الديمقراطية أشد تحمساً للحروب من أى جيوش أخرى في العالم كله، على حين أن الشعوب الديمقراطية أشد أم الأرض جميعاً حباً للسلام، ومما يجعل هذين الأمرين المتضارين أعجب وأغرب أنهما يحدثان في وقت واحد ومن جراء مبدأ واحد، هو مبدأ المساواة هذا.

ولما كان جميع المواطنين متساوين اجتماعياً، فكلهم يرغب دائماً في تحسين مركزه، وفي العمل على زيادة رفاهيته، فقد أدركوا جميعاً أن ذلك في الإمكان، وهذا مما يجعلهم يحبون الاستقرار والسلام، والسلام يعاون على ازدهار التجارة والصناعة. ويتيح لكل امرئ أن يظل يعمل في مشروعاته الصغيرة التي قام بها، حتى يتجزأها. ومن جهة أخرى، فإن هذه المساواة نفسها تجعل العسكريين من المواطنين يحملون بمبادئ القتال، لأنها ترفع من قيمة الأعماد الحربية في نظر أولئك الذين يتخذون من الجندية مهنة. ولأنها تجعل نيلها في متناول الجميع. ومهما كان الأمر، فقلق النفس واحد في كل من الحالتين، والميل إلى الملدات نهم لا يشبع، والطموح في النجاح قوى في الجميع. أما وسائل إشباع ذلك فهي وحدها المختلفة.

إن نزعات الأمة والجيش المتضاربة هذه تعرض الجماعات الديمقراطية لأخطار جسام. فإذا ما زالت الروح الحربية عن الأمة، لم تعد مهنة الجندية موضع تكريم، وهبط العسكريون إلى أدنى درجات الموظفين العامين العاديين. وبذلك يقل احترام الناس لهم. ولا يعودون يفهمونهم. وعندئذ يحدث هنا عكس ما يحدث في العصور الأرستقراطية، فلم يعد الذين يلتحقون بالجيش، من أسنى الطبقات، بل صاروا من أذناها. ولم يعد يتجه إلى المطامح الحربية إلا من لامطامح أمامهم سواها. وبذلك تنشأ دائرة خبيثة من العلل والمعلولات لا فكك منها؛ فصفوة أفراد الأمة يتحاشون الالتحاق بالمهن العسكرية، لأنها

لم تعد موضع تشريف وتكريم لهم؛ والمهن العسكرية هذه لم تعد موضع تشريف وتكريم لأن صفوة أبناء الأمة أصبحوا يأبون الالتحاق بها .

فلا عجب إذن إن بدت الجيوش الديمقراطية قلقه في كثير من الأحوال ، ومتدمرة ، غير راضية بما قسم لها من حظوظ ، على الرغم من أن أحوالها المادية أفضل بكثير من أحوال الجيوش الأخرى عادة ، والنظام فيها أقل صرامة مما في بلاد أخرى . فالجندي يشعر بأنه في مركز أدنى . وكبرياؤه الجريحة تقوى فيه الميل إلى الحروب حيث خدماته مطلوبة وضرورية ، أو هي تزيد فيه الرغبة الجارحة إلى الثورة ، حيث يأمل أن ينال بقوة السلاح ذلك النفوذ السياسي والاعتبار الشخصي اللذين حرهما .

إن تكونَ الجيوش الديمقراطية ليجعل هذا الخطر الذي ذكرته توأ مثار خوف كبير ، فمعظم المواطنين في البلاد الديمقراطية لهم شيء من الممتلكات يضمنون به ويحافظون عليه ، على حين أن قواد الجيوش الديمقراطية من الدهماء ، ولا أملاك لهم عادة ، فليس للكثرة منهم ما يخشون عليه من الضياع في غمرة الاضطرابات والحروب الأهلية . أما الغالية العظمى في الأمة (الديمقراطية) فيخشون قيام الثورات بطبيعة الحال ، أكثر مما كانوا يخشونها في العصور الأرستقراطية ، على حين يخشأها قادة الجيش أقل منهم بكثير .

وزيادة على ذلك ، وكما هي الحال في البلاد الديمقراطية ، فإن أوسع الناس ثراء ، وخيرهم تعليماً وثقافة ، وأعظمهم كفاية يندر أن يختاروا الالتحاق بالمهن العسكرية ( كما سبق أن ذكرنا من قبل) . فالجيش في جملته يصبح في النهاية أشبه بأمة صغيرة ، العقل فيها أضيق مما في الأمة الكبرى ، والعادات أكثر خشونة . وهذه الأمة الصغيرة غير المتحضرة تجد الأسلحة في يديها ، وتدرك أنها هي وحدها التي تعرف كيف تستخدمها . والحق أن مزاج الشعب السلمى ليزيد الخطر الذي تتعرض له الأمة الديمقراطية من جراء الروح العسكرية المتمردة التي تسود الجيوش . فليس شيء أخطر من جيش وسط أمة غير حربية مiale إلى السلام ، فغرام الجماعة الديمقراطية الشديد بالهدوء والاستقرار يجعل الدستور تحت رحمة الجيش باستمرار .

فلنا أن نؤكد إذن ، بوجه عام ، أن الأمم الديمقراطية إن كانت تنزع بطبيعة الحال إلى السلام من أجل ميولها ، ومصالحها ، فجيوشها تجربها دوماً إلى الحرب وإلى الثورات .

وقلما تحشى البلاد الأرستقراطية قيام الثورات العسكرية ؛ ولكن هذه الثورات هي نفسها التي يجب أن تحشاها دائماً الشعوب الديمقراطية ، وتحسب لها كل حساب ؛ فينبغي أن تعد تلك الأخطار من أشد ما يحذر بها في المستقبل . فما أحرى الساسة إذن أن يوجهوا اهتمامهم باستمرار إلى البحث عن علاج لهذا الشر .

فأول فكرة تخطر ببال الأمة عندما تشعر في صميم نفسها بالخوف من مطامع جيشها

القلقة، هي أن تجعل هذه المطامح المعيبة غرضاً تتجه إليه، وذلك بأن تمضى بالجيش إلى ميادين القتال. ولا أقصد بذلك أن أسوء الحروب: فالحروب توسع دائماً آفاق تفكير الشعب وترفع من روحه المعنوية. وقد تكون (الحروب) في بعض الأحوال القيد الوحيد الذى يجد من الإفراط في غموض النزعات التى تنبثق بطبيعة الحال، من مبدأ المساواة من حيث يجب أن تعد الحرب أمراً ضرورياً لعلاج بعض الأمراض المستعصية التى قد تتعرض لها الأمم الديمقراطية.

فالحروب مزايا كبيرة، ولكن يجب ألا نخدع أنفسنا ونقول إنها تقلل من ذلك الخطر الذى أشرت إليه توا، إنها تؤخره ليس إلا. كى يعود بشكل أشد عنفاً حين تنتهى الحرب، لأن الجيش لا يستطيع أن يصبر على السلام طويلاً بعد أن يكون قد ذاق الحرب واستساغها؛ فليست الحرب علاجاً إذن إلا للشعب دائم التعطش للأبجاد العسكرية.

وإني لأتكهن بأن جميع الحكام العسكريين الذين قد يظهرون في الأمم الديمقراطية العظمى ليجدوا أنه أيسر عليهم أن يقودوا جيوشهم يفتحون بها ويفتحون الأفق، من أن يدعوها تعيش في سلام عقب حروب ظفرت فيها بالنصر. فثم أمران تجذب الشعوب الديمقراطية دائماً مصاعب في القيام بهما: البدء بالحرب، والعمل على إنهاؤها.

فإن كانت الحروب تعود ببعض المنافع الخاصة على الشعوب الديمقراطية فهي من ناحية أخرى تعرضها لأخطار معينة لا تحشاها الشعوب الأرستقراطية ولا تتعرض لها تلك، وحسى أن أذكر هنا اثنين منها:

فإن كانت الحرب ترضى شهوة الجيوش، فإنها تترك ذلك الجمهور الكبير من المواطنين الذين يقتضى إرضاء أهوائهم الصغار استقرار السلام والاطمئنان باستمرار، وكثيراً ما تدفعه إلى اليأس، ومن ثم كان هناك شيء من المخاطرة دائماً أن تحدث بصورة أخرى، ذلك الاضطراب نفسه الذى يبغى لها أن تمنعه.

كل حرب طويلة المدى لابد أن تضر بحرية الشعب الديمقراطى. وليس معنى ذلك أننا يجب أن نخشى من أن يعمد القواد الطافرون إلى الاستيلاء بالقوة على السلطة العليا عقب كل انتصار مجرورونه، كما فعل كل من سولا (Sulla) وقصر. فالخطر هنا من نوع آخر. والحرب لا تسلم الشعوب الديمقراطية إلى حكومة عسكرية دائماً. ولكنها تؤدى دائماً إلى زيادة سلطات الحكومة المدنية زيادة لا حد لها. بل إنها لتكاد تكون ملزمة بأن تركز إدارة شئون الناس وإدارة كل الأمور في أيدي الحكومة. فإن هي لم تؤد إلى الاستبداد بعنف فجأتى فهي تهىء الناس لقبلة بصورة ألطف عن طريق عاداتهم. فيجب على الذين يسعون وراء القضاء على حريات أمة ديمقراطية. أن يعلموا أن الحرب أضمن وسيلة وأقرب طريق إلى تحقيق أغراضهم، وتلك أولى بدييات العلم.

وتم علاج آخر يبدو واضحاً لا حاجة به إلى شرح وإيضاح عندما تصبح مطامح الجنود والضباط مصدر خوف وفزع، وذلك بأن يزيد عدد وظائف الضباط التي يمكن إيجادها عن طريق زيادة الجيش. هذا، وقد يخفف زيادة عدد الجيوش من حدة الشر الحاضر مؤقتاً، ولكنها تلقى بالبلاد في متاعب أشق في المستقبل القريب. فزيادة الجيش قد تترك أثراً باقياً في أمة أرستقراطية لأن الطموح العسكري في هذه الأمم مقصور على طبقة واحدة من الرجال، وتقف مطامح كل رجل عند حد معين، وبذلك يتسنى لنا أن نرضى معظم الطامحين إن لم نرضهم كلهم. ولكن ليس ثمة أى مكسب من جراء زيادة الجيش في الأمة الديمقراطية، لأن عدد الطامحين يزداد دائماً بنسبة ازدياد عدد الجيش تماماً. فأما الذين أرضيت مطامعهم بإيجاد مراكز جديدة لهم في الجيش فسيعقبهم في الحال جمهور جديد آخر لا يستطيع إرضاءه، وحتى أولئك الذين سبق أن أرضوا سرعان ما يأخذون في الشكوى وفي الإلحاح بطلب ترقية جديدة، لأن التهيح النفسى ذاته الذى يسود طبقات المدنيين في المجتمع الديمقراطى سيتجلى في صفوف الجيش. فليس الذى ييغونه أن يصلوا إلى رتبة معينة فحسب، بل أن يظلوا يترقون باستمرار كذلك. ومع أن رغباتهم قد لا تكون واسعة أكثر مما ينبغى، فإنها تتجدد باستمرار كذلك. فالأمة الديمقراطية التي تزيد عدد جيشها لا تخفف بهذه الوسيلة طموح الرجال العسكريين إلا لفترة قصيرة من الزمن، ثم لا يلبث الطموح أن يصبح مثار خوف أشد لأن عدد الذين يشعرون به قد ازداد زيادة كبيرة.

وفي رأى أن الروح القلقة المضطربة شر ذاقى كامن في طبيعة تأليف جيوش البلاد الديمقراطية نفسها، وليس ثمة أمل في شفائها منها. فجدير بالمشرعين في البلاد الديمقراطية ألا يخذعوا أنفسهم ويظنوا أنهم يستطيعون أن يضعوا نظاماً عسكرياً يكفى وحده لإجبار رجال المهن العسكرية على التزام السكينة، ويكبح عادة الحرب معهم، إنهم إنما يضيعون جهودهم سدى قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى هذا الغرض.

إننا لن نجد في الجيش نفسه العلاج الشافى لما به من نقائص وعيوب، بل نجد هذا العلاج في الأمة ذاتها. فالأمة الديمقراطية تخشى الاستبداد بطبيعة الحال كما تخشى قيام الاضطرابات، ولا تعدو المسألة أن تجعل من هاتين النزعتين وأمثالهما ميولاً ثابتة، واعية، تعمل في ترو وتعقل. فعندما يتعلم المواطنون بأحرارة أن يحسنوا استخدام الحرية استخداماً سلمياً نافعاً، ويدركوا ما يعود عليهم منها من فوائد ومن نعم، وعندما يجنون النظام محبة كلها رجولة، وصاروا يخضعون للنظام طائعين مختارين - فهؤلاء المواطنون أنفسهم إذا ما التحقوا بالمهن الحربية نقلوا إليها على غير وعى منهم - بل وكأنه على كره منهم - تلك الصفات والعادات نفسها. فعندما تتغلغل روح الأمة العامة في روح الجيش الخاص بها، فإنها تخفف من حدة الآراء والرغبات التي تولدها الحياة العسكرية، أو هي تقمعها وتقضى عليها، بقوة الرأى العام القديرة على عمل كل شئ. فما علينا إلا أن نعلم

المواطنين أن يكونوا مثقفين منظمين ، ثابتين ، وأحراراً ، فعندئذ يصبح الجنود مدربين مطيعين .

فكل قانون يوضع لقمع روح الجيش المتمردة ، يؤدي إلى إضعاف روح الحرية في الأمة ، ويغشى بالغموض والإبهام فكرة القانون وفكرة الحق - هذا القانون إنما يعمل في الواقع ضد الغرض الذي رُمى إليه ، وبذلك يعاون على قيام الطغيان العسكري أكثر مما يعمل على إضعافه .

هذا ، وبعد كل شيء وعلى الرغم من كل ما يتخذ من احتياطات ، فيسظل وجود جيش ضخم في الأمة الديمقراطية مصدر خطر عظيم دائماً . وأنجح وسيلة للتقليل من هذا الخطر هي تخفيض ذلك الجيش ، ولكن هذا العلاج ليس مما تستطيع كل أمة أن تستخدمه وتطبقه .

## الفصل الثالث والعشرون

# أى الطبقات أكثر ميلاً إلى الحرب وإلى الثورة في الجيوش الديمقراطية

من طبيعة الجيوش في الأمم الديمقراطية أن تكون ضخمة كبيرة العدد بالنسبة إلى الشعب الذى تنتمى إليه ، كما سأبينه فيما بعد . ولما كان من النادر أن يختار الرجال الذين يعيشون في عصور ديمقراطية الالتحاق بمهنة الجندي من تلقاء أنفسهم ، اضطرت الأمم الديمقراطية هذه أن تلغى نظام التطوع الحر في تيميش الجيوش ، وتحل محله نظام التجنيد الإجبارى مدفوعة إلى ذلك بمقتضيات أحوالها الاجتماعية ، ومن السهل علينا أن نتكهن بأن جميع الأمم الديمقراطية ستلجأ بأخرة إلى الأخذ بنظام التجنيد الإجبارى هذا .

فعندما تكون الخدمة العسكرية إجبارية ، يقع عبؤها على الجماعة كلها بالتساوى من غير تمييز أحد على آخر . وهذه نتيجة أخرى ضرورية من نتائج أحوال هذه الأمم الاجتماعية ، ومن آرائها الذاتية فيها . فالحكومة تستطيع أن تفعل ما تشاء ، أو تكاد تكون كذلك ، مادامت تلجأ إلى الجماعة كلها في وقت واحد ، فعدم المساواة في توزيع الأعباء ، وليست الأعباء نفسها ، هو الذى يوجد المقاومة عادة . ولكن لما كانت الخدمة العسكرية عامة تشمل جميع المواطنين من غير تفریق ، كانت النتيجة الواضحة أن صار كل مواطن لا يظل في الجيش العامل سوى بضع سنوات . وهكذا كان من طبيعة الأشياء في البلاد الديمقراطية أن لا يمر الجندى بالجيش إلا مروراً عابراً ، على حين أن الجندي في معظم البلاد الأرستقراطية من المهن التى يقبل عليها المواطن من تلقاء نفسه ، ويختارها بنفسه حرفة له ، أو أن تفرض عليه فرضاً ، فيظل فيها طيلة حياته .

ولهذا نتائج ذات شأن ، فلا شك أن في الجيوش الديمقراطية من يكتسبون ميلاً إلى الحياة العسكرية ، ولكن الأغلبية منهم سيقوا على كره منهم إلى الانضمام إليها سوقاً ، ولذا كانوا ينزعون دائماً إلى العودة إلى بيوتهم وأهلهم - إلى الحياة المدنية ، فلا غرو أن كانوا لا يعدون أنفسهم مشتغلين جدياً بمهنة الجندي هذه ، ويفكرون باستمرار في الخروج منها . فمثل هؤلاء الناس لا يستشعرون أبداً الاحتياجات التى تتطلبها منهم هذه الحياة ، ولا هم

يشاركون إلا أقل مشاركة في الميول والأهواء التي تولدها في نفوس الجنود . إنهم يتكيفون بواجباتهم العسكرية حقاً ، ولكن قلوبهم تظل متعلقة بالواجبات والمصالح التي تربطهم بالحياة المدنية . ولذلك فهم لا يتشبعون بروح الجيش ، ولعل الأحرى بنا أن نقول إنهم يعملون على بث روح المجتمع الكبير في الجيش ، ويحافظون على بقائها فيه . فالجندي العادي (النفر) في الأمم الديمقراطية يظل أشبه بالمواطن المدني ؛ فعادات الشعب القومية راسخة فيه ، ومتسلطة عليه كل التسلط ، وللرأى العام عليه أعظم سلطان ؛ ومن ثم يتيسر له أن يث حب الحرية واحترام الحقوق في الجيوش الديمقراطية عن طريق الجنود (الأنفار) بوجه خاص ، وذلك إن كان قد سبق للشعب أن تشبع بهذه المبادئ من قبل . والأمر على العكس من ذلك في الأمم الأرستقراطية ، حيث ينتهي الأمر بالجنود ألا يكون بينهم وبين مواطنيهم أية رابطة مشتركة ، حتى إنهم ليعيشون بين ظهرانيهم أشبه بالغرباء ، بل وكثيراً ما يكونون فيهم أشبه بالأعداء .

أما في الجيوش الأرستقراطية فالضباط هم العنصر المحافظ ، لأنهم وحدهم الذين احتفظوا بروابط وثيقة بينهم وبين المجتمع المدني ، ولم ينزلوا أبداً عن نيهم في أن يعودوا إلى مكائهم فيه إن عاجلاً وإن أجلاً ، أما في الجيوش الديمقراطية فالجندي ، لا الضابط ، هو الذي يقف هذا الموقف والسبب ذاته .

وكثيراً ما يحدث ، على العكس من ذلك ، أن يحصل الضباط في هذه الجيوش الديمقراطية نفسها ، على أدواق ورغبات متميزة كل التمييز عن أدواق الأمة واحتياجاتها ؛ وهذا أمر يسهل تعليه ، في الأمم الديمقراطية نرى الرجل الذي ترقى فصار ضابطاً ، يفصم جميع الروابط التي تربطه بالحياة المدنية ، ويطلقها إلى الأبد ، فليس ثمة مصلحة تدفعه إلى العودة إلى تلك الحياة . فوطنه الحقيقي الآن هو الجيش ؛ لأنه مدين بكل ما يملك إلى المرتبة التي حصل عليها فيه ؛ ومن ثم كان حظه يتبع حظ الجيش ، فيرتفع بارتفاعه ، أو يهبط بهبوطه ، فلا عجب إن هو علق كل آماله بالجيش وحده . ولما كانت مطالب الضباط تختلف عن مطالب البلاد نفسها فإنه قد يرغب كل الرغبة في الحرب ، أو يعمل على إحداث ثورة ، حتى في اللحظة التي تكون فيها الأمة أشد ما تكون رغبة في الاستقرار والسلام .

ومع ذلك فتم أسباب عدة تخفف من قلق هذه الروح الحربية ، فمع أن الطموح عام وموصول في الأمم الديمقراطية ، فإنه ينذر أن يكون طموحاً سامياً ، كما رأينا من قبل ، فالرجل الذي نشأ في الطبقة الدنيا من طبقات المجتمع ، وارتفع من تحت السلاح فأصبح ضابطاً ، يكون قد خطا فعلاً خطوة واسعة ، لأنه حصل على مركز في مجال أسمى من المركز الذي كان يشغله في الحياة المدنية ، واكتسب حقوقاً تعدها معظم الأمم الديمقراطية دائماً ثابتة لمن حصل عليها لا تزول عنه ؛ فلا مانع عنده الآن من أن يتوقف فترة بعد هذا الجهد المهنى ، ويستمتع بما نال من حظ . فالخوف من المخاطرة بما أحرز من ترقى يخفف من رغبته

في اقتناء ما ليس في متاوله ، فبعد أن يكون قد تخطى أكأد عقبة في سبيل ترقيه ، تراه يستسلم بمزيد من الصبر إلى ما قد يكون في ترقيه هذا من بقاء ، ففتور طموحه يزداد كلما ترقى في مراتب الجيش وأدرك أن عليه أن يتوقع أن يخسر الكثير في أوقات الخطر . فإن لم أكن مخطئاً كان أقل ناس في الجيش الديمقراطي ميلاً إلى الحرب هم رؤساؤه .

لأن ما ذكرته عن الضباط والجنود لا يصدق على طبقة كبيرة من الرجال يشغلون في جميع جيوش العالم المراكز الوسطى التي بين الاثنين . وأعني بهم طبقة ضباط الصف ؛ وهي الطبقة التي لم يكن لها قط أى دور يذكر في التاريخ إلا في القرن الحاضر ، إذ قدر لها الآن ، في رأيي ، أن تقوم بدور له أهميته ، فقد قطع ضباط الصف جميع الروابط التي تربطهم بالحياة المدنية ، شأنهم في ذلك شأن الضباط ، وفرغوا أنفسهم كلها للخدمة العسكرية ، ولعلمهم جعلوها وحدها معقد كل رغباتهم ، ولكنهم رجال لم يصلوا بعد مثلما وصل الضباط ، إلى مركز ثابت عال يستطيعون أن يقفوا عنده ويتنفسوا بحرية أتم إلى أن يترقوا إلى مركز أسمى .

إن طبيعة واجبات ضابط الصف ، وهي واجبات ثابتة لا تتغير ، تقتضيه أن يحيا حياة ضيقة مغمورة ، قلقة ، غير مستقرة لراحة فيها ، فهو لم ير بعد من الحياة العسكرية غير أخطارها ، ولم يعرف منها غير ما فيها من حرمان ، ومن نظام شديد قاس ، وهما أمران أشق على النفس من أخطار الحرب نفسها ، وإنه ليتحمل من متاعبه الحاضرة الكثير بسبب علمه أن نظام المجتمع ، ونظام الجيش يحولان له أن يتخلص من هذه المتاعب ويرتفع عنها ، فله أن يرقى إلى رتبة الضابط فيحصل في الحال على أن يكون له الحق في الأمر ، والرتب ، والاستقلال والحقوق ومختلف المتع . فأماله هذه لا تبدو له ذات أهمية بالغة فحسب ، ولكنه لا يمكن أن يستوتق من تحققها إلا إذا صارت في يديه فعلاً ، فليست الرتبة التي يشغلها مما لا يمكن سحبه منه ، ذلك إلى أنه مضطر إلى أن يستسلم دائماً لأهواء ضابطه المشرف عليه ، لأن هذا الإذعان مما يقتضيه النظام ، وإن غلطة تافهة أو نزعة عابرة قد تحرمه في الحال ثمرة سنين عديدة من الكدح والعرق . فإلى أن يبلغ الرتبة التي تنتجها إليها مطامحه لا يكون قد أحرز شيئاً يذكر . والحق أن ترقيه في سلم الحياة العسكرية لا يمكن أن يبدأ إلا بعد أن يصل إلى هذه الرتبة - رتبة الضابط - فلا مناص للطموح المستيس من أن يشتعل في نفس رجل تظل تدفعه بالضرورة وباستمرار احتياجاته وأهواؤه وروح عصره ، وشبابه وآماله ومخاوفه كلها .

فضباط الصف يرغبون دائماً في الحروب إذن ، مهما كلفتهم من ثمن ، فإن لم تيسر لهم اتجهوا يعملون على إحداث الثورات ليعطلوا النظم والقوانين القائمة ، ويتخلصوا من رؤسائهم الضباط ، ويحلوا هم محلهم مستعينين في ذلك بالاضطراب العام وأهواء العصر الأساسية . هذا ، وليس من المستحيل عليهم أن يجدثوا مثل هذه الأزمة ، لأن وحدة

أصلهم وعاداتهم تجعل لهم سلطاناً عظيماً على الجنود ، مهما اختلفوا عنهم في أهوائهم ورجباتهم .

ومن الخطأ أن يتصور أحد أن خصائص الضباط وضباط الصف والجنود المنوعة هذه ، مقصورة على وقت معين أو قطر معين ، بل تحدث دائماً في كل العصور ، وفي جميع البلاد الديمقراطية فضباط الصف في كل جيش ديمقراطي أسوأ من يمثل روح البلاد المسالمة المنظمة ، على حين أن الجندي العادي من خير من يمثلها ، لأنه ينقل معه إلى الحياة العسكرية كل ما في عادات الأمة وآدابها الأخلاقية ، بما فيها من ضعف وقوة ؛ فهو يمثل صورة المجتمع في أمانة ودقة ، فإن كان هذا المجتمع جاهلاً وضعيفاً اتبع الجنود زعماءهم ، وعلى غير أوعى منهم يسرون خلفهم في تعكير صفوف النظام العام ، وفيما يثرونه من اضطرابات ، أما إن كان المجتمع مستتراً ونشيطاً فسيجعلهم هو نفسه يلتزمون مراعاة النظام ويسكنون إليه .

## الفصل الرابع والعشرون

# الأسباب التي جعلت الجيوش الديمقراطية أضعف من غيرها في بداية المعركة وأفضع منها في الحروب الطويلة المدى

عندما ينعم الجيش بالسلام فترة طويلة، ثم ينزل عقبها إلى ميدان القتال، يكون معرضاً لخطر الهزيمة في مطلع المعركة، على حين تكون أمام الجيش الذى ظل مدة طويلة مشغولاً بالحروب، فرص كثيرة لإحراز النصر؛ وتصدق هذه الحقيقة بوجه خاص على الجيوش الديمقراطية. أما في البلاد الأرستقراطية فالجندية مهنة ممتازة، تعد موضع تشريف حتى في حالة الحرب، فلا غرو إن اتجهت إليها أنظار الرجال ذوى المواهب العظيمة، والمعارف الواسعة، والمطامح العظيمة. فالجيش، يعد في نظرهم، من كل وجه من الوجوه، في مستوى واحد مع الأمة، بل كثيراً ما يضعونه في مستوى أعلى منها.

هذا، وقد رأينا من قبل أن الحال في الأمة الديمقراطية على العكس من ذلك، فمن فيها من صفوة الرجال ذوى العقول الكبيرة، يظنون يبتعدون عن الجندية شيئاً فشيئاً، ويشقون لهم طرقاً أخرى للحصول على ما ييغون من ضروب الوجاهة والسلطان، ومن الثروة بخاصة. فالجيش في العصور الديمقراطية، حيث فترة السلام طويلة يكون عادة في مستوى دون مستوى الأمة نفسها. وعندئذ يستدعى الجيش للخدمة المباشرة، فإن لم تغيره الحروب صار هو والدولة كلاهما في خطر.

وسبق أن أوضحت أن نظام الأقدمية هو القانون الأعلى الصارم في الترقية في الجيوش الديمقراطية وقت السلم، ولا يرجع هذا، كما بينت من قبل أيضاً، إلى تكوين هذه الجيوش فحسب؛ بل يرجع كذلك إلى تكوين الشعب نفسه، وهذا أمر سيظل يحدث على الدوام.

وزيادة على ذلك فالضابط في هذه الأمم يستمد مركزه في المجتمع من مركزه في الجيش وحده، ولما كان يستمد كل ما يحصل عليه من اعتبار ومن مرتب، من هذا المصدر عينه، صار لا يتقاعد من تلقاء نفسه، ولا هو يحال إلى المعاش إلا قرابة آخر عمره، فيترتب على

هذين العاملين أن الجيش الديمقراطي إذا أنزل إلى ميدان الحرب بعد فترة طويلة قضاها في السلام ، كان جميع ضباطه قد صاروا شيوخاً . هذا وليس الكلام هنا مقصوراً على القواد فحسب ؛ بل يشمل جميع ضباط الصف الذين معظمهم جامدين لا يترقون ، وإن ترقوا ، فبطء شديد ، وخطوة خطوة . فإن درسنا حالة جيش ديمقراطي عقب فترة سلام طويلة لدهشنا أن نجد جميع الجنود فتیاناً ، وكل كبار ضباط الجيش شيوخاً في أسنان متهدمة ، فعلى حين تنقص الأولين الخبرة ، تعوز الضباط الهمة والنشاط . وهذا لا شك من دواعي الهزيمة ، فأول شروط القيادة الناجحة أن يكون القائد شاباً ؛ وما كنت لأجرؤ على التصريح بذلك لو لم يقله أكبر قائد<sup>(١)</sup> ظهر في العصر الحديث .

وهذان العاملان لا يؤثران في الجيوش الأرستقراطية بصورة واحدة فإذا كانت الترقية في هذه الجيوش تقوم على أساس الأصل والنسب ، أكثر مما تقوم على أساس الأقدمية ، صرنا نجد دائماً في جميع الرتب عدداً معيناً من الشباب يجلبون إلى مهنتهم العسكرية كل مية نشاطهم العقلي والجسماني . وزيادة على ذلك فالرجال الذين يسعون وراء أمجاد الحروب في الشعوب الأرستقراطية ، إن كانوا ممن يستمتعون في المجتمع المدني بمركز مستقر ، يندر أن يستمروا في الجيش حتى تلحقهم الشيخوخة . فبعد أن يقضوا أنشط سني الشباب في حياة الجندية ، يستقيلون باختيارهم ويقضون كهولتهم وسنى نضجهم بين أهليهم وذوي قراباتهم .

لا يؤدي السلام الطويل إلى ملء الجيوش الديمقراطية بضباط شيوخ فحسب ، بل يكسب جميع الضباط عادات شتى . عقلية وجسمانية ، تجعلهم غير صالحين للخدمة العملية في الحروب . فمن يقضى مدة طويلة في جو ديمقراطي هادئ ، مسالم يجد في البداية مشقة كبيرة في تكيف نفسه بمطالب الأعمال الشاقة والواجبات الصارمة التي تقتضيها واجبات الحروب . فإن لم يكن قد فقد الميل إلى استخدام سلاحه فقداناً تاماً ، فإنه يكون قد اتخذ ، على الأقل ، من معيشتة في ذلك الجو الديمقراطي ؛ عادات لا تؤهله لأن يجارب وأن يتصر .

أما الاستمتاع برخاوة العيش في الحياة المدنية في الأمم الأرستقراطية فلا يؤثر في أخلاق الجيش تأثيراً كبيراً ، لأن الأرستقراطيين هم الذين يديرون أمور الجيش في هذه الأمة ، ومهما انهمك هؤلاء الأرستقراطيون في ملذاتهم المترفة فلهم نزعات أخرى غير الاهتمام برفاهيتهم وسعادتهم الشخصية ، فهم يسارعون إلى التضحية بهذه السعادة مؤقتاً ، كي يسدوا مطالب تلك النزعات على صورة أتم .

هذا ، وقد سبق أن أوضحنا أن الترق في الجيوش الديمقراطية في أوقات السلم بطيء

(١) لعل هذه نحية عابرة من المؤلف لئابلون بونابرت ، ولم يرد أن يذكر اسمه صراحة بداعي التقية .

كل البطء . ولا يلبث الضباط أن يدركوا أن لامناص لهم من أن يتحملوا هذه الحال في البداية ، ولو على مضض ، فهم وإن كانوا يتيجون ويقلقون ، وكثيراً ما يستولى عليهم الغضب في البداية ، إلا أن معظمهم يجمعون أمرهم في النهاية على الرضا بتلك الحال . أما ذوو المطامح الواسعة ، والموارد الكافية فيتركون الجيش ، ويكتفى الباقون بالعمل على التوفيق بين رغائبهم وبين حظهم الضئيل ، وينتهي بهم الأمر أن ينظروا إلى مهنة الجندي من وجهة نظر مدنية . فالشيء الذي يقدرونه أعظم قدر في هذه المهنة هو المرتب الذي يتقاضونه ، والاطمئنان الذي يترتب عليه ، فتصورهم المستقبل يقوم على أساس ضمانهم هذا المرتب القليل ؛ فكل ما يريدونه أن يتركوا وشأنهم في سلام يستمتعون به . وهكذا نجد أن السلام الطويل المدى لا يملأ الجيش بالشيوخ المسنين فحسب ، بل إنه كثيراً ما يوحى بآراء الشيوخ إلى أولئك الذين ما زالوا في ربيع الحياة .

وقد سبق أن أشرنا أيضاً إلى أن مهنة الجندي في البلاد الديمقراطية ليست موضع احترام كبير من الشعب في أوقات السلام ؛ ذلك إلى أنها لا تمارس إلا بقليل من الهمة والنشاط . فعدم احتفال الرأي العام بها هذا ، كابوس يجثم على عقول الجند ويرهقهم ، ويقل من حدة نشاطهم ، حتى إذا قامت الحرب في النهاية وجدوا أنفسهم عاجزين عن أن يستردوا في الحال ما كان لهم من حية ومن نشاط . هذا ، وليس في جيوش البلاد الأرستقراطية سبب شبيه بهذا يمكن أن يؤدي إلى إضعاف الأخلاق ، فالضباط الأرستقراطيون لا ينحطون أبداً في عيون أنفسهم ، ولا في عيون مواطنيهم لأنهم ، فضلاً عن عظمتهم الحربية ، عظماء في نفوسهم ، حتى ولو كان تأثير السلام في الجيشين الأرستقراطي والديمقراطي كليهما واحداً ، فالنتائج تبيء مختلفة دائماً .

وعندما يفقد ضباط الجيوش الأرستقراطية روحهم الحربية ، والرغبة في النهوض بأنفسهم عن طريق الخدمة العامة ، فإنهم لا يزالون ، مع ذلك ، يحتفظون بشيء من الرعاية والاحترام ، لكرامة طبقتهم وشرفها ، وعبادة ألفوها من قديم ، أن يكونوا دائماً في الصدارة ، وقدوة طيبة لغيرهم ، ولكن إذا لم يعد لدى ضباط الجيوش الديمقراطية شيء من شهوة الحرب ، ولا من المطامح الحربية ، لا يكون قد تبقى لهم شيء يحتفظون به .

ولذلك ، فمن رأبي ، أنه عندما يشتبك ديمقراطي في حرب ما ، بعد استماتعه بسلام طويل الأمد ، فإنه يتعرض لخطر الهزيمة ، أكثر مما يتعرض لها أية أمة أخرى ، على أن ذلك يجب ألا يفت في عضده ويجعل نفسه تنكسر بسهولة من جراء ما قد يصيبه من هزائم ، ففرص النجاح التي أمام مثل هذا الجيش تزداد كلما طال أمد الحرب ، فإن أدت الحرب ، بسبب طول أمدها هذا ، إلى انتزاع جميع المواطنين من اشتغالهم بمشروعاتهم السلمية الكبيرة ، وإلى القضاء على الكثير من أشغالهم الصغيرة ، فالأهواء نفسها التي أدت بهم إلى أن يجعلوا لرعاية السلام أهمية بالغة ، توجههم ، هي ذاتها ، نحو حمل السلاح .

فبعد أن تكون الحرب قد هدمت جميع الصناعات ، تصح الحرب هي الصناعة الوحيدة العظيمة التي تتجه إليها وحدها ، دون غيرها ، المطامح والرغبات المتوقفة التي ولدتها المساواة في الناس . ومن ثم فإن هذه الأمم الديمقراطية نفسها ، التي كان حملها على تقلد السلاح يقتضى مجهوداً كبيراً ، يمكن أن تقوم في بعض الأحيان بأعمال جبارة إذا ما نزلت إلى ميادين القتال .

فكلما اجتذبت الحرب أنظار الشعب ، واسترعت اهتمامه ، ورأى الناس أنها تتيح لهم المجال لكسب شهرة واسعة ، وثروات ضخام ، في وقت قصير ، اتجهت صفوة الناس وخيارهم إلى الاندماج في سلك الجندية . فيتجه إليها جميع المغامرين المعتزين بأنفسهم ، وذوو النزعات الحربية منهم ، بعد أن لم يعودوا كلهم من الأرسقراطيين وحدهم ، بل صاروا من البلاد كلها . وإذا كان عدد المتنافسين على الحصول على الترقيات والأجساد الحربية عظيماً ، وكانت الحرب تدفع كل امرئ إلى مستواه الواجب له ، كان لامناص من ظهور قواد عظام نابغين . فالجرب الطويلة المدى تؤثر في الجيش الديمقراطي التأثير نفسه الذي تتركه الثورة في الشعب ، فيكسر جميع اللوائح والنظم ، ويتيح المجال لظهور ذوى المواهب العظيمة الحارقة للعادة ، وسرعان ما يتبعون مستوى أعلى من المستوى العام . أما أولئك الضباط الذين شاخت عقولهم وترهلت جسامهم في فترة السلام الطويلة ، فيعزلون أو يحالون إلى المعاش ، أو يختطفهم الموت . ثم يقوم جيش من الشباب يتزاحمون على أن يحملوا محل أولئك الشيوخ ، بعد أن خشنت الحرب أجسامهم ، ووسعت الخدمة الحربية رغباتهم وأهبتهم . لقد عقدوا عزمهم على أن ينهضوا ويترقوا مهما كلفهم ذلك من ثمن ، بل إنهم أجمعوا أمرهم على أن يكون ترقبهم هذا متصلاً مستمراً ، ثم يليهم غيرهم ممن لهم نفس الأهواء ونفس الرغبات ، وهكذا ، فهؤلاء ، وغيرهم لا يحد عددهم سوى حجم الجيش . فمبدأ المساواة يفتح باب الطموح على مصراعيه للجميع ، ويتيح الموت القرض للطموح إذ يختطف الناس باستمرار من صفوف الجيش ، وبذلك يخلى الكثير من المناصب فيه ، فالموت يغلغق باستمرار مجال التقدم في الجيش للبعض ، ويفتحه لآخرين .

وزيادة على ذلك ، فثم صلة خفية بين عادات العسكريين الأخلاقية وبين خصائص الديمقراطية تكشف عنها الحرب ، فأهل البلاد الديمقراطية يتلهفون كل التلهف ، بطبيعة الحال ، أن يحرزوا بسرعة وفي يسر ما يطمعون فيه ، وأن يستمتعوا به كذلك بسرعة ويسر ، فالكثره منهم يعبدون الحظ والمصادفة ، ولا يخشون الموت ، بقدر ما يخشون تحمل الآلام . فهذه هي الروح التي يعملون بها في شئون التجارة والصناعة ، وهذه هي الروح التي ينقلونها معهم إلى ميدان القتال ، فتدفعهم إلى تعريض حيواتهم للخطر ، راضين مرتاحين ، ماداموا سيحققون لأنفسهم في لحظة واحدة ثمار النصر . فليس ثمة نوع من العظمة يرضى خيال

الشعب الديمقراطي أكثر مما ترضيه العظمة العسكرية ؛ وهي عظمة فيها تألق يسطع فجأة، وتنال في غير مشقة؛ فهي لا تكلف الراغب فيها سوى المخاطرة بالنفس .

فإن كانت مصالح الجماعة الديمقراطية وأذواقهم تبعدهم عن الحرب ، فعاداتهم العقلية تؤهلهم لأن يقوموا بالحروب خير قيام ، فهم سرعان ما يؤدون واجباتهم الحربية على خير وجه ، عندما يفيقون من استغراقهم في أشغالهم والاهتمام برفاهيتهم وملذاتهم .

فإن كان السلام مضراً بالجيوش الديمقراطية بوجه خاص ، فالحرب تكسيهم فوائد وميزات لم تكن لجيوش غيرها قط ، ومهما كان التفطن لهذه الفوائد قليلاً في أول الأمر ، فإنه لا بد مبلغهم النصر في النهاية . فالأمة الأرستقراطية التي لم توفق في حرب لها مع أخرى ديمقراطية بأن تفوز عليها في المعارك الأولى من الحرب ، تتعرض دائماً لخطر أن تخسر الكثير على يدى هذه الأمة الديمقراطية الظاهرة .

## الفصل الخامس والعشرون

### النظام في الجيوش الديمقراطية

الرأى الشائع كل الشيوع في البلاد الأرستقراطية بخاصة أن تلك المساواة العظيمة في الأحوال الاجتماعية ، الطاغية على البلاد الديمقراطية ، ستؤدى في النهاية إلى استقلال الجندى عن الضابط ، وهو أمر يترتب عليه انفصام عرى النظام في الجيش . إن هذا الرأى لحاطىء ، فثم نوعان في الواقع من النظام في الجيش ، يجب أن نحرص على عدم الخلط بينهما .

فعدما يكون الضابط من النبلاء ، والجندى من الأقباء ( عبيد الأرض ) ، أحدهما غنى والآخر فقير ؛ أولهما متعلم وقوى ، والآخر جاهل ضعيف - عندما يتيسر عقد أواصر النظام الوثيقة بين الرجلين ، فيطيع الجندى ضابطه طاعة مطلقة ، فقد تدرّب على مراعاة النظام العسكري حتى قبل أن يدخل الجندية (إذا جاز لنا هذا التعبير) . وبعبارة أخرى لا يعدو النظام العسكري أن يكون مجرد نهوض بالعبودية الاجتماعية إلى مستوى أعلى . أما في الجيوش الأرستقراطية فسرعان ما يصبح الجندى وكأنه فقد الإحساس بكل شىء عدا أوامر رؤسائه الضباط ، فقد صار يعمل من غير تفكير ، ويجرز الانتصار في غير تحمس ، بل ويموت دون أن يتشكى . فهو في هذا ليس بإنسان ، بل حيوان بشع مدرب على الحروب والقتال .

ولا مناص للشعب الديمقراطي من أن يستشعر اليأس من أن يحصل من جنوده في يوم ما على تلك الطاعة الدقيقة العمياء التى لا تتغير ، والتي يتسنى للشعب الأرستقراطى أن يفرضها على جنوده فرضاً من غير أية مشقة ، ذلك لأن حالة المجتمع لاتعدهم لها ، وقد تكون الأمة في خطر أن تفقد ما عسى أن يكون لها من ميزات طبيعية في سبيل الحصول على مثل هذه الميزة الخاصة بطرق اصطناعية . فينبغى ألا يحاول النظام العسكري في البلاد الديمقراطية أن يقضى على حرية العقول في العمل ، بل كل ما عليه أن يعمل لا يعدو أن يوجهها فحسب . فالطاعة التى يبثها في نفوس الجند بهذه الطريقة تكون أقل دقة حقاً ؛ ولكنها أسرع تلبية وأكثر إدراكاً للأمور ؛ فأصولها قائمة في إرادة من يطبع ؛ فهى لا تقوم على أساس من فطرته فحسب ، بل وعلى أساس من عقله كذلك ؛ ومن ثم فكثيراً ما تصبح

من تلقاء نفسها أكثر دقة وتشدداً إذا ما اقتضى الخطر ذلك . أما النظام في الجيوش الأرسقراطية فقد يتراخى من تلقاء نفسه أثناء الحرب ، لأنه يقوم على العادة ، والحرب كما لا يخفى تشيع الاضطراب في العادات . على حين أن النظام في الجيوش الديمقراطية يزداد على العكس من ذلك صرامة أمام العدو ، وفي القتال ، لأن كل جندى يدرك أنشد إدراكاً جلياً أنه لا مناص له من أن يعمل في صمت ويطيع حتى يتيسر له الفوز على العدو .

لم تكن الأمم التي أنجرت أعظم الأعمال من طريق الحروب تعرف نظاماً غير ذلك الذى وصفت . فلم يكن القدامى يقبلون في الجيش غير الجنود الأحرار والمواطنين ، وهؤلاء لا يختلفون الواحد منهم عن الآخر إلا اختلافاً يسيراً فقد تعودوا من قبل أن يعاملوا بعضهم بعضاً معاملة الند لنده . ومن ثم جاز لنا أن نقول إن جيوش الأقدمين كانت جيوشاً ديمقراطية على الرغم من أن جنودهم جاءوا من صميم الأرسقراطية . فلا عجب إن قام شىء من الألفة الأخوية بين الضباط وجنودهم . وإن المرء منا ليجد في الكتاب الذى وضعه بلوتارك في سير القواد العظام ، من الأمثلة الكثيرة ما يقنعه بهذه الحقيقة ، ففيه يرى الجند يتحدثون باستمرار وبكل حرية مع قوادهم ؛ والقواد يصفون في ارتياح إلى ما يقوله جنودهم ، ويجيبون على ما يوجهونه إليهم من الأسئلة ، لقد كانوا لا يستبقون جنودهم محافظين على النظام ، بالإرشاد وبالقدوة الطيبة أكثر مما يجعلونهم ، يحافظون عليه بالإكراه وبالعقاب ، لقد كان القائد زميلاً لجنده لارئيساً عليهم . ولست أدري إن كان جنود الإغريق والروم قد بلغوا بتفصيلات النظام العسكري الدقيقة درجة الكمال التي بلغها بها الروس ، ولكن ذلك لم يمنع الإسكندر من الاستيلاء على آسيا ؛ ولا الروم من الاستيلاء على العالم .

## الفصل السادس والعشرون

### طائفة من الآراء

### عن الحروب في البلاد الديمقراطية

عندما ينتشر مبدأ المساواة في عدة أمم متجاورة، وفي وقت واحد، كما هي الحال في أوربا الآن، لافي أمة واحدة فحسب؛ فإن سكان هذه البلاد المختلفة يتساوون في فزعهم من الحرب وفي حبههم للسلام. على الرغم من تفاوتهم في اللغة والعادات والقوانين، فعيناً ما يحرك الطموح أو الغضب الأمراء ويدفعهم إلى امتشاق الحسام. فثم نوع من الخمول العام وحسن النية يهدى من غضبهم، على الرغم منهم، ويجعل السيف يسقط من أيديهم؛ ولذلك، تصبح الحروب عندهم نادرة.

فكلما انتشرت المساواة في عدة أقطار دفعة واحدة، اتجه مختلف سكانها نحو الصناعة والتجارة، وبذلك تصبح أذواقهم متائلة وتختلط مصالحهم بعضها ببعض وتتشابك، حتى لا تستطيع أمة أن توقع شراً بغيرها من الأمم دون أن يحيق هذا الشر بها نفسها، وينتهي الأمر بالأمم كلها أن تعد الحروب كارثة كبرى يستوى الغالب والمقلوب في معاناة مرارتها وقسوتها.

ومن العسير كل العسر، في العصور التي تسودها الديمقراطية، جر الشعوب إلى الحرب. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يكاد يكون من المستحيل أن تسارع أمتان إلى الحرب دون أن تجرا معهما سائر الأمم. فقد أصبحت مصالح الجميع متشابكة، وآراؤهم وحاجاتهم متائلة كل التماثل، فلا غرو إن كانت لا تستطيع واحدة منهما أن تظل ساكنة إذا ما تحركت الأخرى. ومن ثم أخذت الحروب تقل، ولكن إذا ما حدث أن اشتعلت الحرب فسرعان ما تنتشر أيما انتشار.

فالأمم الديمقراطية المتجاورة لا تصبح متشابهة من وجوه عدة فحسب، بل تنتهي بأن يشبه بعضها بعضاً من جميع الوجوه؛ ولتشابها هذا عواقب جد عظيمة من حيث الحروب.

فإن أنا حاولت تحرى السبب الذي مكن للاتحاد السويسري، أن يجعل أعظم الأمم

الأوربية وأقواها ترتعد خوفاً في القرن الخامس عشر، على حين أن قوة الاتحاد قد أصبحت في الوقت الحاضر تتناسب تماماً مع عدد سكانه - إن أنا حاولت ذلك أدركت أن السويسريين قد صاروا مثل سائر الأمم المحيطة بهم، وصارت هذه الأمم نفسها مثل السويسريين أنفسهم. فإن كانت القوة العددية الآن هي الفارق الوحيد بين الأمم، كان النصر بالضرورة حليف الأمة صاحبة أضخم الجيوش عدداً. لقد كان من نتائج الثورة الديمقراطية القائمة في أوروبا أن جعلت القوة العددية تسود كل ميادين الحرب، وأجبرت الأمم الصغيرة على الانضمام إلى الكبيرة، أو على أن تنتهج، على الأقل، سياسة لا تختلف عن سياستها .

فعندما يكون القول الفصل في النصر لعدد الجنود، صار على كل أمة بالطبع أن تحاول بجمع ما لديها من الوسائل المختلفة أن ترسل بأكبر عدد من الرجال إلى ميدان القتال . ولما كان من الممكن إرسال نوع من الجيوش عرف بالفوق على سائرها، مثل المشاة السويسريين والفرسان الفرنسيين في القرن السادس عشر، فلم يكن من الضروري إذن إرسال الجيوش الجرارة إلى ميدان الحرب، ولكن الحال تغيرت الآن بعد أن صار كل جندي يعدل أى جندي آخر في المعركة .

فالسبب نفسه الذى يؤدي إلى هذه الحاجة الجديدة، هو الذى يزودنا كذلك بالوسائل اللازمة لسدها، فعندما يتساوى الناس، يصبحون جميعاً ضعفاء، وتصبح السلطة العليا في الدولة أقوى جداً بطبيعة الحال في البلاد الديمقراطية منها في غيرها، وعندما ترغب هذه الأمم الديمقراطية في دعوة كل رجالها القادرين على حمل السلاح، لابد أن تكون لديها القدرة اللازمة على جمعهم، مما يجعل الجيوش في العصور الديمقراطية تزداد عدداً وضخامة ، كلما ضعفت محبة الحرب في الناس .

هذا، وقد تغيرت في هذه العصور ذاتها ، طرق إدارة الحروب للأسباب نفسها . قال مكيافيل<sup>(١)</sup> في كتاب الأمير : « إن إخضاع أمة يتزعمها أميرها ومن معه من « البارونات » لأشق بكثير من إخضاع أمة يقودها أمير وعبيده »، وما علينا كى لا نغضب أحداً، إلا أن نضع عبارة « الموظفين العامين » محل لفظ « العبيد » هذه فتوافر لنا حقيقة هامة تصدق كل الصدق على عصرنا الحاضر .

عسير على أمة أرسقراطية عظيمة أن تغزو جاراتها، أو أن يغزوها هم، من غير أن تواجه عقبات كأداء في طريقها، فهي لا تستطيع أن تغزوها لاستحالة جمعها كل قواها واستبقائها قائمة متهيئة على قدم وساق مدة طويلة، ولا يمكن أن يغزوها غيرها لأنهم

(١) نيقولا مكيافيل (١٤٦٩ - ١٥٢٧) سياسى ومؤرخ فلورنسى أهم كُتبه « الأمير » هذا وأكثرها شهرة، ومن عجب أن يكون جزء من هذا الكتاب من أوائل الكتب التى ترجمت وطبعت بمصر أيام محمد على بالزنكوغراف، ثم ترجمه المغفور له محمد لطفى جمعة الخامى، ثم نشره وكتب عنه وحلله السيد محمد الزقزوق ونشرته مكتبة الانجلو سنة ١٩٥٨ .

سيواجهون في كل خطوة بخطونها مراكز صغيرة للمقاومة تعترض تقدمهم في هذا الغزو وتعطله. فالحرب ضد شعب أرستقراطي أشبه بالحرب في البلاد الجبلية حيث أمام الفريق المدحور فرص دائمة للم شمله وجمع قواه، وللصمود في مواضع جديدة تثبت فيها أمام العدو ويقاومه .

وعكس ذلك على خط مستقيم ما يحدث في البلاد الديمقراطية . فما أسير عليها من أن تنزل جميع القوى التي تحت تصرفها إلى الميدان، وإن كانت الأمة غنية كثيرة السكان فسرعان ما يكون النصر حليفها، أما إذا حدث وقهرت وغزا العدو أراضيها، لم يعد تحت تصرفها سوى موارد قليلة، وإذا ما استولى العدو على عاصمتها ضاعت الأمة بأسرها . وما تفسر ذلك بعسر، فلما كان كل عضو من أعضاء الجماعة منفصلاً عن الآخر ولا حول له ولا قوة من حيث هو فرد، لم يكن في استطاعة أحد في الجماعة كلها أن يدافع عن نفسه، ولا أن ينشئ مراكز مقاومة يتجمع فيها الآخرون، فليس قوياً في البلاد الديمقراطية غير الدولة وحدها، فإذا ما قضى على قوتها الحربية بتدمير جيشها، وشلت سلطتها الإدارية بوقوع كبرى مداتها في أيدي العدو، ولم يتبق لها سوى حشد من الناس لا قوة له ولا نظام فيه، لا يستطيع أن يقف أمام القوة المنظمة التي تواجهه . هذا، وليس بخاف على، أن تقلل هذا الخطر ميسور وذلك بإيجاد حريات إقليمية وما تستلزمه من سلطات إقليمية، وحكم محلي، ولكن هذا العلاج سيظل، مع ذلك، غير ناجح على الدوام . لأن الشعب لا يكون عقب هذه الكارثة عاجزاً عن مواصلة القتال فحسب، بل الخوف أن يكون غير راغب حتى في أن يحاول معاودة القتال من جديد .

فبحسب القانون الدولي الذي تجرى عليه الدول المتحضرة؛ ليس الغرض من الحروب الاستيلاء على أموال الأفراد، وإنما الحصول على المزيد من القوة السياسية، أما تدمير الملكيات الشخصية فلا يعدو أن يكون وسيلة يلجأ إليها المحاربون في بعض الأحيان، كي يحققوا هذا الغرض الثاني .

وإذا منى جيش دولة أرستقراطية بالهزيمة واقحم العدو بلادها، أثر البلاء، على الرغم من أنها أغنى أهل البلاد، أن يواصلوا الدفاع عن وطنهم فرادى على أن يسلموه للعدو طعمة سهلة، وذلك لأن هذا العدو إذا ما استولى على البلاد جردهم من قوتهم السياسية التي يتعززون بها ويستمسكون أكثر من استمسакهم بأموالهم، وهذا ما يدعوهم إلى الاستمرار في النضال وإيثاره على ذلك الاستسلام الذي يعدونه أفدح كارثة يمكن أن تحل بهم ... هذا وأنهم لا يلبثون أن يجرفوا الشعب معهم، طالما اعتاد أن يتبعهم؛ ذلك إلى أنه لا شيء عنده يخشى عليه من أن يضيع في الحرب .

والأمر على العكس من ذلك في الأمة التي تساوت فيها الأحوال الاجتماعية، فليس لكل مواطن فيها سوى نصيب ضئيل من «القوة» السياسية، وكثيراً ما لا يكون له فيها

نصيب ما . ومن جهة أخرى فكل مواطن منهم مستقل ، وعنده شيء يخشى عليه أن تذهب به الحروب ، ومن ثم كانوا لا يخافون من استيلاء العدو على بلادهم بقدر ما يخافه الشعب الأرستقراطي ، ولكنهم يخشون الحرب نفسها ، أكثر مما يخشاه ذلك الشعب . ومن الصعوبة بمكان إقناع الشعب الديمقراطي بوجوب المبادرة إلى السلام عندما يدخل العدو عقر ديارهم . وهذا ما يحتم إعطاء هذا الشعب الحقوق السياسية ، وتلك الصبغة السياسية التي قد تجعل لكل مواطن منهم شيئاً من ذلك الاهتمام الذي يحفز النبلاء إلى العمل على ما فيه المصلحة العامة في البلاد الأرستقراطية .

وجدير بزعماء الديمقراطية وحكامها أن يذكروا أن لاشيء غير حب الحرية واعتياد ممارستها ، يمكن أن يواجه حب الرفاهية الشخصية واعتيادها بشكل يكتب له شيء من النجاح في صراعه مع حب تلك الرفاهية . هذا ، وإني لأستطيع أن أتصور شعباً يرضى بالذل والخضوع في حالة الهزيمة ، مثل الشعب الديمقراطي ، إذا خلا من المؤسسات الحرة .

كانت العادة في الزمن القديم أن تنزل الأمة إلى ميدان القتال بعدد قليل من جنودها لتقاتل بهم في معارك صغيرة ، وتقوم بحصار شتى المواضع والبلدان حصاراً طويلاً . أما نظم الحرب الحديثة فتتخذ طريقها غير هذا الطريق ، فيتجه القواد إلى القيام بمعارك كبرى حاسمة ، وعندما يكون الطريق إلى العاصمة مفتوحاً أمام الجيش ، اندفع إلى الهجوم عليها كي ينهى الحرب بضربة واحدة قاضية . وقد زعموا أن نابليون هو الذى ابتكر هذا النظام الجديد في الحروب . ولكن هذا الابتكار لا يرجع في الواقع إلى شخص واحد بعينه ، أيّاً كان ذلك الشخص . فالطريقة التي اتبعها نابليون في حروبه لاتعدو أن تكون طريقة أوحث بها إليه أحوال المجتمع في أيامه ، لقد نجح هذا النظام لأنه كان يتلاءم وقشذ كل الملازمة مع حالة المجتمع . ولكن نابليون كان أول من استعمله ، فقد كان أول قائد سار على رأس جيشه من عاصمة إلى عاصمة ، ولكن دمار المجتمع الإقطاعي كان قد فتح له الطريق ومهده له من قبل . ومن المعقول أن هذا الرجل الفذ ، لو ولد قبل ثمانمائة سنة ، لما استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه باستعمال طريقته تلك التي اصطنعها في حروبه ، أو لعله كان يعتمد إلى ابتكار طريقة أخرى غيرها .

وحسبى أن أشير هنا إلى الحروب الأهلية ببضع كلمات ، خشية أن استفد صبر القارئ وأنقل عليه ، فأكثر ما ذكرته عن الحروب الخارجية يصدق كذلك بحق الأولية على الحروب الأهلية (الداخلية) فليس عند سكان البلاد الديمقراطية الروح الحربية بطبيعة الحال . إنهم قد يكتسبون هذه الروح أحياناً إذا ما أكرهوا على النزول إلى ميادين القتال إكراهاً ، أما أن يبها من تلقاء أنفسهم هبة رجل واحد ويتعرضوا مختارين لفظائع الحروب ، وبخاصة الحروب الأهلية ، فاتجاه لا يحسنه أهالى البلاد الديمقراطية . فليس غير

أشد المواطنين مغامرة فيهم يرضى أن يقحم نفسه في مثل هذه المخاطرة، أما جمهور الأهالي فسيظلون متخلفين جامدين لا يتحركون .

وحتى إن هموا باتخاذ إجراء عملي، فإنهم لن يصلوا إليه بسهولة، إذ ثم عقبات كثيرة تقوم في سبيلهم، فهم لا يجدون بين ظهرانيهم مآثورات قديمة مقررة يسارعون إلى إطاعتها والإذعان لها، ولا زعماء مشهورين يجمعون حولهم الساخطين من الأهالي ويدربونهم ويتزعمونهم، ولا سلطات سياسية، دون سلطة الشعب العليا سنداً قوياً يركون إليه في المقاومة الموجهة ضد الحكومة .

إن للغالية في البلاد الديمقراطية قوة أدبية بالغة، والصادر الأدبية والطبيعية التي تحت تصرفها عظيمة كذلك، ولا نسبة بينها مطلقاً وبين المصادر المادية الأخرى التي يمكن أن تتجمع ضدها . ومن ثم كان الفريق الذي يشغل كراسي الأغلبية، والذي يتحدث باسمها، ويستخدم قوتها، هو الذي ينتصر في الحال، وفي غير مشقة على كل مقاومة فردية؛ بل إنه لا يدع لمثل هذه المقاومة وقتاً تتمكن فيه من الظهور، فهو يقضى عليها في مكانها .

أما الذين يسعون لإحداث ثورة بقوة السلاح في مثل هذه الشعوب، فلا وسيلة لديهم سوى الاستيلاء فجأة على أداة حكم، بالصورة التي هي عليها، وهذا ما يمكن عمله، بحركة انقلاب مباغته لا بحرب منتظمة . فالفريق الذي يمثل الحكومة يكون دائماً واثقاً من أن النصر سيكون حليفه .

والحالة الوحيدة التي يمكن أن تؤدي إلى حرب أهلية هي انقسام الجيش طائفتين، طائفة ترفع علم العصيان وأخرى تظل قائمة على ولائها . فالجيش جماعة صغيرة محبوبة تمام الحبك، وتتمتع بقسط كبير من الحيوية، وقادرة على أن تكفي نفسها فترة من الزمن، وقد تكون مثل هذه الحروب ضرورياً طاحنة إلا أنها لا تدوم طويلاً، فإما أن يفوز الجيش الناصر ويستولى على الحكومة بمجرد استعراضه موارده وقواه فحسب، أو يفوز في أول انتصار يحرزه، وعندئذ تنتهي الحرب . وإما أن تقوم المعركة، فيبادر جزء الجيش الذي لا تؤيده قوى الحكومة المنظمة، ويحل نفسه بنفسه، وإما يهلك كله عن آخره، فلنا إذن أن نضع قاعدة عامة نسلم بها جميعاً وهي : تقل الحروب الأهلية في عصور المساواة قلة كبيرة، ولا تستمر الحروب دائمة إلا مدة قصيرة .